الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

تاريخ الشرفاء

دييكو دي طوريس

ترجمه إلى العربية

د. محمد حجي   د. محمد الأخضر



الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

تاريخ الشرفاء

دييكو دي طوريس

ترجمه إلى العربية

د. محمد حجي   د. محمد الأخضر





تقديـــم

يتناول كتاب تاريخ الشرفاء سبعة عقود من بداية الدولة السعدية، منذ الفترة التمهيدية التي سبقت مرحلة التأسيس،أي منذ سنة 1502/908 التي تتميز-في نظر المؤلف-بشيئين: أولهما قرار ملك البرتغال دم مانويل مدفوعا بحمية صليبية بمضاعفة غاراته على الشواطئ المغربية وتوسيع مناطق نفوذه.وثانيهما توجه الشرفاء الى الحج للحصول على احترام السكان وتعظيمهم قبل القيام بالدعوة الى الجهاد والعمل على اكتساب السلطة. ويستمر الكتاب في متابعة الأحداث الى موت عبد الله الغالب عام 1574/981 .

يسير **تاريخ الشرفاء** في هذا الخط المزدوج متتبعا مراحل الصراع بين المغاربة وعلى رأسهم الشرفاء، وبين البرتغاليين بقيادة الضباط حكام أسفي وأزمور ورأس اغير (أكدير) ومازيغن (الجديدة) إلى أن تم تحرير هذه المراكز - باستثناء الجديدة -. وفي أثناء ذلك يأتي بمعلومات مفيدة جدا نفتقدها في مصادرنا العربية ، بالرغم من تعصب المؤلف وتحامله السافر . كما يهتم الى جانب ذلك بالصراع السعدي-الوطاسي الذي انتهى بقيام دولة الشرفاء السعديين وتوحيد البلاد جنوبا وشمالا .

تختلف المادة التاريخية في كتاب **تاريخ الشرفاء**، ففيما يتعلق منها بأحداث العقود الأربعة الأولى حكاها المؤلف نقلا عن "مذكرات الغير" من إسبانيين وبرتغاليين، خاصة مارمول كربخال وگويش (الفصول 53 الأولى) بينما تحدث عن مشاهدة واتصال مباشر فيما يتعلق بالعقود الثلاثة التالية (الفصول 59 الأخيرة)، وهذا مايضفي على الكتاب أهمية خاصة، لاسيما أن دييكو-كأجنبي- سجل كثيرا من الظواهر الاجتماعية التي أثارت فضوله والتفصيلات الدقيقة لتحركات الناس ومعاملاتهم في الأسواق وأحاديثهم وتعليقاتهم مما تزيغ عنه -عادة- أبصار الإخباريين الأهلين وكتاب التراجم .

أما مؤلف **تاريخ الشرفاء** ، فلا نعرف عنه إلا ما ذكره هو عن

نفسه في الفصل 54 من الكتاب . اسمه دييگو دي طريس، ولد حوالي عام 1526 ونشأ في كفالة والده فرانسوا دي طريس بمدينة أموسا من بلاد كامبوس (قشتالة)، ولما أدرك الثامنة عشرة من عمره تاقت نفسه الى السفر، فاستأذن والده وتوجه الى إشبيلية حيث مكث سنتين وهو عازم على مغادرة إسبانيا في أول مناسبة . وهناك تعرف على نبيل يدعى نيكولا نونيز الذي كان صهره الراهب فيرناند گوميز يعمل بالمغرب على افتداء الأسرى، بأمر من الملك "دم يوحنا"، فأقنعه بالذهاب الى المغرب لمساعدة الراهب في مهمته على أمل أن يخلفه متى أصبح قادرا على ذلك رغم صغر سنه .

قبل دييگو دي طريس عرض نيكولا نونيز، ولو أنه أبدى بعض التحفظ أو التحسر، لأن عملا كهذا ليس من شأنه أن يدر عليه ماكان يحلم به -كشاب طموح- من غنى ورغد عيش . لكن يبدو أنه كانت تتجاذبه الى ذلك نزعة دينية ورغبة في أن يخلع عليه الملك يوما ما مسوح الرهبنة مثلما خلعها على سلفه گوميز . وأخيرا أبحر من قادس في سفينة كراڤيل قاصدا مازيغن (الجديدة) فأسفي، ومن هناك توجه الى مراكش حاملا ما أتى به من بضائع . فدخلها يوم عيد القربان (أوائل شهر يونيو) من سنة 1546 ربيع الثاني 953. حيث استقبله الراهب فيرناند گوميز، وسكن بجواره في دار أعدت له في الحي الخاص بالنصارى (الديوانة الكبيرة). وقدّمه الى الشريف محمد المهدي الشيخ، الذي لم يكن في ذلك الوقت -حسب عبارة المؤلف- مشتغلا إلا بسياسة مملكته، لا يتحدث عن محاربة أحد ما عدا حاكم الجديدة البرتغالي الذي كان يتحرش بسكان المناطق المجاورة ويغير على مسارحهم وحقولهم .

وأول واقعة حربية سمع بها المؤلف وهو بمراكش وسجل بعض أحداثها عن مشاهدة هي المعركة الكبرى الذي جرت حول أزمور بعد إغارة البرتغاليين على هذه المدينة وأسرهم فيها الشيخين عبد الله بن ساسي ومحمد الكوش (زاد المؤلف وسيدي كانون) والكرة العنيفة التي قام بها فريق من جيش محمد المهدي الشيخ، فقضوا على معظم الحامية البرتغالية بالجديدة بعد أن أثخنوا حاكمها جراحا وقتلوا ابنه وكبار ضباطه، وأسروا بعضهم . وهنا أخذ گوميز، بطلب من حاكم الجديدة، يفاوض الشريف في افتكاك الأسرى، فتطلب

ذلك أموالا باهظة، اضطر معها كوميز الى الذهاب الى لشبونة لإحضار المال اللازم وإطلاق سراح المغاربة الذين أسرو في أزمور . لم يتمكن گوميز من إنجاز ما تعهد به في الأجل المحدد في ستة أشهر، الأمر الذي تسبب في مضايقات للمسيحيين المقيمين بمراكش، وبذلك لم يعد الى المغرب على ما يبدو، فخلفه منذ ذلك الحين دييگو دي طريس وأصبح مكلفا بقضية فداء الأسرى المسيحيين .

مَكث دييگو في المغرب مدة لا نعرف مداها بالتحديد، ولكنها قد تناهز ثلاثين سنة، إذ نجده يواصل أحاديثة المتسلسلة عن تحركات الشرفاء السعديين ونشاطهم السياسي والعسكري والاجتماعي والعمراني الى ما بعد وفاة عبد الله الغالب (1574/981) إلاّ أنه لم يشر إلى عبور المتوكل الى البرتغال وتطارحه على ملكها سبستيان، وبالتالي لم يتحدث عن معركة وادي المخازن، إلا اشارة عابرة وردت في ختام الكتاب وهو يخاطب ملك اسبانيا والبرتغال (فيليب الثاني) مقدما له كتابه هذا محرضا إياه على اكتساح المغرب مهوّنا أمره عليه، ومؤكدا عليه في نفس الوقت أن يعد للحملة عدتها مادام ملوك المغرب قد طورا جيشهم وأسلحتهم وأخذوا يقاتلون أحسن "منذ مدة من الزمن" . وعلق في الهامش على هذه المدة بأنها سنة 1578، أي سنة معركة وادي المخازن .

نستنتج من كل ماسبق أن دييگو دي طريس غادر المغرب قبل سنة 1577 التي أبحر فيها المتوكل الى البرتغال، وانه ألف هذا الكتاب أو أتمه بعد مدة من معركة القصر الكبير، وربما كان في نهاية العقد الأخير من القرن السادس عشر .

ونشير الى أن المؤلف لم يبق في مراكش طوال مدة إقامته بالمغرب بل صحب الشريف في حركات عديدة مكنته من زيارة مدن وجبال وأقاليم مختلفة، مثل تارودانت والأطلس الكبير وفاس . وبقي في المدينة الأخيرة عندما انهزم عنها محمد المهدي الشيخ أمام أبي حسون الوطاسي والأتراك . فأخذ حينئذ يفاوض صالح رايس قائد الحملة التركية وحاكم الجزائر لفداء الأسرى المسيحيين السبعمائة الذين تركهم الشريف - في جملة ما ترك - بفاس .

توجه دييگو دي طريس - بإذن من القائد التركي - الى مدينة الوليد بإسبانيا حيث لقي الملك فيليب II وأطلعه على ما فعل بالنسبة للأسرى فأعطاه أربعة آلاف ريال، في حين كان عليه أن يؤدي أربعين ألف ريال. لذلك طلب من الملك أن يبعث بالمال الى صالح رايس مع راهب كان سيذهب الى الجزائر . ثم لا يذكر المؤلف شيئا عن عودته الى المغرب، ولعله إن رجع فعلا، عاد في غمرة الاضطرابات التي أسفرت عن مقتل أبي حسون وأنصاره، واستلام الشريف زمام أمور الشمال بصفة نهائية . ومهما يكن فإن المؤلف استمر في تدوين أخبار محمد المهدي الشيخ الى مقتله غدرا في اكلاكل عند قدم الأطلس الكبير (1557/964) وخصص الفصول الستة الأخيرة من الكتاب لدولة عبد الله الغالب من مبايعته الى وفاته .

وإذا نظرنا الى طريقة المؤلف واهتمامه وموضوعيته فإننا نجده يتبع طريقة كرونولوجية لا يكاد يعتريها تقديم أو تأخير، إلا ماكان من استطرادات لا تطول إلا صفحة أو صفحتين يعود بعدها الى الموضوع . ويتركز اهتمامه في الكتاب كله على جانب الصراع الاسلامي - المسيحي من خلال الغارات التي شنها البرتغاليون على المغاربة وقيام هؤلاء برد الغارات عن بلادهم، بدءا من حملات الملك مانويل التي انتهت باحتلال عدد من الثغور . وهو يرى في هذه الغارات حربا صليبية "مشروعة" ضد "أعداء دينه" المسلمين الذين يعبر عنهم بالكفار والمتوحشين، وعن ملوكهم بالطغاة والماكرين ! وقد بلغ المؤلف درك التعصب في الفصل 74 الذي خصصه لسيرة النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - وأتى فيه بما يخالف ما أجمعت عليه كتب السير وبلغ حد التواتر ولذلك أهملناه .

ومع ذلك تطفو في الكتاب حقائق وأحداث تكشف عن جوانب من تاريخ بلادنا حكاها المؤلف كما شاهدها فلم يجد بدا من الاعتراف بسموها وعظمتها، بل ودعوة المسيحيين الى الاقتداء بها، كاستقامة الأحكام، وإنصاف العامة من الحكام، وعدالة الشهود بحيث لم يسمع قط طوال مدة إقامته بمراكش عن قضية زور .

كما سجل من مواقف محمد الشيخ وابنه عبد الله الغالب وأعمالهما ما يدل على صلابتهما في الحق - كملكين مسلمين - وعملهما الدائب في

التعمير والتشييد وإغناء بيت المال، ولو أنه أول ذلك أحيانا تأويلا فاسدا وأتى بإضافات مفيدة في وصف مراكش وتارودانت وفاس في النصف الثاني من القرن العاشر 16 م، مكملا الصور التي رسمها لها قبله كل من الحسن الوزان ومارمول . ودوّن مشاهد طريفة من حياة الأمراء والأميرات في القصور وطريقة عيشهم ولباسهم وحديثهم، وعيشة عامة الناس وخاصتهم وتفننهم في اللباس وإقبالهم على الصيد وتربية عتاق الخيل، وحياة اليهود المهاجرين من الأندلس الى مراكش في الملاح، واختلاطهم بالمسلمين في الأسواق، واتجارهم في دروب المسلمين وتعاملهم مع النساء .

وبالجملة فإن **تاريخ الشرفاء** من المراجع التي لا غنى عنها لمن يدرس تاريخ المغرب في عهد السعديين، إلا انه يجب قراءته بحذر للتمييز بين ما فيه من أحداث تاريخية وتأويلات المؤلف المغرضة التي نبهنا الى كثير منها في الهوامش .

نقلنا هذا الكتاب الى اللغة العربية اعتمادا على الترجمة الفرنسية لدوق أنكوليم الأب المنشورة في باريس سنة 1667، وحافظنا على عبارات النص كما جاءت في الأصل المنقول عنه إلا أسماء أشخاص أو أماكن حرفت فصححناها ونبهنا في الهامش على الخطأ ومصدر التصويب في الغالب، وعبارات الكفار والطغاة التي استبدلنا بها ما يقصد من المسلمين والشرفاء، وأثبتنا هوامش الأصل متبوعة بكلمة (هامش) ووضعنا فهرسا عاما لأعلام الأشخاص والأماكن .

الرباط في 21 صفر 3/1409 أكتوبر 1988

محمد حجي



تاريخ الشرفاء

الفصل 1
وصف أفريقيا، وذكر بعض الملوك الذين حكموها

أفريقيا أحد أقسام العالم التي لا يعرف عنها الا القليل . وهي مقسمة الى خمس مناطق في غاية الكبر والعمران، تضم كل واحدة منها ممالك وأقاليم عديدة متباينة العوائد . ويقسمها النيل الذي يسير من الجنوب الى الشمال الى شطرين يكونان مصر وإثيوبيا . أصغر الشطرين القسم الذي يكتنفه النيل من جهة الشرق، والبحر الاحمر والمحيط . وتشمل مصر جانبي النيل كليهما حتى البحر الاحمر والبحر المتوسط . أما إثيوبيا، وهي أكبر بكثير، فتمتد من النيل الى البحر الأحمر والمحيط الشرقي، وتنتهي في النيل نحو رأس الرجاء الصالح (1) .

وينقسم الشطر الآخر لافريقيا الى أربع مناطق، من الشرق الى الغرب، تبتدئ من تخوم مصر واثيوبيا، حتى البحر الغربي .

أول اقليم هو بلاد البربر، التي تشمل سواحل البحر المتوسط، من مصر الى مضيق جبل طارق، وجميع ما يكتنفه المحيط حتى رأس اكير، المواجه للجزر الخالدات (كناري) .

---

(1) رأس الرجاء الصالح بعيد جدا عن اثيوبيا كما هو معلوم. ويخلط القدماء بين النيل والنيجر وربما اعتبروا النيجر فرعا من النيل ، ويجهلون أنهار جنوب افريقيا ، انظر الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، 1 : 30 (الطبعة الثانية من الترجمة العربية)

والثاني نوميديا، التي تضم كل ما هو واقع جنوب بلاد البربر الى بلاد الجريد،

والثالث مفازات سارّ (2).

والرابع بلاد الزنوج، التي تحدها المفاوزات شمالا، والمحيط جنوبا. وأحسن جميع هذه المناطق وأكثرها صلاحية للعيش،هي بلاد البربر (ولو أن مصر وإثيوبيا أكثر شهرة).

تضم بلاد البربر خاصة أفريقية القديمة والصغيرة، وتتصل بمصر وبالموريطانيتين، بحيث إن ما كان في القديم مجزءا الى ثلاثة أقاليم، لم يعد الآن سوى إقليم واحد يضم خمس ممالك : مملكة تونس، حيث كانت قرطاجة القديمة، ومملكة تلمسان، حيث توجد مدينة الجزائر، ومملكة فاس، ومملكة مراكش، ومملكة ترودانت. لكنه حدثت في هذه الإمارات عدة تغيرات هامة، كانت خلال تسعمائة سنة منذ أن فقد الامبراطور إيراكيلوس هذا الاقليم للمرة الثانية، سبب احتلال هذه البلاد من طرف عدد لا يحصى من أقوام لا حضارة لهم ولا نظام (3)، حتى إنه يمكن القول بأن هذه البلاد عاشت في عبودية وتعاسة. سادها العرب في أول الأمر، وحكموها، مثل إسبانيا، تحت سلطة أمراء المؤمنين، كما حكمها أيضا خلفاء، أو أمراء من الجزيرة العربية، وبعد ذلك، أخذ بعض المتمردين يثيرونها، وأخضعوها سنوات الى سلطتهم، الى أن انتزعها المرابطون من أيديهم، وكانوا أيضا متمردين فظهروا عليهم، ثم خلفهم الموحدون وجاء بعدهم المرينيون، كما سنرى ذلك فيما بعد. وكانت أهم جميع هذه الممالك المتعرضة للتغيرات الشديدة، هي مملكة مراكش، سواء من حيث عظمة المدينة،أو من حيث كونها المكان الذي هيئت فيه العملية الحربية ضد إسبانيا، حيث يقيم الولاة الذين كان ملوك الجزيرة العربية يرسلونهم إليها (4). لكن جميع الانقلابات الكثيرة التي حدثت

---

2) يدعوها الحسن الوزان "نوميديا" تبعا للجغرافيين القدامى.

3) هكذا تقلب الحقائق، ويمجد أباطرة الرومان الذين أذاقوا أهالي المغرب كل أصناف الاستعباد والاستغلال، وينبز العرب الذين حملوا الى هذه البلاد الدين والعلم والحضارة والمساواة وينعتون بكل نقيضه.

4)الخلط وقلب الحقائق باديان عند المؤلف هنا، إذ لم يكن ولاة الخلفاء بالمغرب خلال القرنين الأولين للهجرة يقيمون في مراكش التي لم تؤسس إلا أواسط القرن الخامس على يد المرابطين. وكذلك حملة فتح اسبانيا آخر القرن الأول للهجرة انطلقت من سبتة

فيها لم تفقدها أكبر وأجود جزء من سلطتها القضائية وتحد من امتدادها فحسب، ولكن حرمتها أيضا من كل نفوذ لها على جيرانها .

وهكذا فإن كان لهذه الدولة ملك حتى مولاي الناصر بوشنتوف الهنتاتي الذي هو آخر من ملك قبل الشريف الذي نحن بصدد تدوين تاريخه، فان ضعف تأثيرها مع ذلك جعل حكمها لا يمتد خارج أسوار مراكش، لأن جميع ضراحي هذه المدينة كانت محتلة من طرف الأعراب الذي يتحاربون دائما فيما بينهم، بحيث إن مملكة مراكش هذه لم تعد آنذاك سوى مثل مملكة بادس، وكلتاهماشبه ملحقتين بمملكة فاس، يملكهما أشخاص تابعون لبلاط فاس وموالون له . ونفس الشيء بالنسبة للمرينيين، ملوك فاس، الذين كانوا حاكمين آمنين في أجود بلاد البربر، بقدر ما كانوا يخضعون اليهم ملكي مركش وبادس، إضافة الى أمراء درعة، وتفيلالت وتيكورارين (5) إذ أنهم كانوا في القديم أقوى ملوك بلاد البربر، وإن لم يكونوا مشهورين بقدمهم مثل ملوك تونس . (6)

وقد استولى المرينيون بالمكر على هذه المملكة، لأن المريني الذي ينتسبون اليه، والذي كان من أكبر المقربين الى ملك فاس، اكتسب عنده حظوة كبيرة الى درجة أن الملك عندما أدركته الوفاة وهو مازال شابا، تاركا ابنا صغيرا، جعل المريني وصيا على ابنه وسلمه حكم المملكة . لكن الطمع أنساه واجبه، بحيث إنه اغتنم الفرصة واغتصب جميع وظائف الدولة من يد مساعدي الملك الأقربين، وسلمها الى أهل ثقته، ثم أعلن أن الأمير مريض، ولما أدرك أن بعضهم يريدون أن يحل محله في الحكم أمر بقتله بعد ثلاثة أيام، وتظاهر عند موته بأسف شديد، ولما كانت المسألة لا علاج لها، فإنه أمر ألا يحدث أي اضطراب لدى تبوئه العرش، غير أن هذا الخائن وأعقابه

---

5) صحفت في النص الفرنسي فكتبت : «تيكوريدي» وسيتكرر هذا التصحيف فنصححه دون التنبيه عليه مرة أخرى .

6) من المعلوم أن ملوك تونس الحفصيين المعاصرين للمؤلف هم هنتاتيون صنهاجيون .

حكموا فاس قرابة ثلاثمائة سنة، حتى جاء محتالان آخران، وهما الشريفان، فغصباهم الملك وقتلاهم (7)، كما سأشرح ذلك بعد قليل .

الفصل 2

ذكر الحروب الأهلية التي حدثت بموريطانيا بين الأهالي والمسيحيين الذين يحتلون الثغور الساحلية .

في سنة اثنتين وخمسمائة وألف لميلاد المسيح (عليه السلام) أيام كان مولاي الوطاسي المريني يحكم بفاس، ومولاي بوشنتوف الهنتاتي بمراكش، كانت الحرب مستعرة في موريطانيا وموريطانيا الطنجية، وكان جميع سكان هذه الممالك تقريبا يعيشون أحرارا رافضين أن يكون بعضهم تابعا لبعض، فانحطت قوة بني مرين الحاكمين بفاس انحطاطا كبيرا، كما كان ملك مراكش يحكم المدينة فقط . وأخذ الأعراب يتصرفون في البادية كيفما شاؤوا، يتقاتلون وينهب بعضهم بعضا . وكان برابرة جبل الأطلس، الذي يدعى كليرمونت (الجبل المضيء)، يحذون حذو هؤلاء . وقرر الملك دم مانويل، الذي كان يحكم البرتغال آنذاك، مدفوعا بحمية صليبية، أن يشن الغارة على هؤلاء المغاربة أعداء ديننا، ويوسع إماراته، لذلك تابع الغزو الذي كان سلفه دم يوحنا قد بدأه في افريقيا، ولم يستكمل احتلال المدن الشاطئية فحسب،

---

7) مسألة الوصاية والخيانة مجرد خرافة لا صلة لها بالواقع . وإنما هو جهل المؤلف وتعصبه . بل مازعمه من صلة المرينيين بالبلاط الموحدي لا أساس له من الصحة اطلاقا كما هو معروف في كتب التاريخ "إذ كان بنو مرين الزناتيون قبل اسيلائهم على المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فجيج الى سجلماسة الى ملوية ... لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون اليها ضريبة ... إنما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد ... الى أن استولوا على المغرب بعد ضعف الموحدين برآسة عبد الحق بن محيو" كما أورده ابنه خلدون في العبر، ونقله الناصري في الاستقصا، 3 : 3-6

ولكنه شيد فيها عدة حصون، واستولى في الشاطئ على مدن سبتة، والقصر الصغير، وطنجة، وأصيلا، وأزمور، ومازيغن وأسفي ورأس اگير (8) . وفضلا عن ذلك جهز هذه الحدود بفرق قوية من الجند والفرسان والمشاة، جعلوا هذه الأقاليم خاضعة (للملك البرتغال) لدرجة أن أي ملك أفريقي لم يستطع مقاومته، بالاضافة الى أنه، علاوة على رعاياه الطبيعيين، أصبح في خدمته أيضا عدد كثير من المغاربة المشاة والفرسان، يستعملهم في شن حرب طاحنة ضد أعدائه المغاربة الذي تقاتل معهم عدة مرات، كما سنرى ذلك فيما بعد .

الفصل 3

أصل الشرفاء، والوسائل التي استعملها أبوهم للاعتراف بهم كأمراء

في العهد الذي كانت فيه أمور المسيحيين تسير على أحسن حال بأفريقيا، كان بنوميديا فقيه عادي يعيش في تگمادارت، وهي إحدى قرى إقليم درعة . هذا الرجل، الذي كان يقول عن نفسه بأنه من سلالة محمد (عليه السلام) ويسمى محمد بن أحمد، أو الشريف (9)، اكتسب شهرة كبيرة، وكان متضلعا في السحر والعلوم الطبيعية . فاقتدى بالملوك الآخرين (10)

---

8) هكذا يكتبه المؤلف -تبعا لمارمول- وقد تركناه على حاله . ولا شك أنه تصحيف لكلمة إغير - بالشلحية - التي تعني المنكب . ومن ثم سميت مدينة أكدير في موقع هذا الرأس "أكادير إغير" أي حصن المنكب، انظر افريقيا لمارمول، 19:1 الهامش 7 من ترجمتنا العربية.

9) بل اسمه محمد بن عبد الرحمن الزيداني، الشريف الحسني . وكان مقرئا فقيها لا منجما ساحرا كما يزعم المؤلف . انظر م.الافراني، ص 6 وما بعدها .

10) وصفهم المؤلف - تعصبا - بالطغاة .

الذين استولوا على عدة ممالك في مختلف الأزمنة والأمكنة تحت ستار القداسة، وكونهم خلفاء محمد (عليه السلام) . ومن أجل هذا عندما رأى أن القدر يتيح له فرصة لاكتساب العظمة، بسبب الحروب التي يشنها المسيحيون في هذه المناطق، وضعف الأمراء الحاكمين في البلاد وجبنهم، فكر في وسائل الاستيلاء على السلطة المطلقة . وفعلا، عمل لذلك الغرض بحذر بالغ، واستكمل أبناؤه ما بدأه .

كان لهذا الفقيه ثلاثة أولاد : عبد الكبير، وأحمد (11) ومحمد . ويذكر المغاربة المسنون أن الأب أدرك من سر علم الحدثان الذي كان يعرفه أن ابنيه الأصغرين سيكونان أميرين عظيمين (12) . وانطلاقا من هذه الفكرة، قرر سنة اثنتين وخمسمائة وألف (12 م) أن يرسلهما الى حج مكة وزيارة قبر محمد (عليه السلام)، لأن المغاربة الذين يذهبون الى الحج ويعودون منه يعتبرون صلحاء . ولما رجعا وهما وليان صالحان، أكرمهما البربر وعظموهما، وحيثما حلا كان الرجال والنساء يهرولون اليهما للثم أطراف ثيابهما، لكنهما كانا يتظاهران بأنهما يوحى إليهما من السماء : ويسيران عبر الشارع، صائحين "الله، الله" ولا يقبلان أن يأكلا إلا مما يتصدق به عليهما لوجه الله، وبفضل هذا النفاق أخذا يكتسبان شهرة عظيمة، واستطاعا أن يتأيدا في ذلك بسهولة لا سيما أنهما كانا يقولان إنهما من ذرية محمد (عليه السلام) . ولما عادا الى تكمادارت ابتهج أبوهما محمد بهما لما رأى من أن مشروعه آخذ طريق النجاح، فمكثا في منزله بضعة أيام وزارهما عنده بربر تلك الجبال (13) .

---

11) سماه المؤلف - خطأ - محمدا كأخيه .

12) بل أخبره بذلك رجل صالح لقيه بالمدينة المنورة، وهناك أيضا رؤيا رآها . انظر م الافراني، نزهة، ص . 11 . (الطبعة الفاسية)

12 م) توافق هذه السنة عامي 907-908 للهجرة .

13) لاحاجة الى التنبيه على بطلان مزاعم المؤلف . فالوالد هو الذي حج لا ابناه . وقصة مجيئهم من درعة الى سوس مفصلة في كتب التاريخ بكيفية تكاد تكون متواترة . انظر م.الأفراني، نزهة، ص 17

الفصل 4

إرسال الشريف سنة ثمان وخمسمائة وألف ابنيه أحمد ومحمد الى فاس ليقدما خدماتهما للملك، وما جرى في ذلك

يقول المغاربة إن الشريف لما رأى أن أبناءه عادوا من الحج وقد اكتسبوا من الشهرة أكثر مما كانوا عليه من قبل، قرر أن يرسل الصغيرين منهم، وكانا متضلعين في علوم الدين، الى مدينة فاس ليقدما خدماتهما لمولاي أحمد الوطاسي المريني، الذي كان قد اتخذ من فاس عاصمة لملكه، فاستُقبلا استقبالا حسنا من طرف هذا الأمير، وبعد أن أقاما هناك مدة من الزمن، تنافسا في الحصول على كرسي المدرسة . فناله الأكبر، وعين الثاني مربيا لأولاد الملك . وهكذا اكتسبا، وهما يزاولان مهامهما بكامل عناية وفي ظرف سنوات معدودات، شهرة كبيرة الى درجة أنهما كانا يشبهان بمحمد (عليه السلام) ففكر أبوهما، وقد أدى به طموحه الى أعظم الأشياء حين علم بما كان عليه ابناه من التقدير والثقة ، في الوسائل الكفيلة بإنجاح مشاريعه. ومن أجل هذا أوصاهما بأن يبينا للملك الأضرار التي يلحقها الأعراب والبربر المسلمون بإخوانهم في الدين . وأنهم يساعدون المسيحيين ليصبحوا حكام بلاد البربر، وبأن يتوسلا الى العاهل ليسمح لهما باتخاذ طبل وراية، واستصحاب بعض الفرسان للتصدي للمسيحيين، بصفتهما شريفين، عليهما أن يدافعا عن الدين المحمدي . وأضاف أنه سيسهل عليهما جدا أن يقنعا الملك بذلك إذا أظهرا له أن هذه العملية راجعة الى سلطته، وأنهما بعيدان كل البعد عن أن يتزعما قيادتها . وعندما كان الشريفان يطلبان هذه المسألة بإلحاح من الملك، كان أخوه مولاي الناصر، وهو أمير ذكي، يوصيه بألا يصدق قطعا ما يقوله هذان الفقيهان، ولا يسمح لهما باستنفار الجنود، وألا يثق بهما ولا بمظهرهما النسكي، فيضع السلطة الدينية والدنيوية بين أيديهما. وكان الناصر يؤيد مقاله بأمثلة ويقص عليه ما سبق أن قام به

فقهاء آخرون أصبحوا مستبدين، وأن عليه أن يتدبر جيدا فيما يضع : إذا اتخذا لقب حامي الأمة المحمدية، علاوة على كونهما شريفين وصالحين، فسيكون في استطاعتهما أن يفعلا ما يشاءان في أفريقيا . غير أن الملك أعطاهما طبلا وراية، وعشرين فارسا لملازمتهما، ومنحهما لقب قائدين مع رسائل توصية لأصدقائه، إذ كان يُكِنُّ لهما نوعا من الاجلال، معتقدا أن الشعب سيبغضه إن لم يساعدهما في عملهما ضد المسيحيين . فلم يلبث الشريفان أن ودعا الأمير وأبناءه وإخوته، متظاهرين بأنهما ذاهبان لاجتياح تخوم طنجة وأصيلا اللتين كانتا بأيدي المسيحيين .

الفصل 5

كيفية استيلاء المسيحيين على أسفي، والغارة التي شنوها على بلاد المغاربة

في عام ثمانية وخمسمائة وألف حدثت خلافات كبيرة بين بعض المغاربة المجاورين لأسفي بشأن الحكم . وكان رئيسا هذه الطوائف هما يحيى بن تعفوفت وعلي . وقد استطاع ابن تعفوفت أن يذهب الى البرتغال ويعرض تبعيته للملك دم مانويل في مقابل مساعدته، ففعل الملك وأمر دييگو دازامبوكس، وگنزالي ميينديز ساكوطي أن يسيرا بأسطول من أربع سفن كراڤيل مع ابن تعفوفت . وبمجرد ما وصلا الى أسفي عملا بكياسة كبيرة حتى احتلاَّ المدينة، وخضع المغاربة للملك، وان كان العديد منهم قد غادر المدينة . ولما أخبر دم مانويل بأن رجاله يوجدون بأسفي، أوفد إليها نونيو فيرناند دي أطايدي كحاكم وقائد عام، مع (مايلزم من) المشاة، والسلاح، والمدفعية، والعدد . وما كاد هذا الحاكم يصل الى أسفي حتى أخذ يشن غارات على البلاد التي اقتحمها، وأسر عددا من المغاربة، ونهب كمية كبيرة من الماشية . وأصبح بعد ذلك يثير الرعب، الى درجة أن البربر المقيمين على بعد ستة فراسخ وأزيد من أسفي، اضطروا الى أن يؤدوا الخراج للملك

ويبقوا خاضعين له .

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة وألف عندما أخبر فيرناند من لدن جواسيسه بوجود خمسة وعشرين دوارا على بعد فرسخين من مدينة دكالة، أرسل أربعة فرسان مسيحيين لاستطلاعها . فوصلوا الى ربوة استطاعوا بسهولة أن يشاهدوا البلاد الواقعة فيها هذه الدواوير حتى لا يفطن بهم المغاربة إذا هم ذهبوا الى أبعد من ذلك، من أثر الخيل، الشيء المعروف جدا بافريقيا، لأن المسيحيين يجعلون ثمانية مسامير في حدوات افراسهم، بينما لا يجعل المغاربة فيها سوى ستة . ثم عادوا توا الى أسفي، ووصلوا اليها في نفس الليلة، فأطلعوا القائد على مكان الدواوير، والطريق الذي ينبغي سلوكه ليسيروا في أمان . وفي صباح الغد، أمر نونيو ألاّ يسمح بالخروج من المدينة لأي مسلم ولا يهودي ممن كانوا قد جاؤوا برخصة مرور حاملين بضائعهم، فخرج من المدينة في أربعمائة وخمسين فارسا وخمسمائة من الراجلين رماة البنادق بعد أن أمر بالنفخ في الأبواق، تاركا حراستها الى نونيو كاطو، والمراكز مجهزة جدا، حيث كان فيها إذ ذاك سبعمائة فارس، وألف جندي بأسفي .

كانت الدواوير في سهل قريب من البحر منتشرة على مسافة تزيد عن نصف فرسخ طولا في شعب صغير، فقصدها نونيو فيرناند عند بزوغ الشمس، ولما أشرف عليها أمر ألفاري داطايدي ودليله لوبي باريكا، أن يتقدما أكثر الى الأمام بمائتي فارس، وأن يهاجما الدواوير من أحد جوانب الشِّعْب الصغير ، بينما توقف هو مع باقي الجند، لينقض على المكان الذي يرى من الضروري مهاجمته. أصاب الرعب المغاربة بسرعة فهزموا في الحين، وقد رأوا أنفسهم محاصرين من جميع الجهات، فلم يقاوموا كثيرا، وغُلبوا كلهم، وقتل منهم ثلاثمائة وأسر خمسمائة وسبعة وستون شخصا، كبارا وصغارا، وأخذت خمسة آلاف رأس من الماشية الصغيرة، وألف من الثيران والبقر، وثلاثمائة بعير، وعدد من الخيول ودواب الحمل، ورجع النصارى بذلك كله الى أسفي . كانت الغنيمة كبيرة لدرجة أنها غطت أزيد من نصف فرسخ من الأرض . فأمر نونيو فيرناند بالتخلي عن الماشية الصغيرة كلها والإبل، خوفا من أن يكر عليه الأعداء فيفتكوا بالمسيحيين الذين يكونون مضطرين

الى الذهاب هنا وهناك لجمع القطعان، سواء من أجل هذا أو من أجل المسير بأقل عائق، لأن فراسخ من الطريق الصعب كانت تمتد من هناك الى المدينة . فسار بكل ما بقي من الغنيمة في نظام حسن، الى أن وصل الى أسفي ليلا، دون أن يجرؤ على مهاجمته ثلاثمائة من الفرسان المغاربة كانوا قد تبعوه طوال ذلك النهار بعد أن خرجوا من المدينة . ولم يهلك في هذا اللقاء سوى أحد أبناء أخي نونيو كاطو، الذي أوغل في اشتباكه مع المغاربة حتى لم يعد ممكنا تخليصه .

الفصل 6

الحديث عن بعض شيوخ الأعراب الذين يعرضون خدماتهم على الملك دم مانويل، والإتاوات التي كانوا يؤدونها

بعد أن رجع نونيو فيرناند الى أسفي بالغنيمة التي حصل عليها، جاءه في صباح الغد عيسى بوبكر، شيخ أعراب الغربية وغيره من القادة المغاربة الذين كانوا ينتظرونه في المدينة، ليسلموا عليه ويعرضوا أنفسهم كرعايا للملك باسم قراهم، وأدوا له الخراج منذ ذلك العهد، واقتدى بهم العديد من المغاربة الآخرين الذين وفدوا من كل دواوير الإقليم . وهكذا فإن غزوات المسيحيين في هذه البلاد بدأت تكتسي عظمة أكثر (!)

إن الفائدة التي كان دم مانويل، جد جلالتكم يستخرجها من الإتاوات والضرائب المفروضة على السلع التي كان المسيحيون والمسلمون واليهود يحملونها الى هذه الديار، كبيرة جدا . وكانت الإتاوات التي يؤديها آنذاك الغاربة الحلفاء، أو المتعاونون الى القائد العام بأسفي، باسم الملك، هي كما يلي :

كان أهل عبدة، وهم من أكابر دكالة، يدفعون ألف حِمْل بعير كل سنة، نصفها قمح ونصفها شعير، ويشكل حمل بعير اثني عشر كيل (حنقة)

من القمح وعشرين من الشعير، وتساوي (الحنقة) صاعين في فرنسا .

وكان أهل الغربية وأثبج، وهم أيضا من أكابر الأقليم، يدفعون مثل ذلك، وكذلك أولاد عمران، وهم أعراب آخرون أقوياء، وأولاد براند فان (كذا) وأولاد كسيمة . وكان أولاد مطاع وهم أغنياء يدفعون مثل الآخرين . (14) ولم تكن مغارم السكان المجاورين لمدينة دكالة بأقل قيمة من ذلك .

أضف الى هذا أن إيراد الحبوب الذي كان الأعراب الآخرون يحملونه الى المدينة يساوي أكثر من خمسين ألف كيل (حنقة) قمحا ومائة ألف شعيرا، وكان أهل مداشر أكوز، واكير، ونامير وهم مندرجون مع هؤلاء، يؤدون نصيبهم بالتساوي مع الآخرين .

كان لصاحب السمو الملك دم مانويل آنذاك هذه الايرادات بأسفي، فضلا عن جمرك المدينة، وغيره من الحقوق التي كان يؤديها له التجار الوافدون عليها بسلعهم . وعلاوة على ذلك، كان المسيحيون يتوغلون مرارا داخل البلاد مع المغاربة الأصدقاء، ويجبون خراج الاقاليم المجاورة، والذين يمتنعون من الاداء ينهبون ويساقون أسرى الى المدينة، حدث ذلك مرارا كما سنراه أثناء سرد هذا التاريخ .

14) صحفت أسماء هذه القبائل في النص الفرنسي ، وكتب الأثبج بمايشبه "أشجع"

الفصل 7

مغادرة الدوق دي براكانس لشبونة بأمر من الملك دم مانويل لفتح مدينة أزمور بإفريقيا

في عام ثلاثة عشر وخمسمائة وألف، عندما أخبر دم مانويل بالكيفية التي تمكنه من احتلال أزمور، وبعد أن استشار مجلسه في هذا الصدد، قرر إرسال ابن أخيه دم جيمس دوق دي براكانس للقيام بهذه العملية، في جيش عرمرم حشده في لشبونة . كان الجيش مؤلفا من أربعمائة سفينة شراعية مابين كبيرة وصغيرة، على متنها ثمانية آلاف راجل، وألفان وخمسة من أتباع الدوق، منهم ألفان من المملكة، بالاضافة الى أنه كان من بين هؤلاء الجنود مائتان وخمسون فارسا مجهزون ومسلحون بأجود أسلحة البلاد، وعدد من نبلاء القطر وأمرائه يقودون كمية كبيرة من المدفعية، والعدد، وأجهزة الحرب. انطلق هذا الجيش من نوطردام دي بيلين، ولم يلبث أن برز في مرسى فرعون بمملكة فاس . وهناك انتظر الدوق أن يجتمع جميع أتباعه، وانطلق يوم الاثنين ثالث وعشري غشت فوصل يوم السبت الموالي الى مرسى أزمور، لكنه نظرا لرداءة الطقس التي لم تساعده على النزول، اضطر الى التوجه الى مازيغن (15) ، ونزل الى البر بكامل جيشه دون أن يلقي أية مقاومة . فأقام بها ثلاثة أيام، وهو يعطي الأوامر لإنجاز ماهو ضروري لمحاصرة المدينة وقصفها من البر . إذ ذاك أقبل عدة مغاربة من أزمور وأماكن اخرى لقتال المسيحيين، فخرجوا وقتلوا بعضا منهم كانوا قد ابتعدوا ،

---

15) مازيغن أو مازغان = مدينة "الجديدة" الحالية، التي كان المؤرخون المغاربة يدعونها "البريجة" وقد اخترنا اسم "مازيغن" القريب من الاسم المثبت في النص الاعجمي "Mazagan"

وسلبوهم العديد من الخيل، ذلك لأنهم كانوا يأتون ليلا ويكمنون، ثم يحملون عليهم صباحا من جميع الجهات فيلحقون أضرارا جسيمة بالجنود المتفرقين، وقد أطلع هؤلاء المغاربة فورا سكان المدينة على قوات المسيحيين العظيمة، فبدأ أهل أزمور يخرجون من المدينة الأشخاص الغير النافعين غير تاركين فيها إلا رجال الخدمة . وقد تحصنوا وتجهزوا بجميع الأشياء اللازمة لحمايتهم، بمجرد ماعلموا باستنفار الجنود في البرتغال . لذلك كان بالمدينة عدد كثير من المحاربين الوافدين من الضواحي عندما وصل إليها الدوق، وعدد من أعراب البادية مع مولاي زيدان . كان هذا المغربي ابن عم شقيق لملك فاس الملقب بالبرتغالي، لأنه نشأ في البرتغال، وكان إذ ذاك أهم شخص بأزمور . وبما أنه لم يرد أن يحاصر في المدينة، ترك بها كعامل مغربيا شجاعا، كما كان فيها عدد من الاعيان والفرسان الذين أسرعوا لنجدتها، من بينهم على بن سمين (؟) وهو محنك في الحرب . وسرعان ما وضعوا الجنود في مراكز المدينة، منجزين بحماس وعناية كبيرين ما هو ضروري لحماية المدينة .

الفصل 8

انطلاق الدوق من مازيغن، واحتلاله مدينة أزمور، وإنجازه أعمالا أخرى خدمة لملكه، ثم عودته الى البرتغال حيث خصص له استقبال رائع

بعد أن أعطى الدوق أوامره لتهييء كل مايلزم لحصار أزمور، انطلق من مازيغن وهو يقود برا في نظام حسن مشاته تأهبا للقتال، وأرسل سائر الجيش في البحر، مع بعض السفن الصغيرة الحاملة للمدفعية لتدخل الى النهر وتحرق بعض حزم القصب التي كان الأعداء قد طلوها بالقطران ليلقوا بها في الماء عندما يدخل فيه الجنود . وقد نُفذت أوامر الدوق رغما عن طلقات المدافع الموجهة الى السفن لدى مرورها قرب المدينة، ووضعت، وفق أوامره،

القطع الكبيرة للمدفعية في سفن الكرافيل مع العُدد الضرورية لها وللمحاربين الذين دخلوا في النهر وتمركزوا أمام المدينة . كان يسير في مقدمة جيش الدوق بعض الفرسان بقيادة پيدروسة، لكنهم تعرضوا لهجوم شديد من طرف المغاربة،الى درجة أن دم يوحنا دي مينيسيس اضطر الى الاسراع إليهم مع جند الطليعة، غير أن الأعداء أقبلوا بكثرة حتى إن الدوق أرسل الكنت دي بوربا لنجدتهم بالفرسان، ثم اضطر الى أن يتوجه إليهم بنفسه في كتيبة من المشاة معززا ببعض الفرسان . وبالرغم من أن المغاربة كانوا يهاجمون الكتيبة بعنف ومن عدة جهات، فإن المشاة ثبتوا مع ذلك، وقاوموا الأعداء، الى أن حال بينهم الليل، وقد تكبد الطرفان خسائر . ومع أن المغاربة لم يفتئوا يهاجمون الدوق، فإنه سار دائما في نظام حسن، الى أن وصل الى مدينة أزمور . وهناك نصب معسكره على ضفة النهر أمام المكان الذي أرست فيه السفن، وأنزل المدفعية الى الأرض مع الأجهزة والمعدات الحربية، وبدأ في الحين يعطي أوامره للمدفعية . وفي هذه الأثناء، فإن المغاربة الذين كانوا من قبل قد ناوشوا الجيش منذ مازيغن، ذهبوا ليقيموا على بعد طلقة مدفع من معسكر المسيحيين، مكونين ثلاث كتائب، لكن الدوق أمر ألا يخرج أحد من المعسكر قصد القتال، وأطلق عليهم نيران بعض القطع المدفعية، وهو يفكر في وسائل قصف المدينة . وعندما رأى المغاربة أن المسيحيين يتحاشون المواجهة في القتال بينما كانت المدفعية تزعجهم، انسحبوا، وبدأ في الحين قصف المدينة وضرب الأسوار بالوقاءات النقالة . فدافع المغاربة عن أنفسهم بشجاعة، وجرحوا كثيرين بطلقات البندقيات، والقنابل اليدوية، ومشاعل حامية من القطران، وأسهم نارية أخرى كانوا يقذفون بها على ضاربي السور . ودامت المعركة أكثر من أربع ساعات، والمحاصرون يدافعون عن أنفسهم كالأسود، الى أن قتل المسيحيون بطلقة مدفعية العامل سيدي منصور، وهو يشجع الجنود ويسهر على ماهو ضروري لحماية الأسوار . وقد قضى موت هذا القائد على حماس المغاربة، فجعلوا إذ ذاك يغادرون المدينة، ويهربون منها في نفس الليلة، في اضطراب كبير وبسرعة متناهية حتى إنه اختنق في الباب أزيد من ثمانين شخصا . وفي هذه الأثناء، جاء يهودي (15 م)

15م) هو يعقوب أيبو .

من بين الذين طردوا من أزمور مع زوجته وأهله، وأشار من أحد أبراج السور الى الجيش المسيحي أن يؤمنوه للخروج حتى يكلم الدوق، فسمح له بذلك، فجاء مسرعا وجثا بين رجلي القائد طالبا منه أن يؤمنه على حياته وأمواله، ويؤمن كذلك اليهود الآخرين الموجودين في المدينة، جزاء لما يحمله له من أنباء سارة، وأخبره بأن المغاربة قد غادروا المدينة ، عندئذ حمد الدوق الله على انتصار لم تسفك فيه دماء، وأرسل غداة الغد منذ بزوغ النهار بعض السرايا الى المدينة لحماية دور اليهود . وبعد أن ركز رايات الصليب وشعارات الملك على أبراج السور كرمز للانتصار، دخل الى أزمور مع باقي جيشه، وحول الجامع الى كنيسة سماها حماية الروح القدس . ووجد فيها ناقوسان كانا قد بقيا هناك منذ استيلاء القوط عليها، أو لعل بعض مسلمي إسبانيا حملوهما إليها كغنيمة، وهذا هو الأصح حسب معلوماتي . كما عثر فيها على مغانم كثيرة، لأن المغاربة لم يستطيعوا أخذ كل ما كان لهم فيها لكن ما كاد يسري في البلاد خبر احتلال أزمور حتى هرب سكان تيط والمدينة الواقعتين غربي هذا الموقع، وأرسل الدوق من يحتلهما باسم الملك دم مانويل، وأمر نونيو فيرناند دي أطايدي أن يذهب الى المدينة، فوجدها خالية من السكان، وسلم حكمها الى يحيى بن تعففت بعد أن أخذ منه العهد باسم الملك، وأذن لجميع السكان الراغبين في العودة الى ديارهم بالرجوع اليها . وحتى يكون في مأمن أكثر، أمر بإسقاط جانبين من السور، أحدهما في اتجاه أزمور، والآخر في اتجاه أسفي، حتى إذا ثاررا بعد ذلك لم يجدوا وسيلة لتحصينهم . وبهذه الطريقة استرجعت المدينة سكانها، وصارت أحسن من ذي قبل، وخضع أهل تيط والمدن المجاورة للملك، على غرار سكان أزمور. وبعد أن سهر الدوق على الأشياء اللازمة لحماية المدينة، واقتبل الذين جاؤوا لتقديم الطاعة للأمير، ترك حامية قوية بالمدينة مجهزة بكمية من المدفعية وجميع أنواع المؤن، وقفل الى البرتغال، حيث استقبل بابتهاج كبير من طرف الملك وجميع الشخصيات المرموقة من رجال الحاشية .

الفصل 9

بعض العمليات العسكرية الكبرى التي انتصر فيها مسحيو تخوم أزمور على المغاربة

عندما غادر الدوق دي براكانس أزمور، ارتأى قائدا المدينة (16) أن يتوغلا في بلاد المسلمين، ويهاجما مدينتي تفُوت وبني قفيص (17) الواقعتين على ضفة النهر (18) البعيد عن أزمور بخمسة عشر فرسخا . فخرجا من المدينة (19) ذات مساء في ألف ومائتي فارس، وألف من رماة البنادق، وأصبحا غداة الغد على بعد سبعة فراسخ من هاتين المدينتين . فاستراحا هناك الى منتصف النهار، ووصلا عند الغروب الى سييرا - ڤيردي (كذا) فقضيا الليلة هناك الى بزوغ الشمس، وحينئذ هاجما مدينة بني قفيص، وهي واقعة على ربوة محاطة بأسوار عالية قديمة . أخذ المغاربة على الفور في المقاومة، لكن رغما عن كل مجهوداتهم، دخل المسيحيون الى المدينة دون أن يفقدوا رجلا واحدا، وقتلوا العديد من السكان، وأسروا نحو الألف، بينما لاذ الآخرون بالفرار أثناء المعركة، فغرق بعضهم في النهر، ونجا الباقون . وبخصوص المدينة، أضرم الجنود فيها النار، ونهبوها كلها .

إلا أن دم بيرمود مانويل، الذي كان قد انفصل عن الجنود ليستولي على تفّوت في نفس الوقت، حتى لا يبقى لسكان إحدى المدينتين

---

16) هما دم يوحنا مينيسيس، وروي دي بريطي . (هامش)

17) كذا يقرآن في النص الفرنسي، ولم نهتد الى المراد بهما .

18) ملوية (كذا) .

19) سنة 1514 . (هامش)

وسيلة للالتجاء الى الأخرى . لم يصل (20) الى ضواحي هذه المدينة إلا بعد طلوع النهار، لذلك فإن العدو رآه وفر . وفي الحين فرق دم بيرمود جنوده على طول الشاطئ حتى قرب النهر، فوجدوا عددا من المغاربة بنسائهم وأولادهم، وهم يحاولون النجاة سباحة الى الضفة الأخرى للنهر، وهناك قام الأعداء ببعض المقاومة، لكن المسيحيين انقضوا عليهم وهزموهم ثم عادوا الى تفوت حيث أحرقوا وقتلوا كل شيء . وبعد ذلك التحق جميع الجنود ببعضهم، وتوجهوا الى أزمور، سائقين إليها مائتي أسير، وكمية من الماشية الكبيرة والصغيرة .

الفصل 10

إعلان الشرفاء الجهاد ضد المسيحيين

عندما ودع الشريفان ملك فاس (21) أعلَنَا الجهاد ضد مسيحيي طنجة وأصيلا، واعدين بكل أنواع المكافآت الروحية من يحضرون يوما هذه الحرب المقدسة . وبعد أن ملآ أذهان المغاربة بالأمل، حشدا في ظرف وجيز جيشا عرمرمامن الفرسان والمشاة، كان بإمكانهما أن يحققا به أغراضهما . وفعلا، كان ذلك بداية سعادتهما، وتعاسة الملك الذي ساعدهما وسبب إدالة دولته .

عندما أعلن عن هذا الحدث العظيم تسارع العديد من الناس، خاصة الى الأماكن التي كان يمر بها دعاة الجهـاد ، وكان الشيوخ والعجزة يقدمون

---

20) لأن المسالك كانت صعبة . (هامش)

21) انظر الفصل 4 (هامش)

هبات سخية الى الشريفين، حتى إنهما توصلا بأكثر مما يلزم لنفقاتهما، فقررا الاقتراب من طنجة وأصيلا بهؤلاء الجنود، وانقسموا الى فرقتين، توجهت إحداهما الى طنجة، والاخرى الى أصيلا، قصد نصب الكمائن، واجتياح البلاد في آن واحد .

بمجرد ما اقتربا من هاتين المدينتين، قاما بإنجاز ما تقرر، وأرسلا بعض العدائين لاجتياح المنطقة، وبقيا ماكثين مع الجنود في مكمنهما . ولما رأى المسيحيون المغاربة مشتتين عبر المنطقة، خرجوا لينقضوا عليهم، واثقين بالانتصار، لكن الأعداء الذين شنوا هذه الغارة عن قصد، ناوشوهم بعض الوقت، ثم بدؤوا ينسحبون في اتجاه جنودهم، مستدرجين بذلك المسيحيين نحو الكمين الذي لم يستطيعوا التخلص منه إلا بشق الانفس، بعد أن قتل العدو البعض منهم وأسر بعضهم . ولما تأكد الشريفان من بسالة المسيحيين في الميدان، وعلموا أنهم سيكونون أقوى في الحصون، قررا العودة الى فاس بالاسرى والغنيمة، فاستقبلا فيها بابتهاج عظيم من طرف الشعب والملك، اللذين كانا يعزوان هذا الانتصار الى كرامة الشريفين السائرين على نهج محمد (عليه السلام) . وفي خضم هذا الابتهاج العام، وبقدر ما كان الشعب أكثر سررا بالشريفين، كانا أقل سرورا بنفسهما، إذ بعدما ذاقا حلاوة قيادة الجيوش، بدا لهما من غير اللائق بهما أن يعودا لتربية الأطفال .

لذلك قررا مغادرة مملكة فاس، وقد رأيا أن أيّ فرصة تسنح لهما فيها لايمكن أن تكون أطول مدة مما شاهداه، فخرجا للاتصال بأبيهما، ما دام مرافقوهما يقدرونهما أحسن تقدير . وعزما على أن يزورا في طريقهما ملك مراكش، حيث تردد صدى انتصارهما . ومن أجل هذا ذهبا اليه وقالا له إن غيرتهما على الملك، والضرر الذي يلحقه المسيحيون بمملكتي مراكش وتارودانت، لايسمحان لهما بالتمتع بما يقدم إليهما من ضروب النعم، لأنهما مضطران بصفتهما شريفين، ومن أجل القيام بواجبهما نحو الصالح العام أن يتخليا عن مصلحتهما الشخصية . وطلبا منه أن يأذن لهما بالذهاب الى هاتين المملكتين، لإعلان الجهاد فيهما ضد المسيحيين، فاستجاب الملك الى رغبتهما، وزودهما بالمال والسلاح، واقتدى به جميع الأعيان الذين كان الشرفاء يربون أولادهم.

وهكذا فإنهما خرجا من فاس، بعد أن ودّعا الملك وأبناءه في أوائل

سنة أربع عشرة وخمسمائة وألف، وأخذا الطريق نحو مراكش، بطبولهما وراياتهما وبعض من كانوا قد صاحبوهما في العملية الأخيرة، عابرين ربوع مكناس ودكالة، مستقبلين أحسن استقبال من سكانها، الذين كانوا يخرجون لملاقاتهما، ويجلونهما ويساعدونهما بالأموال . وقد أثريا في ظرف وجيز بكل أنواع الهدايا، ووصلا الى مراكش حيث خصص لهما الملك استقبالا رائعا .

الفصل 11

قائدا أسفي وأزمور يشنان غارات على ضواحي مراكش

كان نونيو فيرناند دي أطايدي قائد أسفي، قد عزم مرارا عديدة على أن يجتاح أراضي مملكة مراكش، لكنه بعد أن عدل عن هذا المشروع لعدة موانع طارئة عاد إليه، وأوصى يحيى بن تعفوفت، وميمون الذي كان أيضا في خدمة ملك البرتغال، أن يكونا مستعدين بجنودهما وجنود الأعراب المتحالفين متى ماناداهما، لأنه يفكر في القيام بعملية مشرِّفة، كما أمر دم بِّيدرو دي صوفا، وكان قائد أزمور، أن يحضر في اليوم الذي عينه له في ملاحات إقليم دكالة، للالتحاق به، فامتثلوا عن طيب خاطر . ولما اجتمعوا كشف لهم عما يريد، فسارعوا الى تنفيذ رغبته ببالغ الاغتباط، وانطلق قادة الملاحات بثلاثمائة مسيحي من فرسان أسفي، ومائتين من أزمور، ومائة من رماة القذافات مع ألفين وأربعمائة فارس مغربي . وساروا بهذا الجيش في نفس اليوم ليتناولوا العشاء ببوسدان، البعيد بفرسخين عن الملاحات .

وهناك رتبوا جنودهم قصد المعركة : أصحاب عبدة في الميمنة، وأصحاب الشرقية في الميسرة، والمسيحيون في الوسط . فزحفوا في هذا النظام على طول سهل كبير، الى أن وصلوا الى مكان آخر يدعى مسَّارون، (كذا) حيث تبردوا بماء غدير وجدوه هناك، وتشاوروا حول الباب الذي سيهاجمونه. اختلفت الآراء : فأراد بعضهم أن يكون باب سيدي بلعباس، لأنه يمكن الاقتراب منه بأقل خطر، وقال آخرون إن في هذه الطريق عدة قنوات

وخنادق قد تعرقل المرور، وإن من الأحسن مهاجمة باب فاس لأن الطريق المؤدي اليه أقوم من المكان الذي يوجدون فيه وأسهل . وتقرر في الأخير أن يتقدم جنود الطليعة لاستكشاف البلاد مع بعض المغاربة الحلفاء .

ذهب هؤلاء يوم الغد، وبعد أن عبروا نهر شيشاوة، وكان النهار قد طلع، أبصروا من أعلى ربوة التفافيح الذهبية لجامع (الكتبيين)، فاصطفوا استعدادا للمعركة . اتخذ دم بيدرو دي صوفا مكانه عن يمين فيرناند، ومغاربة عبدة الغربية في المقدمة، ومغاربة الشرقية عن الميمنة، وزحفوا هكذا في سهل طويل بعد أن أرسلوا روادهم الى الأمام للتعرف على البلاد : فساروا حتى وصلوا الى الجامع القديم القريب من أسوار مراكش، وأخبروا فيرناند أن الطريق وعر، لوجود خنادق كثيرة فيه تعرقل المرور . فاضطروا من أجل ذلك الى مهاجمة باب فاس . وبعد الإعلان عن الهجوم بالنفخ في الأبواق، ركض المغاربة مرخين الأعنة لخيولهم في عدة أماكن، ليوهموا سكان المدينة أنهم كثيرو العدد . وأمر نونيو فيرناند العدائين وكتيبة بأن يتقدموا حتى أبواب المدينة ليرى هل سيخرج أحد . وقد تقدم واحد منهم أكثر الى الأمام حتى ضرب الباب برمحه . واقترب دم بيدرو دي صوفا قريبا جدا من باب فاس . ووصل أهل الشرقية الذين كانوا في مسيرة نونيو فيرناند الى باب دكالة، ملحقين الضرر ببعض من خرجوا من المدينة .

كان الأخوان الشريفان آنذاك في مراكش، وكذا أحد قواد ملك فاس مع عدد من المحاربين، فخرجوا من باب فاس وحملوا على العدائين الذين كانوا يسيرون في اضطراب . كان عدد المغاربة الذين تصدوا لهم كثيرا بحيث إن المسيحيين والأعراب عانوا مشقة عظيمة في مقاومتهم . وجرت هناك معركة عنيفة، أصيب فيها ميمون، قائد عبدة، بجراح في إحدى ساقيه، وسقط لوبّي بّاريكا الذي كان سيلحقه ضرر أكثر لو لم ينقذه ابن أخيه . وجرح أو قتل العديد من المغاربة من كلا الطرفين، لأن المعركة دامت أكثر من أربع ساعات . إذ ذاك خرج من أبواب المدينة عدد كثير من الرجال المشاة والراكبين، فقرر القواد الانسحاب الى أحد مجازات نهر تانسيفت، غير أنهم لم يتمكنوا من تحقيق ذلك إلا بعد أن تركوا وراءهم عددا من الجرحى والقتلى . ولما وصلوا الى مجاز النهر، وجدوه ضيقا لا يمكن أن يعبره إلا

ثلاثة أو أربعة فرسان معا، وضيق أهل فاس عليهم الخنادق الى درجة أن نونيو فيرناند اضطر الى الذهاب الى المؤخرة بجنده، ومقاومة الأعداء بعناء كثير الى أن عبر جميع الجنود الآخرين .

وهكذا انسحب في نظام حسن حتى إنه لم يهلك أحد من رجاله . ولما عبروا المجاز تصدوا كلهم للقتال . وعندما رأى قائد ملك فاس والشريفان وسائر الجنود الذين خرجوا من المدينة أن المسيحيين تجرؤوا بمن معهم من المقاتلين على شن الغارة على أبواب مراكش، عبروا المجاز لمقاتلتهم، لكن النجاح لم يحالفهم، لأن المغاربة المتحالفين وبعض المسيحيين تصدوا لهم بشدة قوية حتى أرغموهم على الانسحاب الى النهر، بعد أن قتلوا أو جرحوا العديد منهم وكادوا يأسرون قائد ملك فاس، لو لم ينقذه الشريفان . وبعد ذلك انسحب القواد المسيحيون بعد أن خربوا البلاد كلها، لكن هذا اليوم أكسبهم بإفريقيا صيتا كبيرا، وكسا الشريفين عارا، لأنهما لم ينجزا في بداية عمليتهما أي شيء ثمين بالاستجابة الى ماكان ينتظر منهما .

الفصل 12

توديع الشريفين لملك مراكش وذهابهما عند أبيهما وما جرى إثر ذلك

بعد انسحاب المسيحيين من مراكش، عاد المغاربة الى المدينة وهم مغتاظون جدا لعدم انتقامهم من جرأة المسيحيين، لكن الشريفين كانا أكثر اغتياظا لوجودهما شخصيا في المعركة . وتذمرا أثناء حديثهما مع الملك من الضرر الذي يلحقه بهم المسيحيون، مبرزين الكيفية التي ينبغي أن يحارباهم بها . ثم ودعا الأمير، واضعين نفسهما رهن إشارته ضدهم . لكن لما كانا لا يرغبان إطلاقا في العمل تحت سلطته، فإنهما بعد أن تسلما منه الأسلحة والمال، توجها الى درعة مع أتباعهما، حيث استقبلهما أبوهما استقبالا حسنا، لأن أمورهما كانت تسير وفق مخططه . وأسرع إليهما هنالك الجيران

لزيارتهما. وبعد أن استراحا بضعة أيام، قررا إعلان الجهاد ضد مسيحيّي رأس أكير عبر البلاد كلها . فتبعهما العديد من الأشخاص وخدموهما بحماس، فاجتازا الى تارودانت حيث خصص لهما سكان المنطقة استقبالا حماسيا. ولم يكن إذ ذاك بها ملك، وانما يقطن بها رئيسان هما الشيخ مومن، أمير تاحكوز، وسيدي بوكسيمة قائد الكيل (كذا)، لم يكونا يعترفان في إمارتهما بأي سلطان . فأطلعهما الشريفان على مقصودهما وما وصلا اليه، فرحب بهما الشيخ مومن وجميع السكان كشخصين أرسلا من السماء لإغاثتهم . وربطا أواصر المودة مع أمير تاحكوز الذي كان سببا في العظمة التي هما عليها الآن . أما بوكسيمة، فإنهما لم يتمكنا من كسب صداقته، لأنه كان مواليا للمسيحيين . وقد أطلعهما أمير تاحكوز والآخرون على الأضرار التي كان المسيحيون والمغاربة المتحالفون معهم يلحقونها بهذه النواحي، لاسيما أهل مدينة رأس أكير، وحصن صغير مجاور لنهر أكوز يحتله المسيحيون .

عندما رأى الشريفان أنهما مؤيدان بهذا العدد الكثير من الناس، رأيا أن الوقت قد حان لتلبية رغبات أتباعهم وأمل بلاد البربر كلها . فقررا احتلال الحصن الصغير، واختارا لهذا الغرض أكثر جنودهم حنكة، إذ لم يريدا محاولة اقتحامه عنوة، بل بالحيلة . لذلك نصبا كمينا ذات ليلة، بعد ما استخبرا عن أوقات خروج أصحاب هذا الحصن . فخرج المغاربة الموجودون في داخله في الساعة المعتادة . وهم لا يظنون أن مثل هذا يمكن أن يحدث، ولم يهتم جنود الحراسة بإغلاق الأبواب، فاغتنم أصحاب الكمين هذه الفرصة، وهاجموا الباب فدخلوا منه مختلطين بحراسه، وقتلوا البعض منهم، والتحقوا بالحصن الصغير . بلغ نبأ هذا الاحتلال أهل أكير، فتأثر بذلك المسيحيون الموجودون فيه، تأثرا كبيرا لان المكان كان لحلفائهم المغاربة، وانتشر الخبر عبر بلاد البربر كلها .

تسببت هذه العملية في إعجاب الناس كلهم بالشريفين، اعتقادا منهم أن الله ورسوله يمدانهما بالعون ويوفقانهما في أعمالهما لصالح البلاد . لم يعد الحديث في كل مكان إلا تنويها بهما بحيث ان الناس جميعا مضوا في اتباعهما لينالوا من يمن نقيبتهما . وأما هما، فقد نشرا في كل مكان خبر

انتصارهما، ناسبين ذلك الى الله ومحمد (عليه السلام) معلنين أنهما عازمان بعون الله ورسوله على مهاجمة المسيحيين في رأس أگير وأسفي .

الفصل 13

إعلان الشرفاء رغبتهم في شن الغارات على أراضي أسفي ورأس أگير

بعد أن اكتسب الشرفاء شهرة كبيرة باحتلال الحصن الصغير الآنف الذكر، وانضم إليهم العديد من الفقهاء، قاموا بشن غارات على التخوم دون أن يحدثوا أي ضرر . ومع ذلك فإنه بمجرد انتشار خبر حربهم تبعهم عدة طوائف من البربر والأعراب الذين كانوا منتشرين هنا وهناك بدون رئيس، وإذ ذاك بدؤوا يهاجمون حلفاء المسيحيين . لكن، نظرا لكثرة جنودهم وعدم وجود ما ينفقون عليهم، فإنهم طلبوا لوجه الله والرسول من أغنى أنصارهم أن يؤدوا إليهم الزكاة التي هي حق الله، حتى يتمكنوا من الوسائل الكفيلة بالقيام بالجهاد ضد المسيحيين، لأنهم لم يكونوا يؤدون آنذاك أي شيء . وكان أول من دفع إليهم الزكاة أهل درعة وترودانت، وتفاوضوا بعد ذلك مع أعيان المنطقة على أن يعيِّنوا الشريف الأب قائدا لتدبير شؤون الجهاد . فسرهم ذلك كثيرا، وتلقب الشرفاء منذئذ بحكام تارودانت ودرعة، وجهزوا بالأعشار المحمولة إليهم خمسمائة فارس، قاموا معهم ومع عدد آخر ممن انضم اليهم بشن غارات ببراعة كبيرة حتى تمكنوا في ظرف وجيز من امتلاك الهيبة والطاعة عبر المنطقة كلها .

ثم فكره الشرفاء في أمر سعادتهم وصعوبة محاربة المسيحيين الذين لن يستسلموا للقوة ولا للخديعة، معتبرين أن أتباعهم سيتخلون عنهم لأول إخفاق، فقرروا عدم القيام بأية مخاطرة في العاجل، والعمل على اكتساب إرادة الجموع المنضمة إليهم قبل كل شيء . ومن أجل هذا لجؤوا على

الخصوص الى أهل البلاد التابعين لهم . وكان أخصب بلاد مملكة سوس واد طوله خمسة عشر فرسخا وعرضه كذلك، يحده من جهة الشرق أراضي درعة وتافيلالت، وشمالا جبل الأطلس، وغربا رأس أكير، وجنوبا مفازات الصحراء . وكان في أجود قسم هذا الوادي جبل تكثر فيه الأسود وغيرها من الوحوش، لدرجة أن المنطقة كلها لم تكن تضم سوى مائتي نسمة وقرية واحدة (22) محاطة بأسوار من الطين . ففكروا في الوسيلة التي سيرتقون بها سنام السلطة القوية، معتبرين أنهم اذا استولوا بالقوة على إمارات أهل البلاد فقدوا ما كسبوه من فكرة عن فضيلتهم، وفقدوا بالتالي الجموع السائرة وراءهم، لكن إذا استولوا عليها بلباقة حققوا مقصودهم . فبدا لهم من الأليق أن يختاروا أوسط الأمور بين العنف والمكر، ليؤسسوا مملكة جديدة دون أن يسيئوا الى أحد، فيتمكنوا فيما بعد من خلع الملوك عن ممالكهم بدون حق . غير أنه بدا لهم من غير اللائق تغيير إرادة أتباعهم الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر محاربة المسيحيين، وخشوا أن يثبطوا عزائمهم ويفقدوهم . وهكذا قرروا أن لا يصرفوهم قطعا عن الحرب التي يرغبون فيها، ولا عن الصالح العام، بل أن يقنعوهم بأنها الوسيلة الوحيدة لإدراك ذلك، بحيث إذا سلكوا هذا المسلك هان عليهم إقناعهم . فقالوا لهم حينئذ إنهم مضطرون الى الاقامة أياما في البلاد التي يوجدون بها، لاسيما وقد عزموا على عدم مغادرتها ما لم يسترجعوا رأس أكير، وللتغلب عليه فمن الأكيد أن تعترضهم دون ذلك عوارض كل يوم، بسبب الحيوانات المفترسة التي توجد في تلك الأماكن، الأمر الذي سيمنعهم بالتالي من التنقل بحرية من مكان الى آخر، كما تقضيه ضرورة الحرب، دون التعرض لآلاف المخاطر التي من شأنها أن تثبط عزائمهم وتشحذ عزائم الأعداء . وهكذا فإنهم أقنعوهم بأنه ما دام يوجد مثل هذا العدد الكثير من الأبطال، فلا بد من القيام أولا بعملية أكثر خصوصية من التي هم مقدمون عليها، ألا وهي طرد الأسود من البلاد بقطع الأشجار . وأبرزوا لهم أنهم سيكتسبون بذلك مجدا خالدا، ويضفون على المنطقة كلها خيرا عميما، ويدخلون في روع المسيحيين أنهم ما داموا طردوا الأسود من

---

22) هي تارودانت . (هامش)

عرنها، فسيكون من الأهون عليهم أن يطردوهم من ديارهم . شجعوا بهذه الاستدلالات أولئك القوم على القيام بهذه العملية، بحيث لم تمض أيام قليلة حتى اجتثت الاشجار كلها وأحرقت، باستثناء غابات صغيرة تركوها ليستعملوها فيما يحتاجون إليه .

وبعد ذلك أخبر الشرفاء أتباعهم بأنهم يعتزمون تشييد منزل قرب مدينة ترودانت القديمة، لأنهم لا يريدون أن يغادروا البلاد دون إنهاء مهمتهم وعندما كانوا يشتغلون في هذا البناء أقنعوا أتباعهم بالاقتداء بهم، إذ أنهم سيكسبون بذلك الشرف والفائدة، لجودة البلاد واعتدال هوائها. وبعد أن أتموا منزلهم، شرعوا في حفر خندق يحيط بمدينة تارودانت الجديدة في دائرة كدائرة إشبيلية . وغرسوا حول المدينة عددا كثيرا من قصب السكر . وعثروا بحذق على الوسيلة الأساسية لتعميرها بالسكان . ولم يكونوا آنذاك شبيهين برجال الحرب بل بالبنائين والفلاحين، إذ كانت تحفزهم الفائدة التي سيجنونها من ذلك في نيتهم . وقد بدأ تشييد تارودانت سنة ست عشرة وخمسمائة وألف .

الفصل 14

مراسلة الشرفاء ملكي فاس ومراكش وغيرهما من أصدقائهم

ثم إن الشرفاء، حفاظا على سمعتهم، كتبوا رسائل واعدة بتقديم الخدمات الى ملك فاس وأولاده، وإلى ملك مراكش وجميع أصدقائهم، يخبرونهم فيها بالمنة التي أنعم بها عليهم محمد (عليه السلام) بامتلاكهم للقصر، وبما ألهمهم لصالح الأمن العام الى اجتثاث الاشجار وتخليص البلاد من الوحوش، حتى يتمكن السكان من التمتع بها وتشييد مدينة تكون من أجمل مدن بلاد البربر، ويتم بواسطتها التوصل الى رأس أگير، ويمكن لهم ولأصدقائهم أن يلتجئوا اليها ويقدموا الخدمات عن طيب خاطر إذا اقتضت الضرورة ذلك .

وقد استقبلت هذه الرسائل بكيفية مختلفة، لأنه بالرغم على أنها أوّلت تأويلا حسنا من طرف أصدقاء الشرفاء، وعددهم كثير، فإن بعض الأشخاص من ذوي الرأي السديد أشاروا على الملكين بأن هذه البداية لا تنبئ بأي خير، وأن هدف الشرفاء بالاحرى الاستيلاء على البلاد بدلا من طرد المسيحيين منها . وقالوا إنهم عازمون على تشييد مدينة جديدة ، ومملكة جديدة، وذلك لا ينجز عادة إلا بإراقة الدم الذي سيكون دم المغاربة . وبما أن البناء لايشيد فوق أراضي المسيحيين فإنهم أكدوا آنذاك أن نارا أخذت في الاشتعال، لاتلبث أن تحرق بلاد البربر بأسرها . لكن هذين الملكين الذين أوهى الفراغ والرذائل عزمهما بدلاً من أن يتنبها ويتخذا علاجا للأضرار التي كانت تهددهما، كتبا الى الشرفاء يهنئونهم على نجاحهم، ويحمدان مقاصدهم، ويقدمان لهم عروضا جديدة لمساعدتهم .

وفي هذه الأثناء، علم الشرفاء بالمحاولات التي قام بها بعضهم ليسوء ظن الملكين بهم، لذلك فإنهم عزموا على أن يسرعوا في التحصن حتى لا يقضي عليهم أعداؤهم وحتى يواجهوا من يعملون على إيقافهم عند حدهم . وهكذا فإن الشريف الأصغر مكث بقصد إنهاء الأشغال والاحتفاظ بالاصدقاء الذين كانوا معهم، ورجع الأكبر الى بلاده (23)، حيث وجد أكثر مما كان عنده من الأحباب، لكثرة ما قدم من هدايا وما فاه به من أقوال طيبة وحملهم على التغيير مؤكدا لهم أن الحظ سوف يكون حليفهم بعون محمد (عليه السلام) كما أنه أغرى قواد تيكورارين وسكانها المجاورين لدرعة، فترك البلاد مخلصة له وعاد عند أخيه بتارودانت .

23) درعة .

الفصل 15

استيلاء الشرفاء على مدينة تدنست (24) ثم استرجاعها من طرف نونيو فيرناند (25) دي أطايدي قائد أسفي، وموت الشريف الأب

قرر هؤلاء الشرفاء (26) محاربة المغاربة المدعوين المزواريين، لأنهم كانوا يساعدون المسيحيين، فأخضعوهم بعد عدة معارك، ثم ساروا عبر الجبال كلها، واقنعوا سكانها بالانضمام إليهم . كانوا يقولون إنهم سيخلصونهم من الأضرار التي يلحقها بهم المسيحيون وحلفاؤهم من الأعراب، فأغروهم بهذا الكلام المزيف. واعترف بهم العديد من البربر كقواد ورؤساء زمنيين وروحيين . كانوا ينفقون على المحاربين الوافدين عليهم من كل جهة، من الأعشار التي يؤديها إليهم الأنصار، وهكذا استولوا على مدينة تدنست حيث قرر أبوهما الإقامة بها. وهناك بنى قصرا فاخرا فيه عدة بساتين وبرك جميلة . وبعد أن حشد قواته في هذه المدينة، تمركز فيها كرباط للتصدي لمسيحيي أسفي وأزمور، الذين كانوا يشنون غارات على هذه المنطقة كلها بقيادة يحيى بن تعفوفت، الخاضع له جل أعراب الغربية والشرقية، والقادر على تجنيد أكثر من اثني عشر ألف فارس وعدد كبير من المشاة (27) . كان يحيى عدوا للشرفاء صديقا لنونيو فيرناند دي أطايدي، اشتهر بأنه من أشجع المحاربين

---

24) في الأصل تندست - بتقديم النون على الدال - وقد أثبتنا ما اتفق فيه الوزان ومارمول .

25) يكتبه مارمول فيرنانديس .

26) سنة 1516 . وقد عبر عنهم - تعصبا - بالطغاة .

27) عند مارمول : خمسة عشر ألف فارس ومائة ألف راجل .

بأفريقيا في ذلك العهد .

لما علم هذان القائدان بوجود الشريف وابنيه في تدنست مع قواتهم، قررا شن غارات عليهم ومحاصرتهم فيها، أو محاربتهم إذا خرجوا منها، لأنهما كانا يعتزمان بكيفية أو بأخرى أن يفقداهم السمعة التي اكتسبوها، حتى يتخلى عنهم الشعب . فأخذا معهما أربعمائة فارس مسيحي، وثلاثة آلاف فارس مغربي، وثمانمائة من المشاة الأعراب وانطلقا في طريق تدنست، إلا أنهما لم يتمكنا من تدبير ذلك سرا، بحيث إن الشرفاء اطلعوا عليه، فحشدوا في الحين أربعة آلاف فارس وخرجوا في انتظار العدو . كان على رأس الطليعة التابعة للمسيحيين يحيى بن تعفوفت، الذي التقى بالشرفاء على بعد ثمانية عشر فرسخا من أسفي وأربعة فراسخ من تدنست . ومع أن الوقت كان متأخرا والشمس مائلة الى الغروب، فإنه قاتل بشجاعة حتى إن الشرفاء وجنودهم كانوا قد لاذوا بالفرار قبل أن يصل نونيو فيرناند مع مؤخرة الجيش. ولما وصل المسيحيون أخذوا أزيد من مائتي أسير . وهلك في هذه المعركة ثمانمائة رجل من جانب الشرفاء ومائة (28) من جانب يحيى بن تعفوفت، ولم يقتل أو يجرح أحد من المسيحيين . كانت قيمة غنيمة هذا الانتصار عظيمة، تتمثل في الماشية الكبيرة والصغيرة، وعدد كثير من الخيل، والبغال، والابل . وبالتالي فإن الشريف هرب مسرعا مع ابنيه، وذهبوا ليقيموا بتازاروت (29) الواقعة في أراضي مراكش، بينما كان يُتابع تشييد تارودانت .

وفي ذلك العهد مرض أبو الشريفين ومات،فحملوه ليدفن في بلاده (29 م).وفي تلك الاثناء دخل رؤساء فئة المسيحيين الى تدنست بدون مقاومة،

---

28) عند مارمول : مائة واثنا عشر .

29) المعروف في المصادر العربية : تفوغالت أو أفوغال من أرض حاحا حيث مدفن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي .

(29 م) بل دفن في أفوغال بجوار الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ثم نقلا معا الى مراكش .

لأن الشرفاء لم يرضوا قطعا بأن يبقوا محاصرين، فأخذت هذه المدينة، وكان معظم السكان قد التجؤا الى الجبل . وأقام هنالك القائدان بضعة أيام يبرمان السلم مع الجيران الذين جاؤوهم مستسلمين . وفي هذه الاثناء حضر يوحنا دي مينيسيس قائد أزمور مع ستمائة فارس وألف ليشارك في تلك العملية، فتوغلوا في أرض المغاربة الذين رفضوا السلم، ونهبوا بعض الأماكن، وأسروا وقتلوا عدة أشخاص، ثم عادوا الى الحدود، ورجع المغاربة الى دواويرهم، تاركين المدينة وعدة اماكن مجاورة خاضعة لملك البرتغال . وبقوا منذ ذلك العهد خاضعين لهذا العاهل إلى أن عاد الشريفان بجيش قوي، فأثارا السكان، ومنعاهم من الامتثال كما يفعلان حتى اليوم .

الفصل 16

نونيو فيرناند يرسل لوبي باريكا لقصف مدينة مائة بير (30) الخاضعة للشريفين

أخبر المغاربة الحلفاء نونيو فيرناند بأن الشريفين يحصنان مائة بير، الأمر الذي دفعه الى أن يرسل إليها لوبي باريكا، مع بعض المغاربة الحلفاء الموجودين بأسفي، ومائة وثلاثين فارسا مسيحيا ومائة من رماة البنادق، إضافة الى ثمانمائة فارس من أعراب الغربية، وأربعمائة راجل، بقيادة بوجمعة . ولما وصل باريكا بجنده الى قرية قريبة من المدينة، أقام معسكره ليهاجمها، لكن بينما كان الحديث يجري حول الترتيب الذي ينبغي اتخاذه للهجوم، طرق سمع الحرس ضجة كبيرة أحدثها السكان وهم يفرون نحو منحدر أحد الوديان . ولما

---

30) في الأصل مائة بيت وهو تحريف .

بلغ الخبر باريكا أمر طائفة من جنده بالركوب . وأما هو فذهب مع الفرسان المسيحيين لاستطلاع الأمر تاركا القائد بوجمعة مع الباقي . فوجد أن بعض دواوير الشرفاء التحقوا بدواوير يحيى بن تعفوفت، واقتفى أثرهم مائة من فرسان الشريف لنهبهم، فتصدى لهم لوبي باريكا في الحين وهزمهم في الأخير وتبعهم المغاربة على مسافة أكثر من ثلاثة فراسخ، لكن أهل المدينة لما رأوهم مشتتين، خرجوا جماعات لمساعدة أصحابهم، فاختلطوا مع الذين كانوا في المقدمة، وطوقوهم من كل جانب، وقتلوا خمسة عشر مسيحيا، وقبضوا على لوبي باريكا بعد أن أصابوه بجراح وقتلوا فرسه، وكانوا بدون شك سيحكمون السيف في رقاب المسيحيين جميعا لولا أن أقبل المغاربة الحلفاء لإغاثتهم .
وقد قام لوبي باريكا في ذلك اليوم بأشياء مدهشة : ذلك أنه لما قبض وجرح، انتزع رمحا من يدي أحد المغاربة الذين يقودونه، فقتله بنفس الرمح، ودار على الآخرين، وأخلى الطريق أمامه كأسد هائج . ثم أخذ فرس المغربي القتيل، وفر بمساعدة بعض جنوده . وفي الحين جمع ما استطاع من رجاله، وعاد الى حيث ترك بوجمعة . وفي يوم الغد ذهب فأقام معسكره أمام الجزائر (كذا) غير مكترث بمائة بير، ناهبا بعض القرى القريبة من المدينة .
ومكث هنالك ثلاثة أيام لإرغام الشريفين على القيام بمناوشة، فأخرجا مائتي فارس، قاتلهم المسيحيون، الى أن تحصن المغاربة في المدينة، وقد فقدوا ثمانية من أهم قوادهم، وخمسة وعشرين فارسا، دون أن يقتل ولو مسيحي واحد .
وفي الغد نصب لوبي باريكا أخبيته قريبا، بحيث لم يبق بينه وبين المغاربة سوى ربوة صغيرة وجدول ماء . وبينما هو عازم على مباشرة القتال بحمية إذ أبصر حرسه راية كتيبة مقبلة من جهة الجبل، فظن المغاربة الحلفاء أنهما الشريفان يتقدمان لإنقاذ المدينة، ففروا تاركين أخبيتهم .فامتطى المسيحيون خيولهم، ولم يكونوا يعتقدون أن المغاربة سينسحبون هكذا، وحاربوا النازلين من الجبل الى أن حال الليل بينهم . وعندما رأى المسيحيون أن الأعراب انصرفوا، أخذوا معهم الأخبية التي تركوها، وساروا في نظام حسن عائدين الى أسفي بسبب الخزي الذي ارتكبه المغاربة الحلفاء حين انسحبوا متخاذلين لدى رؤية مائة فارس، إذ لم يكتشف عدد أكثر من ذلك، وكانوا بقيادة ادريس الهنتاتي لا بقيادة الشريفين كما توهموا ذلك .

الفصل 17

قيام لوبي باريكا بنهب مدينة أماكور (31) صحبة حاكم أزمور

في سنة ست عشرة وخمسمائة وألف علم نونيو فيرناند دي أطايدي، قائد أسفي، أن مولاي أحمد الشريف يوجد منذ أيام بمدينة أماكور ومعه عدد من المقاتلين، فأرسل أمرا الى لوبي باريكا، الذي كان آنذاك مع حاكم أزمور، أن يشن غارة مع الأعراب الراغبين في الدخول تحت طاعة ملك البرتغال، على أن يفاجئ أماكور ويقبض على المغربي الذي يزعج البلاد . ولقلة من كان معه من الرجال أوفد ابن أخيه ألفاروميندیس سیر ڤيرا، مع بعض الفرسان والجنود ليلتحقوا به . وكان عدد هؤلاء، بالإضافة الى الأعراب الحلفاء في بادية موراديس (كذا) مائتي فارس، وخمسين من رماة البنادق، وألفا من الأعراب .

انطلق باريكا على الفور صوب أماكور مع خليفته والقائد بوجمعة، فوصل إليها قبل حلول الليل بساعتين، وعسكر قرب المدينة . وفي الحين خرج بعض الفرسان، وتقاتلوا مع أعراب القائد بوجمعة، وحاربوهم بشدة حتى اضطر لوبي باريكا الى أن يتدخل لنجدتهم، فانسحب الأعداء . وكان المغاربة في ذلك العهد يخشون المسيحيين لدرجة أن السكان كانوا يغادرون المدينة بدون تردد وينسحبون الى الجبال . لكن الشريف عزم على حمايتها، فأمر ألا يخرج منها أحد تحت طائلة الموت . إلا أنه مع ذلك غادرها فيما بعد، واقتدى به السكان .

---

31) حصن جنوب حاحا قريب من مرسى تافتنة . وقد كتب في النص الفرنسي هنا "أماكور" ثم كتب - مصحفا - في الفصل 19 : "أكامور" ويكتب أيضا أمغور .

انظر أ.بوشرب دكالة، ص 232

ولما علم باريكا بهذا الخبر، اقترب ليلا من الأسوار، فلقي بعض الفرسان، ومائتي راجل كان الشريف قد تركهم للتصدي للمسيحيين عند انسحاب السكان، وشرع في قتالهم، وهزمهم أخيرا بعد أن قتل جلهم، واقتفى أثر الهاربين . ومن جهة أخرى فإن السكان عندما رأوا المسيحيين ينتصرون، حاولوا التخلص من قبضتهم، فأخذوا يرتمون من أعلى الأسوار في اضطراب كبير، حتى سقط منهم أكثر من ثمانمائة شخص، رجالا ونساء وأطفالا . فدخل المسيحيون الى المدينة، وحكموا السيف في رقاب أهلها، وحصلوا على غنيمة عظيمة . وعثر في الاماكن التي فروا منها على عدد من النساء والأطفال قتلى، وعدة أفراس بسروجها وأعنتها، كان المسلمون (32) قد قذفوا بها حتى لا يستعملها المسيحيون .

وأخيرا لجا ثاني الأخوين الشريفين بفضل سرعة فرس مغربي عنده، وكان يقول عندما أصبح ملك مراكش : إنه لم ير نفسه قط في خطر أكثر من ذلك اليوم، وإنه لو لم يدخل المسيحيون الى المدينة وتبعوه لاستحال عليه أن يتمكن من الخلاص . ذلك لأنه عندما ضل طريقه، دخل الى واد صغير، ومكث به مايزيد على أربع ساعات، واضطر أخيرا الى الخروج من نفس المكان الذي دخل فيه، واقتفى أثره بعض المغاربة الحلفاء على مسافة أكثر من فرسخ، لكنه يؤكد أن الفرس الذي كان يمتطيه سريع جدا بحيث لا يظن أن بإمكان أحد أن يلحق به، وأخيرا أسر المسيحيون أربعمائة شخص مع أحد أعمام الشريف . كان قد أسند اليه حكم المدينة . فأخذ منه طبول الحرب ومائة وثمانون فرسا مسرجا ملجما، وأثاث كثير استبدّ به المسيحيون، واختلس المغاربة الحلفاء كميات من القمح، والشعير، والسمن والعسل، والماشية، وعدة أشياء أخرى . وقضوا ثلاثة أيام في نهب المدينة، ثم انسحب المغاربة الى دواويرهم، والمسيحيون الى أسفي وأزمور، حيث استقبلوا بفرح كبير .

---

32) يعبر عنهم المؤلف تعصبا بالكفار . وسيتكرر هذا التعبير أثناء الكتاب فلا نعيد التنبيه عليه في الغالب .

الفصل 18

لوبّي باريكا يحارب الشريفين ويهزمهما

بعد أن أظهر الشريفان مشاعر ألمهما لموت والدهما، قررا القيام بجولة عبر بلاد أصدقائهما وتفقد تشييد تارودانت . فانطلقا لحينهما، وأخذا يستميلان الناس لدعوتهما، ثم توغلا في منطقة الوشيم (كذا) لإهلاك رعايا الملك البرتغالي، الذين أخبروا بذلك نونيو فيرناند دي أطايدي طالبين منه أن يبعث إليهم بمحاربين قصد مواجهتهم . فأرسل إليهم خمسين فارسا بقيادة لوبي باريكا التحقوا بجنودهم وكمنوا للشريفين في مكان يدعى مسكيريزو (كذا) وكان فرسان الشريفين قد وصلوا الى دوار من بلاد الشياظمة،فأخذوا ينهبرن بعد أن قتلوا بعض الأشخاص، لكن المسيحيين حملوا عليهم في نفس الوقت، وهزموهم الليل كله، وقتلوا العديد منهم ثم رجعوا منتصرين الى دواوير الشياظمة، سائقين بعض الأسرى . كان لوبّي باريكا شجاعا لا يعجبه شيء أكثر من مطاردة هذين الشريفين (33) فأرسل الى نونيو يطلب منه أن يبعث اليه بالمدد، فزوده ثانيا بخمسين فارسا بقيادة جورج مينديس دي أطايدي . وزحف لحينه نحو الشرفاء الذين كانوا متوجهين إليه في ألف وستمائة من حملة الرماح بقصد محاربته . ألف لوبّي باريكا من جنوده المسيحيين كتيبتين من مائة من حملة الرماح، أسند قيادة إحداهما، الى جورج ميندیس وابن أخيه بيير باريكا، واحتفظ بالاخرى لنفسه، وفعل مثل ذلك بالمغاربة الحلفاء الذين جعلهم في الجناحين وأمرهم بما يلزمهم فعله.

كان الشرفاء قد كونوا ثلاثة فيالق من جنودهم، كل واحد من الإخوة الثلاثة على رأس فيلق . فحمل أكبرهم عبد الكبير على فيلق جورج ميندیس، وبعد أن طوق الخمسين مسيحيا ضيق عليهم الخناق، لكن باريكا

---

33) عبر عنهما أيضا بالطاغيتين . وسيتكرر ذلك أثناء الكتاب فنكتفي بذكر المقصود: "الشريف أو الشريفين أو الشرفاء" دون تنبيه آخر .

أسرع إليهم مع الخمسين الآخرين، فحمل على الأعداء خارقا صفوفهم والتحق بأصحاب ميند يس الذين كانوا يحاربون ببسالة . وأثناء المعركة حمل المغاربة الحلفاء على الفيلقين الآخرين للأعداء . وهكذا فإن المعركة كانت حامية، ودامت أزيد من ساعتين، دون أن يعرف لأي جانب ستكون الغلبة، ثم أصاب بيدرو باريكا عبد الكبير بضربة أسقطته عن الفرس، فاضطرب فيلقه بينما كان رجاله يسحبونه، لكن لويِّي باريكا، وقد رأى أن فيلق الأخ الثاني مازال متكتلا، حمل عليه مع المغاربة الحلفاء فكسره، وفر الباقون . اقتفى المسيحيون وحلفاؤهم من المغاربة أثر الفارين، ففتكوا بمائة فارس مع بعض القواد والشيوخ والأعيان . وقتل لويِّي باريكا بطلين هما، ابن تاكولجين وولده، لإنقاذ بايورويس الذي أسقط على الأرض بطعنة رمح . وفقد الشرفاء في هذه المعركة اثنين من حملة الرايات وطبلا واحدا، وهربوا بطلق العنان ورجع المسيحيون الى أسفي مع أربعة من الجرحى فقط، حامدين الله على هذا الانتصار الباهر ! .

الفصل 19

محاصرة الشرفاء مدينة أكلاكل (33 م) وهزمهم لويِّي باريكا

بعد أن جمع الشرفاء ما تبقى من جنودهم الناجين من المعركة، انسحبوا الى شوشاوة حيث مكثوا بضعة أيام، وهم في غيظ شديد لما لحقهم من خسارة، مقدرين الضرر الذي يلحقهم من المسيحيين الذين يتقوون بما يحصلون عليه من غنائم، وقد احتلوا منذ قليل مدينتي تدنست وأمغور (33م) دفعتهم هذه الاعتبارات الى العزم على أن يثأروا من المسيحيين

(33 م) كتبت في النص الفرنسي محرفة "الكيل" تبعا لمارمول . وهي عند دوكويش : الجبيل . انظر أ. بوشرب، دكالة، 232

و حلفائهم المغاربة، وهم يقومون بذلك للاحتفاظ بسمعتهم أكثر مما يقومون به لاسترجاع مافقدوه . فاستنفروا كل ما أمكنهم من جنود لمحاصرة مدينة أكلاكل التي كانت بيد شيخ (34) صديق للمسيحيين، فاحتلوها عنوة إذ لم يصل إليها مدد، وحصنوها فورا، وأقاموا بها حامية قوية، لكنهم لم يقيموا بها إلا بضعة أيام ثم عادوا الى شوشاوة التي رمموها، ومنها كانوا ينطلقون عادة لارتياد البلاد كلها محاولين بجميع الوسائل استمالة قلوب الشيوخ والأعراب والبربر . ومع ذلك فإنه بعد عدة معارك مع المسيحيين ساعدهم الحظ فيها، جاءت سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف فخرج فيها لوبّي باريكا الى مدينة أنكا (كذا) وحاصرها قصد نهبها . ولما علم الشرفاء بذلك خفوا لنجدتها، ووصلوا في الوقت المناسب، فحملوا على المسيحيين الذين كانوا يحاربون بشجاعة، وهزموهم وقتلوا عددا كثيرا منهم وأسروا بعضهم . والتحق من نجا بأسفي بعد أن تعرضوا لمخاطر كثيرة . ومات في هذا المعركة عبد الكبير أكبر الإخوة الشرفاء، وعاد الأخوان منتصرين الى شوشاوة بشرف لم يحرزا عليه من قبل، لكونهما هزما لوبي باريكا أكبر قائد شجاع آنذاك بأفريقيا . حتى إنه مازال يتمتع الى اليوم بتقدير كبير، ويتحدث المغاربة عن الطعنات التي كان يسددها برمحه، فإذا أرادوا الدعاء على أحد أو تهديد أولادهم قالوا : "ما صار وأنت باريكا" (35) ، أي لتُصبك طعنات رمح باريكا .

---

34) بوجمعة .

35) جملة عربية كتبت محرفة حسب رطانة المؤلف .

الفصل 20

هجوم نونيو فيرناند دي أطايدي على بلاد المغاربة

بعد أن قام نونيو فيرناند دي أطايدي بشن غارات في أفريقيا أكسبته شهرة كبيرة، أُخبر من طرف أولاد مطاع الذين كانوا من رعايا ملك البرتغال، أن أولاد عمران قد ثاروا وأخذوا يغيرون على أراضيهم، وأن الشرف يفرض عليه أن ينجدهم . كان يحيى بن تعفوفت حينئذ في البرتغال، ويظن أن ذلك حدث بإيعاز من الشريفين الذين أفسدا بينه وبين قائد أسفي، لما شاهداه من الضرر الذي يُلحقه بهما هذا المغربي وما اكتسبه من شوكة بواسطة المسيحيين، فكتبا من أجل ذلك الى نونيو فيرناند دي أطايدي يخبرانه بأن يحيى بن تعفوفت يريد أن يقتله ويستولي على البلاد، وأنه لأول مرة سيأتي الى المدينة وهو مسلح لهذا العرض . وعندما ذهب هذا المغربي الشجاع الى أسفي بعد مدة قليلة، ودخل الى القصر، أمر القائد بتفتيشه، فوجدوا عنده سترة زرد فاخرة، وسيفا قصيرا وخنجرا، الأمر الذي أغضب الحاكم البرتغالي كثيرا حتى أراد أن يقطع رأسه في الحين، دون أن يأخذ بعين الاعتبار التبريرات والخدمات التي قدمها المغربي . وأخيرا فإن كل ما حصل عليه يحيى بشفاعة النبلاء المسيحيين، هو أن يساق أسيرا الى البرتغال. وهكذا حرم الشريفان بهذه المكيدة المسيحيين من هذا البطل المغربي الذي كان ممن خدموا بإخلاص فائق ملك البرتغال في ذلك الحين .

ولنعد الى تاريخنا فنذكر أن أعراب أولاد عمران، وهم محاربون أشداء، فيهم فرسان أبطال، لا يرضون أن يؤنبهم المغاربة الآخرون بكونهم تابعين لملك مسيحي، ثاروا وتوغلوا كثيرا في البلاد ملحقين أضرارا برعايا الملك البرتغالي . وهذا هو السبب الذي من أجله كان نونيو يبحث دائما عن فرصة تمكنه من مهاجمتهم . ولما علم بوجودهم على مسافة نحو عشرة فراسخ من أسفي عزم على الخروج إليهم، فانطلق من هذه المدينة في أربعمائة فارس، وستين من رماة البنادق الراجلين . ولما وصل بهذا الجند الى دواوير عودة، أخذ معه ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس من هؤلاء ومن أهل الغربية،

موهما إياهم بأنه ذاهب لتخريب وإحراق زروع أهل مراكش، وسار بهم طوال الليل . وعند بزوغ النهار حمل على دواوير أولاد عمران ونهبها . وسلب زوجة قائد (36) هذه الدواوير، ثم عاد الى أسفي مع بعض الأسرى الآخرين بعد أن أمضى القيلولة حتى المساء في مكان يسمى خريس .

الفصل 21

هزيمة نونيو فيرناند دي أطايدي وموته، وأسر لويِّي باريكا

بعد أن نهب نونيو فيرناند دي أطايدي الدواوير، جمع ابن شموط الذي كان سيدهم ما أمكنه من المقاتلين، وكرَّ على المسيحيين الذين كانوا قد شرعوا في المسير . وإذ ذاك أخذ يبين للمغاربة الحلفاء أن شرفهم ومصلحتهم يفرضان عليهم التخلي عن نونيو فيرناند، والانضمام إليه، لأن فرصة عجيبة قد سنحت لوضع حد للأضرار التي يلحقها بهم المسيحيون . وعند ذاك أخذ يهاجم مهاجمة اليائس كتيبة المسيحيين بدون انقطاع . ولما رأى إحدى زوجاته تساق أسيرة وكان يحبها، صاح بها ألاّ تنزعج إطلاقا، لأنه يأمل بعون الله إطلاق سراحها . استأذنت المرأة الجنود الذين كانوايحرسونها لتكلم زوجها، وأجابته بجرأة :

"أيها الفارس الذي يزعم لنفسه هذا القدر من الشجاعة، تذكرني، وتذكر أنك طالما وعدتني وأنت تعبر لي عن حبك، خلصني أو مت في سبيلي، فألحق بك . لكن شتان ما بين الوعد والوفاء به !"

---

36) ابن شموط . (هامش)

رد ابن شموط على هذه الكلمات وهو يلوح برمحه : "إطُّو (37)، (هكذا كانت تسمى المغربية) إنني لم أقل قط شيئا لم أنفذه، ولن يطرأ علي أي تغيير، فالنهار طويل، والنصر بيد الله، والقوة في هذا الساعد !".

يئست المغربية من هذا الخطاب وتناولت شيئا من التراب وألقت به في الهواء قائلة : "كل ماتقوله ماهو إلا ريح، فلم تعد إطُّو لك" !.

عندئذ خلع ابن شموط أحد نعليه ورمى به إليها كضمان لوعده، ثم دار الى قومه وجعل يحثهم على القتال، مذكرا إياهم بالخسائر التي ألحقها بهم المسيحيون، ومشيرا الى نسائهم وأولادهم الذين يسوقونهم أسرى . كان يقول لهم إنه لا بد من بذل مجهود أخير، وإن النصر بأيديهم، فإن عليهم أن ينتظروا من محمد (عليه السلام) ثوابا عظيما على شجاعتهم . ثم حمل ببسالة على مؤخرة المسيحيين، حيث كان يوجد دم ألفونسي دي فارو، صهر دي أطايدي، وقاتل طويلا . عندئذ أمر تونيو فيرناند ألا يناوش أحد الأعداء بعد ولا يتشتت، ورص الكتبة رصا ثم استأنف السير نحو أسفي في أحسن نظام .

كان ابن شموط يطارد المسيحيين ويهاجمهم ويرميهم برمحه حتى اضطروا الى التصدي له، وهكذا دارت بين المسيحيين والمغاربة معركة عنيفة . كان اليوم شديد الحر حتى إن تونيو فيرناند فك واقية العنق من الزرد الذي كان يضعه فوق الدرع، فلما دخل معمعة القتال، رماه ابن شموط بحربة اخترقت حنجرته وسقط ميتا . سحب المسيحيون حينئذ جثة قائدهم، وقرروا عندما انتشر خبر موته أن يعينوا قائدا آخر قبل أن يتابعوا السير، لكنه حدث بعض النزاع بين الجنود، فأراد بعضهم أن يسندوا هذه المهمة الى دم الفانسي دي فارو، وآخرون الى ألفاري دي أطايدي، حتى بلغ الأمر الى حد الاقتتال .

---

37) تصحيف أو اختصار لاسم "فاطمة" في اللسان الدارج العربي والأمازيغي . وتكتب أحيانا كما ينطق بها - تسهيلا - "يطُّو" .

لما رأى المغاربة الحلفاء ذلك، تيقنوا أن الوقت مناسب لتنفيذ ما قال لهم ابن شموط . فلم ينتظروا أوامر قادتهم، وانضموا اليه، وحملوا على المسيحيين حتى هزموهم وقتلوا منهم الكثير . لم تقف مصيبة المسيحيين عند هذا الحد، لأن الذين نجوا منهم ظنوا أنهم سيجدون الحماية في دواوير الأعراب الآخرين من أصدقائهم، لكنهم قتلوا أو أسروا من طرف أولئك الذين كانوا يرجون منهم بعض الجميل ولم ينجُ منهم سوى خمسين من بين الراكبين والراجلين . واسترجع ابن شموط زوجته وجميع الغنيمة التي كان المسيحيون استولوا عليها، وعاد منتصرا الى دواويره .

وقد هلك ذلك اليوم نونيو فيرناند دي أطايدي، وصهره دم الفونسي دي فارو، وابن عمه دم الفاري دي أطايدي، وأخو زوجته ألفاري دي فارو . وأسر عدد من الفرسان والنبلاء،، من بينهم لويِّي باريكا، وهنري دي سان جورج بريطون، ودم أنطوني كارنيرو، ونحو خمسة وخمسين آخرين . وأصبح جميع هؤلاء الأسرى منذ ذلك الحين تحت سلطة الشرفاء ..

الفصل 22

وصف رأس أگير (أگدير) الكائن بمملكة تارودانت

أسمت مدينة رأس أگير حديثا على رأس يشكله جبل الأطلس الكبير داخل البحر المحيط الغربي، بين مدينتي ماسة وترسانة، وفيها مرسى جيد صالح للسفن المتعددة السطوح . كانت في البداية حصنا من خشب، أقامه دييگو لويِّيز دي سيكيرا على نفقته، داخل هذا الرأس، من أجل صيد السمك في ذلك البحر . وأطلق على هذا الحصن اسم سانت كروا (الصليب المقدس)، فسماه المغاربة الرومية، أي دار المسيحي . ولما علم الملك دم مانويل فيما بعد بالأهمية البالغة لهذا المكان بالنسبة للملاحة في البحر، ولغزو افريقيا، أخذ الحصن وأدى الى دييگو لويز دي سيكيرا جميع ما صرف عليه من النفقات، وأعطاه علاوة على ذلك أشياء أخرى عديدة . ثم وسع

هذا المكان وأحاطه بأسوار وبروج مشيدة بالجير والحجر، كمدينة محصنة، وأقام به قائدا عاما زوده بما يلزم من مدفعية ومقاتلين . ومن ثم كان المسيحيون يشنون الغارات على البلاد كلها، بمساعدة بعض الأعراب والبربر الذين أصبحوا من رعايا الملك . وكان باستطاعتهم أن يجعلوا أنفسهم سادة هذا الإقليم وغيره من هذه المناطق، لو لم يحملهم الطموح على الإبحار نحو الهند . حقا لعل ذلك حدث بأمر من القدر الرباني ليكون هؤلاء المسلمون (38) الذين يدعون، تحت شعار الجهاد، أنهم حماة الأمة الاسلامية، ويعملون بالاستيلاء على هذه البلاد على أن يصبحوا أقوياء بهذا القدر الذي يشاهدون عليه اليوم لمعاقبة الشعب .

الفصل 23

ذكر بعض ما وقع بين مسيحيي رأس أگير والشرفاء

لقد تقاتل المسيحيون بمساعدة قائدين مغربيين (39) عدة مرات مع الشرفاء أيام كان دم فرانسو دي كاسترو حاكما على رأس اگير . واتفق أنه في شهر ماي عام سبعة عشر وخمسمائة وألف، عقب مقتل نونيو فيرناند دي أطايدي، أن الشريف أحمد (40) ثاني الإخوة، أغار على البلاد وأحرق الزروع التي كان المغاربة المتحالفون مع المسيحيين قد زرعوها، فتصدى له سيدي

---

38) عبر عنهم المؤلف المتعصب هنا بالوثنيين مثلما عبر عنهم مارمول بالكفار .

39) هما سيدي ملاي (كذا) ومزوار درعة .

40) صحف في النص الفرنسي - كالعادة - فكتب محمد .

بوعكاز (41) بجنوده، وهزمه وقتل ثلاثين من رجاله . لكن الشريف أرسل يطلب أخاه الأصغر، الذي كان قد توقف أثناء المعركة قريبا من هنالك، فاجتمعا وذهبا لملاقاة سيدي بوعكاز، فهزماه واحتلا عنوة مدينة (42) تابعة له، كانت، في القديم آهلة بالسكان وفي غاية الغنى، لأنه كان فيها منجم يحتوي على كمية كبيرة من النحاس والصفر يمكن أن تباع في اوربا، غير أن هذا المنجم أضحى سبب تخريب المدينة واحتلالها مرارا عديدة .

ولنعد الى تاريخنا فنذكر أن دم فرانسو دي كاسترو كان يومئذ في البرتغال، فجاء منه بمائتي فارس وبعض المشاة . ولما أخبر بما وقع للشيخ صديقه، لم يرد أن يتمتع الشرفاء طويلا بهذا الانتصار، وحشد البربر والأعراب، المتحالفين ثم خرج على رأسهم وهاجم إحدى مدن الشرفاء (43)، كانوا يقيمون بها عادة عددا من المحاربين، فداهمهم بغتة ودخلها عنوة، وأسر جل من كانوا فيها وخربها . وكان إذ ذاك في المدينة عدد من المسيحيين الجنويين وغيرهم من جنسيات أخرى، قصدوها بجواز مرور من الشرفاء قصد الاتجار، فأسروا مع المغاربة، وأراد الجنود أن يبيعوهم عبيدا، قائلين إنهم وجدوا مع الأعداء وهم يتجرون، وذلك أمر محظور (44)، إلا أن الملك أطلق سراحهم بعد أن حُجزوا مدة طويلة . وأصلح هؤلاء المغاربة المتحالفون ما أصيبوا به من خسارة في طول، وعادوا الى دواويرهم، مثقلين بالغنائم .

---

41) يذكر هذا الاسم بفرقة "العكاكزة" الضالة . ويعرف اليوم في بلاد زعير ضريح مولاي علي بوعكاز جنوبي مدينة واد زم بنحو 40 كلم . ويقام حوله سوق اسبوعي كل أربعاء (ثم أصبح كل سبت) يدعى سوق مولى العكاز . ولا ندري هل المذكور هنا هو صاحب الضريح أو له به علاقة .

42) هي طول (كذا)

43) هي تركوكو [قد كتب في الهامش - مصفحة - : توروكوكو] .

44) يشير الى الحظر الذي فرضه البابا على بيع الاسلحة الى المغرب في مطلع القرن 16، فلم تمتثل له الدول البروتستانية مثل انجلترا وهولاندا، وكذلك بعض التجار المتحررين من دول كاثوليكية .

الفصل 24

عودة يحيى بن تعفوفت من البرتغال، وشنه الغارات على البلاد مع المغاربة المتحالفين

عقب موت نونيو فيرناند دي أطايدي، بعث الملك حاكما لأسفي دم ماسكارينيس . ولما وصل اليها علم أن المغاربة المتحالفين قد ثاروا فحاول بجميع الوسائل أن يردهم الى طاعة الملك، مؤكدا لهم أنهم لن يؤاخذوا على موت نونيو فيرناند دي أطايدي، ولا على سائر الفرسان المسيحيين . وبناء على ذلك، رجع أهل الغربية وشوشاوة الى الطاعة، لكن أولاد عمران امتنعوا من ذلك، بل بالعكس أخذوا يسيؤون كثيرا الى الذين رجعوا الى تبعية (المسيحيين) حتى اضطر نونيو ماسكارينيس الى أن يخرج عدة مرات من أسفي لشن الغارات عليهم . بحيث إنه توغل في البلاد خمسة عشر الى عشرين فرسخا، وحصل على عدد كثير من الأسرى، الى أن اضطروا أخيرا الى الرجوع مرة أخرى الى طاعة الملك. وكان يحيى بن تعفوفت قد عاد من البرتغال الى أسفي، بعد أن تبرأ من الذنب الذي اختلقه له الشرفاء، وغسل العار الذي كان أطايدي قد لطخه به (45) فأغار على جميع البلاد المجاورة، وفرض إتاوات على الأماكن التي لا تخضع لملك البرتغال مزودا بها عامل أسفي .

وأخيرا فإن يحيى بن تعفوفت، بعد أن حشد (46) خمسة آلاف فارس من المتحالفين، قصد الشرفاء وأرسل الى نونيو ماسكارينيس يطلب خمسمائة من حاملي الرماح بأسفي . وقطعتين من المدفعية، لأنه كان يريد

---

45) كان الملك قد عينه قائدا عاما على المغاربة المتحالفين (هامش).

46) سنة 1519 (هامش) .

التوغل حتى يصل الى مراكش ويتغلب عليها . لم تكن العلاقات آنذاك حسنة بين يحيى بن تعفوفت ودم نونيو، فنصح الكثيرون من خصوم القائد المغربي الحاكم البرتغالي بألا يمكنه من المسيحيين الذين يطلبهم، ولا من المدفعية، إذ سبق له أن تحالف مع الشرفاء وملك فاس وسلم إليهم الجنود . لم يبعث له نونيو، لا رجالا ولا مدفعية، وإنما أمده بخمسين فارسا، بطلب من بعض الفرسان الذين كانوا يعرفون جيدا وفاءه .

وفي هذه الأثناء، توجه يحيى ابن تعفوفت مع أهل عبدة، والغربية، وبعض حملة الرماح نحو الملاحات، ومن هنالك أرسل في طلب أولاد عمران، لكنهم تأخرواعن المجيء ببضعة أيام، وبلغه أن مولاي ادريس أمير قسم من جبل الاطلس، كان قد أغار مع بعض الفرسان الذين انحدورا من سكورة وتادلا لفائدة ملك مراكش على دواوير أولاد مطاع، الذين كانوا خاضعين لملك البرتغال . كما أخبر بأن أصحاب إدريس قتلوا قائدا كان ابن تعفوفت قد نصبه في هذه الدواوير مع خمسين فارسا . وكان هذا القائد المدعو بروان، أخا لأحد أصدقائه (47) الذي اكتسب تقدير المنطقة كلها . وكما جرت عادة المغاربة أن يزور بعضهم بعضا، ويقدموا هدايا في الجنائز، قرر ابن تعفوفت أن يزور صديقه، ويتناول طعام العشاء معه، ويعزيه في موت أخيه .

---

47) هو عزو، شيخ عباد . (هامش)

الفصل 25

اغتيال يحيى بن تعفوفت من طرف مغربيين عندما كان يتناول طعام العشاء مع صديقه الشيخ عزو

لما عزم ابن تعفوفت على تعزية صديقه عزو، سار بصحبة ثلاثة شيوخ (48) الى دوار هذا الصديق الذي لم يكن يبعد عنه إلا بمقدار رمية من سلاح ناري . وبينما كانوا يتناولون طعام العشاء، دخل عليهم شيخان من أولاد عمران مقنعان، هما عسو وغانم، واغتالاه بطعنات خنجر، دون أن يستطيع من كانوا معه إغاثته، مع مابذلوه من جهد في ذلك، لأنهم قتلوا جميعا وهم يحاربون أهل المتآمرين وأصدقائهم .

ولما مات ابن تعفوفت، أسرع أولاد عمران لنهب الدواوير التي كان يقيم بها خمسون مسيحيا، فامتطى هؤلاء في الحين خيلهم، والتحقوا بأعراب الغربية . وأثناء رجوعهم الى أسفي، بعد ما ساروا مسافة تزيد عن فرسخ دون أن يتبعهم أحد، همّ نفس الأعراب الذين يرافقونهم، وقد رأوا أنفسهم بعيدين عن الخطر، بمداهمتهم والاستيلاء على أسلحتهم وخيلهم. حقا، إن أكبر الشيوخ منعوهم من ذلك، لكنهم ندموا عندما تقدموا أكثر، فحملوا على المسيحيين وانتزعوا منهم كل شيء وقتلوهم . ولما بلغ الخبر الى أسفي، خرج دم نونيو بأسرع ما أمكنه للبحث عن الخونة، واقتفى أثرهم في مائة وثمانين فارسا فنلط الى أن لحق بهم على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة . وهناك قاتلهم وهزمهم، وقتل خمسين أعرابيا من الغربية، وساق ستمائة وخمسين أسيرا، منتقما هكذا من خيانتهم لابن تعفوفت وللمسيحيين الخمسين الذين قتلوا .

حزن المسيحيون كثيرا لموت هذا البطل المغربي،لأنه كان دائما يخدم الملك بوفاء، ومنذ ذلك العهد أيقنوا بجسامة الخسارة التي أصابتهم، لأن

---

(48) هم : محمد موزاند، ويعقوب الغربي، ونونهيرة .(دا مش)

الأشياء تطورت، بحيث إن الشرفاء حين وجدوا أنفسهم قد تخلصوا من هذا العدو الذي يظن أن لهم ضلعا في قتله، أصبحوا يوما بعد يوم أقوى من المسيحيين، ولو أن هؤلاء غالبا ما كانوا يتوغلون في بلاد المغاربة، ويأتون منها ببعض الغنائم، إلا أنهم كانوا يفقدون باستمرار بعض ما اكتسبوه من الأراضي .

الفصل 26

إرسال الشرفاء الى ملك مراكش بهدية، ثم قتله والاستيلاء على المدينة

في سنة 1529، بعد أن تخلص الشرفاء من نونيو فيرناند دي أطايدي وابن تعفوفت، ولوبي باريكا، فكروا في تنفيذ مخططهما بصفة علنية، ورفع القناع قبل أن يفضح الزمان نفاقهم ويحطم مصالحهم . وهكذا قرروا إسناد تارودانت الى سلطة أحد أبنائهم، والذهاب الى مراكش مع المؤتمنين على أسرارهم، لقتل الملك والاستيلاء على المدينة . كانوا يظنون أنه على إثر عمل جريء بهذا القدر لن يكون بعد خطر لافتضاح طموحهم، فكتبوا الى ملك مراكش وبعثوا اليه بهدية من الأسرى المسيحيين وأشياء أخرى معلنين أنهم مستعدون لخدمته ضد مسيحيي أسفي، وبعد ذلك يمكن القيام بنجاح بعملية رأس أكير . وهكذا رغبا إليه، إن ارتأى ذلك، أن يأخذ في التأهب وأخبراه بأنهما سيأتيان عما قريب للسلام عليه والتحدث معه في أشياء تهم مصالحه .

استجاب لهم الملك بامتنان، وناشدهم أن يسرعوا إليه . فجاؤا فورا الى مراكش، حيث استقبلهم بكثير من التكريم والابتهاج، وأقام لهم احتفالات لائقة بالملوك أكثر مما هي لائقة بالفقهاء، ولذلك رفوضها، وأقاموا في قصر الأمير . وبعد أن تناولوا طعام العشاء وذكروا أخبار انتصاراتهم، أخذ الملك

يتحدث عن حروب أسفي، لكن أحد الشرفاء دنا منه وقال له إنه ليس من المناسب التحدث عن هذه المسألة أمام الجمهور، لأن لمسيحيي أسفي صداقة ومعرفة بعدد من أعراب المملكة، وبعض أهل مدينة (مراكش)، وأن الأهمية القصوى لهذا اليوم منوطة بأن تبقى المسألة سرية . وهكذا فإنهم توسلوا إليه بأن يأمر بانسحاب جميع رجاله، وألا يبقى معهم إلا هو وحده واثنان من خدامهم الذين يثقون بهم، ليعالجوا أمر هذه الحرب مع جلالته، ويختاروا بعد ذلك من سيعهد إليه بتسييرها .

وافق الملك على رأيهم، وانسحب حراسه لساعتهم . فجعلوا يحرضونه على الحرب، ويذكرون له الوسائل اللازمة لها . وبينما هو ينصت إليهم بإمعان، وقد مضى شطر من الليل والناس في هدوء، أشاروا الى خادميهم أن يطعنا الملك بخنجر، ففعلا ذلك بسرعة فائقة، وقام الشرفاء بسد فمه ومنعه من الصياح : بحيث إنه مات قبل أن يسمع حراسه المقيمون في المدخل أي صوت، وأرسلوا في الحين أحد الخادمين الذي ادعى بأن لا بد له من مغادرة المدينة لأغراض سرية ومن الأهمية بمكان . ذهب يحمل نبأ موت الأمير الى جنود الشرفاء المرابطين في الضاحية، ويأمرهم بالدخول الى المدينة عند بزوغ الفجر في نظام محكم، واحتلال القصبة . فامتثلوا واستولوا على ذخائر الملك، وأعلنوا عبر الأزقة أن الأمير مات حسب ما تقتضيه تعاليم محمد (عليه السلام) الذي أرسلهم لمعاقبة هذا الأمير وتخليص المدينة من الاضطهاد التي هي فيه . وأمر الشرفاء في نفس الوقت، تحت طائلة الموت، ألا يتحرك أحد ولا يخرج من المدينة، ولا يتحدث عما وقع، لأنهم يريدون أن ينفذوا بدقة أوامر محمد (عليه السلام) حاميهم ضد أعدائهم .

روع هذا الأمر المنشور جميع السكان، الذين رأوا أن الأمير مات دون أن يترك خليفة له، وأن الشرفاء استولوا على القصبة فأسرعوا جماعات لمبايعتهم، واستقبلهم الشرفاء بأدب . وفي الحين أصبح أحمد وهو الأكبر، ملكا على مراكش وترودانت، وحمل الأصغر لقب وصي (49) ، ثم أمر الملك

(49) أو خليفة الملك .

أزواج الأمير الهالك أن يأخذن جثمان زوجهن، ويخرجنه من القصبة ويقبرنه . لكن يقال إنهن قمن بتجهيز الميت وهن يبكين ويتحسرن بحيث لم يشاهد قط منظر أكثر حزنا من تلك الجنازة . وفي هذه الأثناء، أرسل أحمد يطلب نساءه وأولاده الذين كانوا في تارودانت، وأسكنهم القصبة . (50)

الفصل 27

وصف مدينة مراكش، وما فيها من أشياء تستحق الذكر

تقع مدينة مراكش في سهل كبير على بعد ستة فراسخ من جبل الأطلس . وتحدها من الشرق مملكة فاس، ومن الغرب مملكة تارودانت، ومن الشمال البحر المحيط الذي توجد بشاطئه مدينتا أزمور ومازيغن، ومن الجنوب بلاد درعة وتيكورارين . تحيط بمراكش أسوار قديمة مجهزة ببروج، ومطلية بالجير، لكن ليس لها خنادق . كانت في القديم كبيرة جدا بحيث تضم أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة، حسب ما يقال . ويظهر ذلك من أن فيها خمسة وعشرين بابا، كان في كل واحد منها قائد مع ألف رجل من الحراس . وبالتالي فإن هذه المدينة تحميها حفر عميقة جدا، مستطيلة في أسفلها ضيقة في أعلاها . يقال إن هذا النوع من الحماية قد اتُّخذ حتى لايستطيع الفرسان الدخول الى المدينة جماعة .

لا أقول شيئا عن التاريخ القديم لمراكش، لكنها أسست قبل تدمير

---

(50) انظر خبر دخول الشريف أحمد الى مراكش عند م.الافراني، نزهة، ص 4

إسبانيا (51) ، إذ أن القائدين (52) الذين فتحا هذه المملكة انطلقا من هذه المدينة (53) إلا أنه من المحتمل ألا تكون مراكش قديمة إن صح قول المغاربة بأن الأسوار التي مازالت تشاهد حتى اليوم وتظهر في حالة جيدة هي نفسها التي كانت موجودة لدى تأسيسها . وفي الجهة الجنوبية من المدينة قصبة كبيرة، توجد فيها القصور الملكية، وبعض آثار منزل موسى (54)، الذي يحظى بإجلال كبير . كما أن في المدينة والقصبة عدة مساجد، تمتاز بكبرها، وهي صالحة جدا لتكون كنائس ! (55) وليس مسجد القصبة بمرتفع، لكنه محكم الصنع في أعلاه ثلاث تفاحات ذهبية في قضيب من حديد، وفي الرأس حربة من نفس المعدن .ومن الأكيد جدا لدى هؤلاء البربر أن مغربية ورثت هذه المملكة هي التي أمرت بوضع تلك التفاحات هنالك . كانت راغبة في أن تكون صالحة، ولكي تحقق رغبتها أكثر عزمت على الذهاب الى مكة لزيارة محمد(عليه السلام) فصنعت من مالها هذه التفاحات التي تزن ستمائة رطل (56)، ووضعتها في الصومعة بمباهاة، داعية على من يعمل على نزعها . ومنذ ذلك العهد، لم يجرؤ أحد ممن تولوا الحكم على أن يمسها، ما عدا الأخ الشريف الأكبر . وبالتالي فإن صومعة الجامع شبيهة بصومعة إشبيلية، ويظن أن بانيهما معا شخص واحد . وفي أعلى جامع مراكش أربع تفاحات أخرى فضية أكبر من الذهبية، يظن أنها وضعت من طرف أحد ملوك هذه الدولة

---

(51) يقصد -لتعصبه- الفتح الإسلامي .

(52) موسى وعارفي [والاسم الثاني محرف عن طارق].

(53) خطأ واضح، لأن انطلاق موسى وطارق كان من مدينة سبتة . ويبدو أن المؤلف اختلط عليه جواز موسى وطارق لفتح الاندلس (711/92) بجواز يوسف ابن تاشفين لنجدة ملوك الطوائف (1086/479) . انظر ع. عنان، دولة الاسلام في الاندلس، 36:1 ومابعدها .

(54) لعل المقصود يوسف بن تاشفين .

(55) "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب" !

(56) عند الوزان : هذه التفاحات الثلاث من فضة، وتزن كلها 93 رطلا إيطاليا (انظر وصف افريقيا، 128:1 والهامش 36 م) .

وأن مالها من الخمس الذي آل اليه من الغنائم التي حصل عليها في إسبانيا. تُشاهد هذه التفاحات من بعد فرسخين قبل الوصول الى المدينة، وقد دعا أيضا الامير الذي وضعها في أعلى الجامع على من قد ينزعها من هناك . ويعتقد المغاربة أن ملكا مسيحيا سيأتي من الشرق ويحتل المدينة وينتزع التفاحات . عدد سكان مراكش الآن عشرون ألف نسمة، يقطن معظمهم في حي بالمدينة، يمتد من باب دكالة، الى باب زوكو (56 م) من الشمال الى الجنوب، والأحياء الأخرى غير آهلة، لكن هناك عدة حدائق مغروسة بمختلف الأشجار المثمرة . وعندما كنت أرى الفضاءات غير المسكونة، كنت أتصور أنها لو زرعت، لأنتجت من القمح ما يقتات به السكان . يستعمل من أبواب المدينة خمسة أو ستة، وهي باب فاس في الشرق، وباب دكالة في الشمال، وباب سيدي أبي العباس، وباب الدباغين، وباب الزوكو في اتجاه الغرب. وفي القصبة باب يسمى باب الغدر . "باب" معناه مدخل، والأبواب الأخرى تحمل أسماء الأقاليم التي تفضي اليها .

في مراكش أزقة جميلة وساحات منسقة بعناية، يقيم بها الصناع، وتباع فيها البضائع والكتب بكثرة، إضافة الى منازل في غاية الجودة والفخامة، مع ملاحين يضمان أزيد من ألف نسمة، واليهود المقيمون فيهما من الذين طردوا من إسبانيا يفيدون أكبر فائدة، لأنهم يحملون الى هذين الحيين بضائع يؤدون عنها ضرائب قوية، لكنهم لا يفتؤون معرضين لاضطهاد المسلمين، لا سيما الأطفال الذين يبالغون في ذلك . وتوجد عدة أزقة ذات أخبية ودكاكين يبيع فيها المسلمون واليهود البضائع البلدية، والمستوردة من الخارج. وللتجار المسيحيين ديوانة (فندق) يوجد في الساحة الكبرى للمدينة، أقامه سيدي موسى (57) بأمر من الشريف ، يضعون فيه بضائعهم ، ويحتوي

(56 م) كذا في النص الفرنسي، ولعله تصحيف لباب تاغزوت .

(57) سنة 1547 (هامش) .

على ثلاث وعشرين غرفة في الطابق العلوي، ومثلها في السفلي، مع أروقة في الأعلى والأسفل، وفناء يخترقه جدول ماء . وهناك بواب مغربي يغلق الفندق ليلا ويفتحه صباحا . وفي المدينة مجزرات تباع فيها جميع أنواع اللحوم بأثمان رخيصة، ويقام كل خميس بضاحية المدينة سوق يقصده العديد من الناس، يحملون اليه القمح، والماشية، والخشب، والعسل، والنحاس، والفواكه الطرية، وعدة أشياء أخرى تكثر في هذه المملكة، وثمنها بخس . يجرون كل ذلك بثيران وبقرات صغيرة، إذ لا يملكون دواب خدمة أخرى . وعملتهم من الذهب والفضة، وسعرها مثل سعرنا الذي راج بينهم : فريال إسباني يساوي ريالا وربع ريال . وهناك عملات ذهبية : المثقال الذي يساوي عشرة ريالات، ونصف المثقال الذي يساوي خمسة ريالات، وربع المثقال الذي يساوي ريالا وربع ريال (58) وهناك ثلاث عملات أخرى من الفضة، الأولى (59) تساوي ثمانية مارا فيديس، والثانية (60) أربعة، والثالثة (61) اثنين . وتتم جميع الأداءات، كبيرة كانت أو صغيرة، بالوزن . وعندما تجمع العملات، يستعملون الموازين (62) التي تشبه موازين الصاغة، وإذا تعلق الأمر بعملة صغيرة، استعملوا أوزانا صغيرة (63) من خشب مصنوعة بحيث تزن ست عملات في آن واحد، كل منها على حدة، وهو اختراع رائع .

إن الذهب المستورد من تيگورارين الذي يأتي به التجار، يحمل الى دار

---

(58) كذا بالترجمة الفرنسية، وهو خطأ بيِّن، فإما أن يكون ربع المثقال يساوي ريالين ونصف ريال . أو ثمن مثقال يساوي ريالا وربع ريال .

(59) هو الدرهم الكبير .(هامش)

(60) هو الدرهم الصغير . (هامش)

(61) هو الفلس . (هامش)

(62)- هي الصنجات . (هامش)

(63) هي الأعدال . (هامش)

السكة، حيث يشترى للملك، ومنه تصنع العملة الرائجة وتطبع بسكة الأمير . وأما النقود الفضية، فتصنع في الغالب مما يستخرج من المناجم الموجودة في البلاد . وهناك أيضا عدة مناجم للنحاس والحديد، وكمية كبيرة من معادن أخرى . يقال إنه كانت توجد مناجم الذهب في جبل الأطلس، وأخبرني عبد أسير (64) أنه كان يشتغل في أحدها لما تم اكتشافه واتضح أنه جيد . وبعد أن صهر المعدن حملوا عينة منه الى الشريف، ظانين أنه سيبتهج بها كثيرا، لكنه لم يعرها التقدير الذي كانوا يظنون، بل بالعكس أمر بردم المعدن وألا ينقب عنه أحد بعدُ قائلا : إنه لو علم المسيحيون بوجود هذا القدر من الذهب هنا ما ذهبوا الى الهند للبحث عنه . ويمر على بعد نصف فرسخ من المدينة نهر (65) له قنطرة في غاية الجمال والضخامة . وقد جلبت منه عدة قنوات ماء تخترق مراكش وتدير عدة طاحونات، وتسقي البساتين، وتزود المساجد وقصور الملك والخواص بالماء . كما يوجد في النهر سمك جيد كثير. ينبع النهر في جبل الأطلس، ويخترق المملكة كلها، ثم يصب في البحر بين أسفي ورأس كانطان .

أهل هذه المدينة بيض البشرة، ويوجد من بينهم عدد من النبلاء، يملكون جياد الخيل ويربونها، وهي خفيفة سريعة، يهمزونها بركابات صغيرة، وينفقون كثيرا، وهم موسرون أغنياء . والى ذلك يتعاطون الصيد، ويقتنون جميع أنواع الطيور الكواسر التي تجلب بكثرة من جبل الأطلس، فالبزاة ممتازة والنسور الملكية التي يصطادون بها الغزلان تربى عندهم .

يتكون لباس عامة الناس من دراعات من نسيج الكتان، وسراويل وسترات من الجوخ الملون، ومعاطف قصيرة قرمزية اللون، وأنواع أخرى من الجوخ تسدل حتى الأقدام . ويتكون لباس الخواص من الحرير في شبه

---

(64) هو يوحنا دي لاسيبرا .(هامش)

(65) هو تنسيفت .(هامش)

معاطف طويلة . وبدلا من القبعات يضعون على رؤوسهم طاقيات حمرا قرمزية تحمل إليهم من طليطلة، رتغطى بنسيج . كما ينتعلون أحذية كبيرة وأخفافا، ونعالا خفيفة (66) ملونة، يجيد صنعها مسلمون ويهود، وينتجون منها الكثير . أما النساء فيلبسن قمصانا واسعة جدا، تسدل الى ما تحت الركب، وحتى تحت السراويل، وهذه عريضة في الأعلى ضيقة في الاسفل تنحدر الى أسفل الساق . كما يلبسن حسب منزلتهن فساتين نصفية على الطريقة التركية، تكون من حرير في الصيف، ومن قماش قرمزي أو جوخ رفيع في الشتاء . هذا هو زي أعظم سيدات مراكش، اللائي ينتعلن أيضا أحذية خفيفة وأخفافا، ويضعن على فساتينهن كساء طويلا (67) من حرير أو صوف، مطرزا ذا أهداب في الأطراف، ويثنى بحيث إذا ألقي عليهن أثبت على الصدر بنوع من حلقات من ذهب أو فضة، أو معدن آخر . وعلاوة على ذلك يحملن خواتم عديدة من ذهب وفضة، ولآلئ وجواهر، وأقراطا، وقلائد، وشرائط يعقدن فيها ريالات إسبانية، وأساور في سواعدهن، وأخرى في السيقان (خلاخل) تشبه الأغلال التي تشد في سلاسل المجرمين، يحملنها فوق الكعبة بالضبط، حتى إنه لا توجد امرأة إطلاقا ليس لها تكلكلات صلبة، لشدة رغبتهن في أن يكن صابرات، ومع ذلك فإنهن يتخيلن أن لباسهن في غاية الجمال، لأنه شهواني، وكثير منهن ذوات حسن رائع . ولا يمكنك التحدث الى امرأة دون أن ترى رجلها وقدر أربعة أصابع من ساقها المثبت فيها الخلخال، مع طرف السراويل. حقا إن هناك خطرا أقل مما هو عندنا، لأن نساء مراكش لا يخرجن أبدا من منازلهن الا للذهاب الى الحمام، ويتلثمن مع ذلك. وإن تعلق الأمر بسيدات ذوات منزلة رفيعة رافقهن مغربي خصي يحرسهن، ولا يزورهن في بيوتهن أحد، لأن المغاربة غيورون جدا، وهن

---

(66) هي الروياس .(هامش)

(67) هي لبكاريس . (هامش)

خليعات يجدن الغزل ويصنعن زرابي تركية من عدة أنواع يستعملنها . ولقضاء مايحتجن إليه من خدمة خارج المنزل، عندهن عبيد بيض وسود . وبدلا من غاسلات الملابس يتخذن نوتيين يزاولون مهمة تنظيف الغسيل، واللاتي لا عبيد لهن، يقوم أزواجهن بالخدمة خارج المنزل . ويتفق أحيانا إذا مر يهودي بباب المنزل، إن لم يكن من الأعيان، أن تناديه المغربية طالبة منه أن يحمل الخبز الى الفرن، أو يأتي بالماء من الساقية .

تمون مملكة مراكش بالأشياء الضرورية للعيش بثمن رخيص، فلا تساوي أربعة أصوع من قمح إلا مثقالا واحدا ، ولا أربعة أصوع من شعير إلا نصف مثقال ؛ وقيمة الثور عشرة مثاقيل، والبقرة أربعة، والخروف ستة ريالات أو سبعة، والجدي ريال واحد، والدجاجة نصف ريال، والحجلة عشرة مرابطية . أما الفواكه الطرية واليابسة والخضر فهي كثيرة جدا . ولهم أيضا كمية كثيرة من زيت الزيتون وثمار أخرى يسمونها أرگان، يستخرج زيتها من لب النواة، وهو مرٌّ صالح جدا للقلي . كما توجد كمية عظيمة من سمك البحر والماء العذب، لا سيما الشابل في نهر أزمور، وهو جيد كبير الحجم رخيص الثمن . ولهم عدة كروم يصنعون منها زبيبا كزبيب دمشق، ويأكلونه وهو مازال طريا، لأنهم لا يشربون الخمر أصلا .

لايمكن تحديد عدد فراسخ مملكة مراكش طولا وعرضا، لأن المغاربة لايعدون بالفراسخ، ولكن بالأيام، وهكذا فإنهم يقولون إن المسافة من مراكش الى فاس سبعة أيام، والى تارودانت أربعة، والى أسفي ثلاثة، والى مازيغن (الجديدة) وأزمور يومان ونصف، لكن المسيحيين الذين ترددوا على هذه البلاد حولوا اليوم الى عشرة فراسخ . وعلى هذا يكون في مملكة مراكش سبعون فرسخا، من وادي العبيد الذي يفصل مملكة فاس عن مملكة مراكش، الى رأس أگير (أگدير) الذي يفصلها عن مملكة ترودانت، لأن المغاربة يقطعونها في سبعة أيام ؛ ومن مازيغن (الجديدة) الى درعة الذي يشكل العرض ستون فرسخا ؛ وفي الشاطئ من الشرق الى الغرب، ابتداء من نهر أزمور الى رأس أگير، خمسون فرسخا، حيث توجد مدن جميلة وموانئ جيدة، مثل أزمور، ومازيغن، وأسفي . وفي المملكة قرى أخرى عديدة معظمها آهل بأعراب يقيمون في دواويرهم التي ينقلونها من مكان الى آخر في بعض

فصول السنة، بحثا عن مراع لمواشيهم، وينصبون خيامهم دائما على ضفاف الأنهار أو قنوات يكون فيها الماء .

الفصل 28

احتلال الشرفاء مراكش، ثم كتابتهم الى ملك فاس وهزمهم بعض الأعراب

انتشر خبر "الخيانة" التي ارتكبها الشرفاء بقتلهم ملك مراكش عبر البلاد كلها، محطما ماكان يتمتع به هذان الجباران من سمعة حسنة، لكن أصدقاءهم وأعداءهم راسلوهم أو جاؤوا لتهنئتهم، وقد قضي الأمر، ورأوا أنهم مقبلون على "جريمة" أخرى، وأنهم قادرون وعازمون على تنفيذها بجرأة . وفي هذه الأثناء هدّؤوا كل شيء في مراكش . وبعد أن استقر الأخ البكر على العرش أوفدوا رسولا بهدية الى ملك فاس، يخبرونه بأن الشعب بايعهم كحكام للمدينة، عقب وفاة ناصر الهنتاتي، وأنهم يحكمونها باسمه في خدمته، وسيؤدون له بعض الخراج. وقبل كل شيء، أنجزوا ثلاثة أشياء بحكمة بالغة : الأول إخضاع الصعاليك واللصوص الى العدالة، والثاني تعيين قضاة وقواد، لاسيما مكافأة الذين ساعدوهم على قتل الملك بوظائف في غاية الأهمية، والثالث تجهيز محاربين يكونون دائما على أتم استعداد ورتبوا لهم أجرة حسنة ليبقى جانبهم مرهوبا. وهاهم الشرفاء سادة مطمئنون بمراكش، غير غافلين عن شؤون مملكة تارودانت، أو عن شن غارات على حدود رأس أگير وأسفي، وعلى المغاربة المتحالفين مع ملك البرتغال، الذين جرت معهم عدة معارك بشأن جباية الخراج، عاملين باستمرار على تفرقة صفوفهم وفصلهم عن التبعية المبرتغاليين. وقد نشبت في ذلك العهد حرب طاحنة بين أعراب دكالة الشرقية والغربية، وجرت المعركة على بعد سبعة فراسخ من مراكش (68) وكلا

(68)في الكارة (هامش).

الفريقين يظن أن الشرفاء بجانبه . ولما علم الشرفاء بالخبر جمعوا جندهم، وخرجوا من المدينة ليشاهدوا ما يجري بين المتقاتلين، وفي الوقت الذي كان فيه الأعراب مشتبكين بعضهم ببعض، وقد قتل خلق كثير من الجانبين، حمل الشرفاء عليهم جميعا وهزموهم، ثم استولوا على خيلهم وسلاحهم، ونهبوا دواويرهم وعادوا الى مراكش محملين بالغنائم .

ومنذ ذلك الحين ازداد عدد الجنود الذين سلحهم الشرفاء من هذا "النهب" المتكاثر يوما عن يوم، واستهانوا بقدر ملك فاس، فلم يرسلوا إليه أية هدية، لقطع علاقاتهم معه . غضب ملك فاس (69) لذلك، وكتب الى أحد قواده الذي كان في مراكش، يطلب خمس الغنيمة التي أخذوها من الأعراب، وإلا شهر الحرب ضدهم . وبينما كانت المحادثات جارية لتسوية الخلاف مع الأخ الشريف الأكبر، اتفق أن مات ملك فاس وخلفه ابنه (70) . ولما كان ذلك القائد من مريدي الشريف محمد فإنه لم يرد قطع العلاقات معه وكظم غيظه، واعترف للشرفاء بالسيادة على مراكش، على أن يؤدوا خراجا الى ملك فاس . وعندما حل أجل استحقاق الخراج وبعث إليهم الملك يطالبهم به أجابوه بأنه لاشيء له عندهم، وأنهم أحق منه بملك أفريقيا، لكونهم شرفاء وخلفاء لمحمد (عليه السلام) . وأضافوا أنه إذا أراد أن يكون صديقا لهم أحبوه من صميم قلوبهم . لكنه إذا أراد أن يمنعهم من جهاد النصارى فإنه يخون الله ورسوله، وسوف لا تنقصهم القوة ولا الشجاعة للتصدي له .

---

(69) مولاي محمد الوطاسي (هامش)

(70) مولاي أحمد . (هامش)

الفصل 29

توجه الأخ الأصغر الى تارودانت لمحاربة المسيحيين وذكر أشياء أخرى حدثت آنذاك

لما كانت أمور الأخوين (الشريفين) تسير دائما من حسن الى أحسن، انطلق الأخ الأصغر مع بعض المحاربين متوجها الى تارودانت، فاستقبل بها استقبالا حسنا . وبعد أن أخذ قسطا من الراحة لبضعة أيام، لم يفته أن يهتم بشؤون الحرب وإن كان يشتغل عادة بتزيين المدينة ببعض المباني الفخمة . فحشد الفرسان والمشاة، وذهب لشن الغارة على ضواحي رأس أكير . ولما علم المسيحيون بذلك أخذوا معهم حلفاءهم من المغاربة وساروا لملاقاته، ودارت بينهما معركة هزم فيها الأعداء، وقتل وأسر كثير منهم . وعاد المسيحيون الى رأس أكير دون أن تلحق بهم أية خسارة، كما رجع الشريف الى تارودانت غضبان أسفا لما أصابه من خسارة، عازما على أخذ الثأر .

وفي هذه الأثناء لم يركن الأخ الأكبر الى الراحة، بل كان قد استولى على بعض المراكز القريبة من مراكش، بمساعدة رؤساء البربر وبعض القواد من أصدقائه، ساعيا بجد في أن تؤدى له الأعشار، من أجل مقاومة المسيحيين، لأنه لم يجرؤ حتى ذلك الحين على أن يطالب بشيء آخر . وهكذا كان ينمي قواته وسمعته أكثر فأكثر، مصمما على أن يستبد بما ليس له .

كان الشريفان في ذلك العهد قد عزما على اتخاذ لقب ملكي أفريقيا، فاعترف المغاربة "بقداستهما المزيفة وبمكرهما" . حدث ذلك حوالي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وألف، حين انتشر الوباء والمجاعة بحدة كبيرة في المنطقة، حتى إنهم كانوا ينهبون بعضهم بعضا، ويبيع بعضهم بعضا لمسيحيي الثغور بأبخس الأثمان، فكان يسلم مغربي أو مغربية مقابل سلة تين أو عنب دمشقي . كانت المجاعة كبيرة بحيث لم يكن أرخص من الناس، وهلك عدة آلاف من الأشخاص . وما زال يوجد بإسبانيا حتى اليوم عدد كثير من

العبيد الذين اشتروا في ذلك الوقت . دام هذا الوباء سنة كاملة، وأساء الى الشريفين، لأن الشعب كان يعتقد بأن الله ومحمدا (71) أرسلا الوباء بسبب خطايا هذين الجبارين، انتقاما لموت ملك مراكش، ولانتزاع تفاحة ذهبية من صومعة الجامع. بحيث لم يكن يسمع في كل مكان سوى السخط والتهديد . غير أن الشريفين تصرفا بحذر كبير جعلهما يتوفقان في جميع أعمالهما، فلم يدّخرا وسعا ولا نفقة للحصول على المؤن بأثمنة معقولة، وكان أكثر الناس حصولا على الطعام هم أهل مراكش وتارودانت وسائر المناطق الخاضعة للشريفين. وحتى يعالجا جميع الأمور ويرضيا محمدا (عليه السلام) الذي أساآ إليه، فإنهما أمرا بصنع تفاحة من نحاس في نفس حجم التفاحة الذهبية التي أخذاها، وبعد أن موهاها بالذهب أمرا بوضعها في نفس المكان الذي كانت فيه التفاحة المسلوبة. ولترضية السكان أكثر أمرا بعض خدامهما بأن يقبضوا ذات ليلة بأكثر ما يمكن من السرية على اليهودي الذي نزع التفاحة ويشنقوه في شرفات الصومعة . وفي الغد، حينما رأى المغاربة ذلك الشنق قالوا إن هذا بإرادة محمد (عليه السلام)، عقابا لليهودي على ما أقدم عليه من انتزاع التفاحة . وقد سكن ذلك هؤلاء القوم المساكين، وشنق اليهودي وبقي الشريف الذي أخذ التفاحة واستغنى من ذهبها مستقرا على العرش

---

(71) يجهل المؤلف، وهو متشبع بالتثليث، أن المسلمين موحدون مومنون بأنه لافاعل إلا الله وحده، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم مجرد رسول لايملك لنفسه نفعا ولا ضررا . وقد تكرر هذا القول الفاسد خلال الكتاب فلم نر فائدة في متابعة تفنيده لوضوح فكرة التوحيد في الإسلام وتنزيه الله تعالى عن الشريك .

الفصل 30

غضب ملك فاس من تلقب الشريفين بملكي أفريقيا

لما رأى ملك فاس أن قوات الشريفين تزداد باطراد، وأنهما يأخذان بجرأة لقب ملكي أفريقيا، شهر عليهما الحرب بصفتهما مغتصبين لملك الغير .

وبعد أن حشد جيشا عرمرما من الفرسان والمشاة، زحف لمحاصرة مدينة مراكش، وأقام محلته حواليها، ثم أخذ يقصفها بقطعتين من المدفعية، من جهة باب سيدي أبي العباس السبتي . وفي هذه الأثناء، أقبل الأخ الأصغر، قادما من تارودانت، في ثلاثة آلاف فارس، ودخل الى المدينة دون أن يستطيع أهل فاس منعه من ذلك . وبعد أن استقر في المدينة، حلف يمينا مغلظة بأنه لن يبقى سجينا ولو يوما واحدا، ثم خرج مع الجنود الذين جاء بهم والذين كانوا عند أخيه، وقام بهجوم على معسكر أعدائه، وقاتلهم بحماس كبير حتى أرغمهم على الانسحاب الى محلة الملك . ثم ترك المعسكر مليئا بالقتلى من الرجال والخيل، وعاد إلى المدينة، سائقا بعض الأسرى الذين غنمهم . وفي نفس اليوم علم ملك فاس بأن أخاه (72) ثار ضده محاولا أن يستولي على فاس الجديد بمساعدة بعض السكان . وفي الحين رفع الحصار الذي أقامه أمام مراكش ورجع الى فاس جادا في قطع المراحل . وبذلك زاد في شهرة الشريفين، الذين اقتفيا أثر عدوهما حتى إقليم هسكورة كقائدين شجاعين حكيمين، وألحقا أضرارا كثيرة بمؤخرة جيش ملك فاس . ولدى مرورهما بتادلا جبيا خراج الإقليم بكامله، وكان معظمه خاضعا لعدوهما الذي استطاع أن يخمد الثورة بمجرد وصوله الى فاس . ثم عاد الى خطته الرامية الى محاصرة مراكش، لأنه كان غاضبا على الشريفين، مصمما على القضاء عليهما .

---

(72) هو مولاي موسى . (هامش)

الفصل 31

ذكر ما جرى للوبّي بّاريكا وهو أسير في أفريقيا

لما أصبح الشريفان سيدين في مراكش، أخضعا إلى سيطرتهما المسيحيين الذين كان ابن شموط قد أسرهم، عندما قتل نونيو فيرناند دي أطايدي . وكان لوبي باريكا أحد أسراهم، فأقبل الناس من جميع الأنحاء ليروه بسبب ما حقق من أعمال باهرة في أفريقيا . وكان من جملة الذين جاؤوا ليروه مغربي (73) دخل الى اصطبل الشريف، حيث كان لوبي باريكا سجينا مغلول الرجلين، فدنا منه ووضع يده تحت دقنه، ثم قال له باستهزاء : "أنت إذن ذلك المسيحي الذي تحكى عنه تلك الغرائب كلها، أتمنى أن لو كنت حرا حتى أنتف شعر لحيتك ! لم يطق باريكا أن يتحمل وقاحة ذلك البربري، فتناول عصا كانت بقربه، وأهوى بها على رأسه في ضربة شديدة فقضى عليه، وكاد يفعل مثل ذلك بمغربيين آخرين لو لم يلوذا بالفرار . ولما أخبر الشريف بجرأة هذا الجبار أمر بإحضاره بين يديه، وبمجرد ما رآه سأله لماذا ذهبت به الجرأة الى أن يصرع ذلك المغربي . فأجاب بّاريكا بأن المغربي عامله بوقاحة كبيرة حتى إنه أراد أن ينتف شعر لحيته وهو مقيد، وذلك مالا يستطيع أن يقدم عليه لو كان حرا . أمر الشريف حينئذ بأن يجلد على كتفيه، حتى مزق قميصه على لحمه بدلا من أن ينوه بإقدام مسيحي على هذا القدر من الشجاعة، وقد تحمل بّاريكا آلامه بجلد وهو على هذه الحال، ولم يسمع منه أي تظلم من شراسة معذبه . وبعد ذلك بقليل عندما شفي من ضرباته، أرسل الى ملك البرتغال القميص وهو مايزال

---

(73) هو سيدي الغالي . (هامش)

ملطخا بالدم، طالبا منه أن يفتديه . فأوفد الملك في الحين كبير أسفي (74) الذي أدى الفدية وخلصه من أيدي أولئك البرابرة . لكن، لما عاد بّاريكا الى أسفي، وبينما هو يشن غارة على بعض المغاربة الذين كانوا يجتاحون البلاد، رماه شاب (75) بحربة شقت حنجرته . وبعد مدة يسيرة قتل مغاربة من أهل فاس ابن شموط بنفس الطريقة، ولما حمل جثمانه إلى زوجته (76) تركت نفسها تموت جوعا وحسرة : ووضعا معا في قبر واحد . هكذا قضى هؤلاء القواد الذين كانوا يتمتعون بكثير من التقدير في أفريقيا، ولقوا حتفهم حوالي سنة أربع وعشرين وخمسمائة وألف بالكيفية التي ذكرتها .

الفصل 32

عزم الشريفين بعد عودتهما الى مراكش على اجتياح أراضي أسفي

لما عاد الشريفان من مطاردة المريني، وحصلا على خراج وافر، ازدادت شهرتهما بين البربر، الى درجة أن عددا من الأعراب دخلوا في طاعتهما . ثم أخذا قسطا من الراحة، وانطلق الأخ الاصغر للقيام بجولة في مملكة سوس، ومراقبة الأعمال الجارية بتارودانت، حيث أقام بضعة أيام . وبعد ذلك رجع الى مراكش بالجنود الذين استنفرهم مؤخرا، فوجد أخاه الأكبر بصدد شن غارات مع معظم قواته . فالتحق به على الفور، وبعد أن رحب كل

---

(74) هو فرانسو مينيديس (هامش)

(75) هو ازكّاع (هامش)

(76) إطّو (هامش) .

منهما بالآخر توجها نحو أسفي، عازمين على أن يلحقا أكثر ما يمكن من الضرر بالمسيحيين وحلفائهم المغاربة . وفي أثناء مسيرهما، جبيا الأعشار التي كان الأعراب يؤدونها إليهما عادة لتموين الجهاد، حتى أصبحا على مرأى من أسفي، حيث كان قد بلغ نبأ قدومهما .

وبعد أن أعطى غرسية دي ميلو، الذي كان يحكم المدينة آنذاك (77)، أوامره الى المشاة والفرسان المسيحيين ليتأهبوا للقتال، جمع كل الأعراب الحلفاء، وبين لهم بأن طغيان الشريفين يزداد يوما عن يوم، وأنه لابد من الانتصار عليهما أو التخلي عن البلاد في ذلة وصغار . ودون أن ينتظر الحصار خرج من المدينة قاصدا الشريفين وحمل عليهما . كان العراك شديدا في ذلك اللقاء حتى غدت في النهاية معركة عنيفة جدا، تفوق فيها الأعداء الذين كان جنودهم أكثر عددا على أصحابنا، فصدوهم حتى أبواب أسفي، قاتلين وآسرين عددا من المسيحيين وحلفائهم المغاربة . وكان من جملة الأسرى ابن انطونيو دي ميلو، ولوبي بيخوطو، وفرانسوا ماتشادو، وعدد كثير من النبلاء، فأرسلهم مقيدين الى حصن تيوت (78)، حيث بقوا مصفدين في الأغلال الى عهدنا هذا، لكن الأغلال التي كان يحملها كل واحد منهم، والتي وجدتهم فيها، تزن أكثر من خمسين رطلا . وإثر هذا الانتصار، عاد الشريفان عبر إقليم دكالة والكمبرانس (كذا)، وأدخلا في طاعتهما عددا من المغاربة، ثم سارا في طريق مراكش حيث مكثا بضعة أيام، وقاما بأعمالهما "التعسفية " تحت ستار تحقيق العدالة .

---

(77) سنة 1525 . (هامش)

(78) في مملكة سوس . (هامش)

الفصل 33

خروج ملك فاس لمحاربة الشريفين عندما علم بخبر انتصارهما على المسيحيين

لما عاد ملك فاس من حصار مراكش، لم يستطع أن يكتم عداوته للشريفين، لذلك حشد جيشه ورجع إلى مراكش . ولما علم الشريفان بهذا النبأ عبآ جنودهما وخرجا من المدينة، قاطعين مراحل كبيرة حتى وصلا الى مشرع (79) بوادي العبيد، كان الملك سيمر به . فاجتازا هذا المشرع في الحين بقصد المناومة أو القتال لصالحهما . كان مع ملك فاس عشرون ألف فارس، وألفان من رماة البنادق والنبال، واثنتا عشرة قطعة من المدفعية، بينما كان جيش الشريفين مؤلفا من اثني عشر ألف فارس، ومائتين من رماة البنادق . ولما وصل الملك، أقام محلته قبالة محلة الشريفين، بحيث لم يعد يفصل بينهما سوى النهر، ومكثوا هناك يومين، ينظر بعضهم الى البعض، لا يتبادلون سوى طلقات من بندقيات، وكل واحد يترقب من سيجتاز الأول لكي يحمل عليه، لان المر كان صعبا جدا، والضفاف مرتفعة كذلك .

عندما رأى الملك أن الشريفين لا يقطعان النهر، وانهما لم يأتيا الا لمنعه من المرور، استشار قواده، فقسم جنوده الى ثلاث كتائب، ثم اجتاز . كان على رأس الكتيبة الأولى مع رماة البنادق ابنه مولاي محمد، ومولاي عبد الله الزغل، الذي كان ملكا على غرناطة ثم بعد أن سلمها الى الملكين الكاثوليكيين دم فيرديناند وإليزابيت، عبر الى بلاد البربر ملتجئا عند ملك فاس . وكان على رأس الكتيبة الثانية صهره مولاي ادريس، والقائد العطار. أما هو فكان على رأس الكتيبة الثالثة مع عدد من القواد والشيوخ وغيرهم من الأمراء .

---

(79) بوعقبة . وقد صحف في الهامش فكتب : "بوعكوبة" .

عبر المشرع أولا ابن الملك والزغل مع كتيبتهما، فصعدا الضفة الأخرى للنهر، ثم توقفا في السهل، جاعلين في المقدمة بعض الرماة لأجل التصدي للأعداء، الى أن اجتاز الباقون، غير ظانين أن الشريفين يريدان المخاطرة بالمعركة مهما كانت عزيمتهما . وكان الشريفان قد قسما جنودهما الى كتيبتين، إحداهما برآسة ملك سوس، مع رماة البنادق في الطليعة، والأخرى بقيادة ملك مراكش . لكنهما لما شاهدا أن الطليعة قد مرت، وأن العدو منشغل بتسلق الشاطئ، أعطيا الاشارة وداهما أعداءهما بشدة حتى قتلا مولاي محمدا والزغل وقوادا آخرين كانوا في المقدمة، فأحدث ذلك اختلالا شديدا في صفوف جيش ملك فاس، أدى بجلهم الى التقهقر،لكن الشريفين كانا يحملان عليهم بعنف كبير، الى درجة أن الوادي سرعان ما امتلأ بالرجال والخيل، سواء منهم الفارون أو الراغبون في العبور لإغاثة أصحابهم . ولما عاين ملك فاس هذا الاضطراب، ولم يكن قد عبر بعدُ المشرع، وأدرك أن لا وسيلة لإنقاذ جنوده، ترك مدفعيته وسائر جيشه، وقفل راجعا الى فاس عبر تادلا (80) .

وعقب هذا الانتصار الذي جعل الشريفين سادة باقي البلاد كلها، عادا الى مراكش، محملين بالغنائم، واستقبلا فيها بفرح عظيم من جميع السكان، فمكثا بعض الوقت دون قتال .

---

(80) تذكر المصادر العربية وقعة مشرع بوعقبة، وتقول إنها أسفرت عن صلح كتبه الشيخ عبد الواحد الونشريسي، غير أنه يظن أن المواجهة بين الشرفاء والوطاسيين في مشرع بوعقبة وغيره حدثت أكثر من مرة . انظر كتابنا الحركة الفكرية، 45:1، والهامش 7

الفصل 34

الشريفان يكونان جيشا قويا، ويتوجهان الى تافيلالت

لما رأى الشريفان أنهما على وشك امتلاك قسم من أفريقيا، لم يريدا إضاعة الفرصة التي أتاحها لهما القدر . فبعد أن اجتمعا بمراكش، قررا الذهاب الى تافيلالت، وهي إحدى مدن نوميديا كانت تحت حكم مغربي يسمى الشيخ أمان . لذلك قطعا جبل الأطلس بجيشهما، وحاصراها وقصفاها بالمدفعية التي استوليا عليها من يد ملك فاس . وبعد هجومات متعددة، يئس الشيخ من أي مدد خارجي، وقرر أن يضع المدينة تحت سلطتهما، شريطة أن يعطياه مكانا يستطيع أن يعيش فيه هو وأسرته . وفي الحين عين الشريفان عاملا لهذه المدينة وعادا الى مراكش، آخذين معهما الشيخ . إن هذا الانتصار جعل من الشريفين سيدين لقسم من المنطقة، وحمل جل برابرة الأطلس على الرضوخ لسيطرتهما .

وفي هذه الأثناء، تظاهر ملك فاس بأنه يريد أن يخرج مرة أخرى الى الشريفين، لكنه اكتفى بإرسال بعض المقاتلين الى الحدود، بقيادة العطار ومولاي إدريس، لجباية الخراج من سكان جبل الأطلس، فاعترض طريقهما ملك سوس وحاربهما الى أن أرغمهما على الرجوع مدحورين، ثم التحق بأخيه ليتسليا معا، ويجبيا خراج البلاد كلها. وبعد أن تركا حامية بإقليم تادلا، رجعا معا الى مراكش، حيث استراحا بضعة أيام . ثم سار ملك سوس في طريق تارودانت، فاستقبل فيها بحماس كبير من طرف أبنائه ومن عامة الناس. وهناك أتم المباني الفخمة التي كان قد شرع في تشييدها، وبعث قواده لاجتياح أقاليم نوميديا وليبيا المجاورة، وتحكيم السيف في رقاب كل من وقف ضد تحقيق أهدافه . فاستولى بهذه الوسيلة على عدد من أهل إفريقيا ومن الأعراب، ولم تبق خارجة عن طاعته وطاعة أخيه سوى الثغور التي كانت بأيدي المسيحيين، وكانوا عادة يشنون عليها الغارات .

الفصل 35

محاصرة الشريف الأصغر لمدينة سانت كروا في رأس أكَير واحتلاله لها

بعد جميع الانتصارات التي حققها الشريفان عملا حتى سنة ست وثلاثين وخمسمائة وألف على أن يقوم أحدهما بتسيير مدينة مراكش ومجاملة جيرانه من الأعراب، والآخر بتعمير مدينة تارودانت وتحصينها، على أن يقوما معا بشن الغارات على المعاقل التي كانت بيد المسيحيين . لكنهما، اعتبارا للكمية العظيمة من السكر التي كانت عندهما، وضرورة اتخاذ ميناء مضمون يستطيع الأجانب أن يأتوا إليه بحرية قصد شرائه، عزما على وضع الحصار أمام مدينة سانت كروا . واستعدادا لهذه العملية، حشدا في تارودانت ما يزيد عن خمسين ألف رجل، سواء من الفرسان أو المشاة، مع كمية وافرة من المؤن والمدد، وإن كانت الضرورة تقتضي أن يقود الشريف الأصغر الحملة بنفسه، لكون الحرب تدور في ولايته، إلا أنه نزولا عند رأي أخيه، أسند القيادة الى ابنه (81) وعين كتائب له قائدا إسلاميا جنويا (82) شجاعا يحظى منه بتقدير خاص، وبعد ذلك انطلق الجنود من تارودانت، ووصلوا في اليوم الثالث أمام مدينة سانت كروا، التي حاصروها من جهة البر، محدثين ضجيجا كبيرا، وواضعين محلتهم بكيفية تجعل مدفعية المدينة لاتستطيع أن تلحق بهم أي ضرر . لكن الاسلامي عندما لاحظ أنه لايتقدم بتاتا، ذهب لاستطلاع الجبل الملتصق بالمدينة، فاكتشف أن المكان صالح لخطته، وأمر بوضع شرفات في الأعلى، حصنها بخندق، وأقام فيها حرسا قويا، وآلات للقصف تزعج المحاصرين، لاسيما وأنه لم يكن يمر أحد في الأزقة دون أن يراه العدو.

---

(81) مولاي محمد الحران (هامش)

(82) مومن (هامش) .

ولما أخبر الشريف بالوضعية التي أصبح عليها المسيحيون، قرر أن يحضر الحصار بنفسه، فاستقبل بإطلاق عيارات من جميع البندقيات، وبعد أن وقف على المراكز ذكر جنوده بالاضرار التي ألحقها بهم المسيحيون، وأنه لابد من الاستيلاء على المدينة ما داموا يحاصرونهم فيها، وأنهم باحتلال مدينة مهمة كهذه سيؤمنون بلادهم وأزواجهم وأولادهم، ويؤدون خدمة جليلة الى محمد (عليه السلام) . أذكت هذه الكلمات حماس المغاربة، فضيقوا الخنادق على المحاصرين . لكن الشيء الذي أضر أكثر بالمسيحيين، هو أن جنديا منهم ذهب ليأخذ برسيل بارود من مخزن في السور كان مليئا بهذه البراميل، فاشتغلت فيه النار بحيث إن المخزن وجانب السور الذي كان مركزا فيه انفجرا وطارا مع الجندي في الهواء .

لما رأى الأعداء هذه الثلمة في السور أسرعوا اليها، وصعدوا عبر الأنقاض ودخلوا الى المدينة . وقد احترق يوحنا كاراڤال ونبلاء شجعان آخرون كانوا يحرسون ذلك المكان، كان هجوم المغاربة سريعا لم يتمكن معه المحاصرون من الدفاع عن الثلمة مدة طويلة، وإن كان بعض المسيحيين المستميتين قد صمدوا في المعركة، فإن الأعداء كاثروهم بشدة قوية، حتى هلك معظم حراس السور . ولما رأى دم كوتييري دي مونروا، وأبناؤه ونبلاء آخرون أن المغاربة أقوى منهم في المدينة، أرادوا أن يتحصنوا في أحد بروج الحصن، فدافعوا فيه عن أنفسهم دفاع اليائس، لكنهم لم يعودوا يطيقون تحمل المدفعية، وأقنعهم نائب قائد جيش العدو بالاستسلام فاستسلموا له، وغنم المغاربة بهذا الفتح أموالا طائلة، وكثيرا من المدفعية، والأسلحة والذخيرة الحربية التي كانوا يرغبون فيها أكثر من غيرها . كما أسروا عددا كثيرا من الشخصيات من بينهم دم لويس، ومانسية ابنة القائد مونروا . وبعد ذلك أصلح الشريف السور، وجهز المدينة، وترك بها قائدا مع أربعمائة من رماة البنادق، ثم عاد الى تارودانت، حيث استقبل بما يستحقه نجاح باهر كهذا الانتصار .

الفصل 36

الشريف الأصغر يكتب رسالة الى أخيه ملك مراكش إثر وصوله الى تارودانت، ويبعث إليه بهدية

كان المغاربة الذين حضروا حصار رأس أكَير وأهل البلاد يعتقدون أن الشريف إنما أحرز على هذا الانتصار بفضل كرامته لا بسبب قواته . وكانوا مومنين بهذه الفكرة لاعتقادهم أن النار التي دمرت السور المذكور، جاءت تكريما له، وبأمر من محمد (عليه السلام) (83) الأمر الذي من أجله نال الشريف تقدير هذا الشعب . وبعد أن أمر بإسعاف الجرحى، سواء منهم المسلمون والمسيحيون (84)، ووقف على قيمة الغنيمة، ووزع قسطا منها على قواده وفرسانه، كتب رسالة الى أخيه يقول له فيها إن الله ورسوله أنعما عليه بانتصار من شأنه أن يؤمن جميع ولاياته، ويكون بداية حسنة للتفاوض في شأن السكر وغيره من بضائع ممالكه، وأرسل اليه كذلك بأربعمائة أسير، من بينهم دم كَوتييري دي مونروا، وبعض قطع المدفعية .

ومن جهة أخرى، أعجبت ابنة هذا البطل (المسيحي) الشريف كثيرا فأدخلها الى قصره، وهو يلاطفها ويطلب منها أن تسلم ليتزوج منها . لكنها أبت صامدة بعض الوقت بشجاعة، وكان صمودها لسوء حظها يزيد في غضب الشريف، بحيث إن حب هذا الجبار استحال الى غيظ، فسجنها في زنزنات

---

(83) مرة أخرى يقيس المؤلف على شركه بالله كمسيحي يؤله عيسى، جاهلا توحيد الاسلام .

(84) يمر المؤلف على هذه الفضيلة الاسلامية العظمى مرور «اللئام» دون أن يمنعه ذلك من أن ينبز الشريف مرارا وتكرارا بالطاغية والخائن والماكر . (إنها لاتعمى الابصار ولكن تَعمَى القلوب التي في الصدور) .

لايزورها فيها أحد، وهددها بالقتل . وفي هذه الأثناء جاء راهب مكلف من قبل الملك دم يوحنا بافتداء الأسرى، وقال أيضا إنه تلقى أمرا من صاحبة السمو دنيا كاتارينة بأداء فدية مانسية، إن قبل الشريف . وقد افتدى ذلك الراهب عدة نساء وأطفال كانوا معرضين أكثر لاعتناق الاسلام . لكن مانسية، وقد تبين لها أن الراهب لا يعمل أي شيء مما يقتضيه الخطر الذي هي فيه، طلبت منه أن يفتكها، فأجاب بأنه ليس بالإمكان ترك مائة شخص لفائدة واحدة، لأن الشريف يطالب بفدية باهظة بالنسبة لها . أوقع هذا الجواب الآنسة المسكينة في حالة يأس أدت بها إلى أن أسلمت، فسر الشريف بذلك سرورا عظيما واتخذها في نفس الحين زوجة له، وكان حبه لها فعلا قويا حتى إنه كاد لا يحب امرأة غيرها . لذلك ألبسها لباس الإسبانيات، متقلدة السيف، وجعلها تتناول الطعام على مائدة عالية، على غرار الملوك المسيحيين، الشيء الذي كان مخالفا لدينه (85) وقد حملت في هذه الأثناء وأجهضت فماتت من جراء ذلك . كان الخبر شاع بأن شريكاتها سعين في تقصير أجلها . وقد أكدت لي جواريها بأنها نادتهن عند احتضارها، وقالت لهن إنها تموت مسيحية، متشبثة بدين أبويها .

تألم الشريف لهذه الوفاة حتى كاد يفقد رشده، ومكث داخل قصره أكثر من أربعة أشهر، دون أن تتمكن تعازي أولاده وخدامه من إيقاف لوعته . يقال إنه كان يشتكي الى مغربية (86) كانت سبب غرامه، يرسلها مرتين كل يوم لتزور قبر مانسية حاملة إليه رسائل وطعاما . وكانت هذه المغربية تقول له إن الميتة تبتهج بعمله وتجيبها بلطف بالغ، فكان يسر بذلك كثيرا، إذ يعتقد هؤلاء البرابرة أن الموتى يستطيعون الكلام والأكل (87) .

---

(85) جهل بالإسلام وتحامل على الشريف المسلم .

(86) زهرة (هامش)

(87) بهتان عظيم !

وأخيرا فإن هذه النزوة طالت عند الشريف إلى أن وقعت له نزاعات مع أخيه.

الفصل 37

الخلافات بين الأخوين الشريفين

إن الانتصار الذي أحرزه الشريف الأصغر باحتلال رأس أگير، لم يطرد فحسب المسيحيين من المملكة، ولكنه أفسد ما بينه وبين أخيه . ذلك أن هذا الأخير حسده على ماأدرك من شرف، إضافة الى أن بعض المتملقين أقنعوه بأن أخاه الأصغر لم ينصف في توزيع الغنيمة، واحتجز ابنة (88) القائد التي كانت جميلة جدا، وأنه لم يتصرف كنائب للملك في ذلك فحسب بل في جميع الأمور . فكتب له رسالة مليئة بالتأنيب مطالبا إياه بإرسال خمس غنائم الأعداء اليه مع أولاد القائد، وأنه إذا اعتقد بأنه قام بواجبه على الوجه الأكمل، فليأت إليه شخصيا .

استنكر الشريف الأصغر استنكارا كبيرا أن يراسله أخوه بهذا القدر من الجفاء . وأجابه بأنه لم يخبر كما ينبغي، وأن ما صدر منه ليس اعترافا بخدماته، وأنه قد وفاه حقه من الخمس، لذلك فإنه لن يبعث اليه بالجارية التي يطالب بها، لأنها عنده أعز شيء في الغنيمة . وأضاف بأنه كافأ الجنود الذين خاطروا بأرواحهم ليحرزوا على النصر، وأنه علاوة على ذلك مشتغل بشؤون الدولة لا يمكنه أن يذهب اليه شخصيا . وأدلى بعد ذلك

---

(88) مانسية (هامش) .

بأوضح تصريح قائلا له : إنه لا يعرف لماذا يريد أن ينتزع منه ماقام بفتحه، وإن الأولى والأفضل أن يقتسما ما ربحاه معا لأنه قد تعرض لأعظم أخطار الحرب من أجل مصالحهما المشتركة . وطلب منه فضلا عن ذلك، أن يعين ابنه مولاي محمد الحران ولي عهد له حسبما اتفقا عليه، وأن هذا شيء كان أبوهما قد أمرهما به وهو عين الصواب . اغتاظ الشريف الأكبر من هذا الجواب فأرسل (89) يجبي الخراج الذي كانت بعض القبائل تؤديه الى أخيه، الأمر الذي أفسد الجو بينهما تماما .

الفصل 38

محاولة أحد الشيوخ الصلح بين الشريفين وذكر ما وقع بعد ذلك

لما علم أحد الشيوخ (90) بالنزاع القائم بين الشريفين، وكان يتمتع بسمعة كبيرة بين المسلمين، حاول أن يصلح بينهما . فنظم لهذا الغرض مقابلة وقام بمساع أدت، الى أن التقيا معا على ضفة واد العزين (كذا) الذي ينبع في الأطلس ويقع على نصف المسافة تقريبا من تارودانت، ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس . فجعل الشيخ ينتقل بين محلة هذا ومحلة ذاك، ثم أفرد الأخوين عن جنودهما وساقهما الى وسط طريق كبيرة مكشوفة، وطلب منهما أن يتحدثا الى بعضهما . وحينما أصبحا على بعد يسير، نزلا

---

(89) سنة 1537 (هامش)

(90) سيدي رحال [وقد كتب في هامش الترجمة الفرنسية : "كاسي"]

عن فرسهما، وتعانقا، لكن الأصغر انحنى أكثر من الأكبر بقليل، فهم هذا الأخير بإسقاطه على الأرض، إلا أن الأصغر الذي كان أقوى منه صرعه، وصاح به قائلا إنه يعلم خيانته، وإنه لن يقبض عليه . فرد عليه الأكبر بأنه سيقضي على عجرفته . ثم امتطى كل منهما صهوة جواده، دون أن يسترسل في الحديث، عائدا الى مملكته .

لما وصل الأكبر الى مراكش، أمر ابنه مولاي زيدان بأن يذهب لجباية الخراج الذي كان البربر يؤدونه لأخيه . فسارع ملك سوس لاعتراض طريقه بجنود يقودهم أحد أبناء إسلامي جنوي، لكن مولاي زيدان هزمهم . والتجأ ابن الجنوي مع بعض الأعيان الى حصن فحاصرهم زيدان فيه، ولم يسمح لهم بالخروج إلا عن طريق التفاوض . وبعد مدة يسيرة جمع ملك سوس الجنود المهزومين وآخرين كانوا معه، وأرسلهم بقيادة حسن لجباية الخراج : لكن ابن ملك مراكش (91) غلبهم وعاد لحينه بعد ذلك .

ظن ملك مراكش أن قوات أخيه قد تضاءلت وتلاشت، فأمر جميع المحاربين بأن يتأهبوا لطرد أخيه خارج المملكة . واستنفر ملك سوس من جهته القواد والشيوخ من بين رعاياه وأصدقائه الآخرين . وبين لهم الضرر اللاحق به من أخيه الذي يشهر السلاح ضده بدون مبرر، وأنه حاول ما استطاع وضع حد للنزاع، وان ما يؤلمه أكثر هو أن يرى الشعب يتضرر من خصامهما . ماكاد الشريف ينتهي من هذا الكلام حتى أقسموا أنهم سيساعدونه في خطته الرامية الى التصدي لأخيه . فشكرهم في الحين، ومسح بيده على لحيته، مؤكدا لهم بأن النصر محقق إن أنجزوا ما وعدوه به، وسيسوق أخاه أسيرا الى تارودانت .

---

(91) مولاي القائد (هامش)

الفصل 39

إعلان الشريفين الحرب بينهما
وتدخل الشيوخ لإصلاح ذات البين

لما عزم الشريفان على الحرب، جمع ملك مراكش في الحين كل قواته ليهجم على أخيه وينزع منه الإمارة والحياة . فاستنفر في مدة وجيزة أكثر من اثني عشر ألف فارس، وبعض المشاة، وتوجه بهم نحو تارودانت . أما الأخ الآخر الذي لم يكن صغيرا إلا سنا لأنه كان يفوق أخاه الأكبر شجاعة وروية وعزما الى غير ذلك من الخصال، فإنه تكهن بما سيقوم به أخوه، وتأكد من ذلك بواسطة جواسيسه، وجمع أيضا جنوده، وكانوا أزيد من سبعة آلاف فارس، جعلهم تحت قيادة ابنه الحران . ولم يغامر فقط بهذا الجيش المليء بجنود محنكين لحماية تارودانت، ولكنه سار في طريق مراكش لملاقاة أخيه : فصعد بسرعة جبل الأطلس، وهناك لقي أخاه على مجاري المياه المتدفقة نحو جانب مراكش، فأقاما محلتيهما . وفي هذه الأثناء وصل عدة شيوخ محاولين إصلاح ذات البين بين الاخوين . فصوروا لهما الخراب الذي يوشكان أن يتسببا فيه للمغرب بأجمعه بتوجيه أسلحتهما ضد نفسهما، تلك الأسلحة التي كانا قد استعملاها بنجاح ضد المسيحيين . وبينوا لهما عظم الخطيئة التي يرتكبانها في حق الله ورسوله، وأن الكل سيتهمهما بالطموح . وأخيرا أقنعوا الأخ الأكبر، وكان أكثر تصلبا، بالذهاب لمحاصرة أسفي، وأن الجميع سيكون معه في هذه العملية، وسيتلقى كل أنواع المعونة من نبيهم . فأبرم الشريفان إذ ذاك شبه اتفاق وعاد كل واحد منهما مع جنده إلى مملكته. وبمجرد ما وصل الأكبر الى مراكش، أمر الشيوخ بالدعوة إلى الجهاد، وبذلك حشد ما يزيد عن مائة ألف مغربي .

الفصل 40

محاصرة الشريف ملك مراكش لأسفي

انطلق الشريف الأكبر من مراكش (92) على رأس جيش يضم أكثر من مائة الف رجل، حاملا معه كل ما يلزم للحصار، وسار في طريق أسفي، عازما على احتلاله أو عدم الرجوع عنه أصلا . ولما صار على بعد نصف فرسخ منه عسكر قرب عين تسمى أغبال (93)، وأخذ يرسل بعض الكتائب الى أبواب المدينة ليحدثوا بها أضرارا ويمنعوا الخروج منها . وفي هذه الأثناء، حفر الاسلاميون والاتراك خندقا يمتد الى الباب الواقع قرب القصبة المطلة على الشرق . وهناك بنوا أكواخهم بأغصان الأشجار والطين، ونصبوا أخبيتهم، وأخذوا يقصفون المدينة بمدفعيتهم .

ومن الجانب الآخر، فإن المسيحيين، وان كان ينقصهم الرجال والذخيرة، لم يفتهم أن يصمدوا بشجاعة . لكن حاكم المدينة، لما رأى أنهم لا يستطيعون أن يقاوموا طويلا، أرسل على جناح السرعة سفينة كاراقيل الى صاحب السمو دم يوحنا، يخبره بالحصار وبضرورة إرسال المدد، وسلح أيضا بعض النساء، وأمرهن بالذهاب والإياب حول السور، حتى إذا رآهن الاعداء ظنوا أنهم لا ينقصهم الرجال لأنهم كانوا قد اقتربوا كثيرا من المدينة وصوبوا لها قطعة من المدفعية كانوا يزعجونها بها إزعاجا كبيرا، لكن في الأخير قام مدفعي مسيحي وصوب مدفعه بدقة نحو فوهة مدفع المغاربة، فأصابه وحطمه وقتل الكثير منهم . أثار ذلك غضب الشريف فأمر باحضار

---

(92) سنة 1539 (هامش)

(93) في الترجمة الفرنسية : "ريبازال"

الوقايات النقالة لنقب السور . واسرع المغاربة على الفور وهم يصرخون بأعلى أصواتهم الى عملية النقب، وأخذ المحاصرون يرمونهم بالقطران، والبارود، والنار، بحيث لم يمر وقت قصير حتى كانت الوقايات والمغاربة الذين تحتها قد أحرقوا. وانسحب الشريف ذلك اليوم غضبان أسفا من خسارته . وفي الاثناء وصل الى الميناء بعض السفن الشراعية، كانت قد خرجت من أزمور حاملة بعض المحاربين في طريقهم لاجتياح بلاد المغاربة بقيادة يهودي (94) من أزمور، كان شجاعا وحذرا .

ولما وصل الى الميناء، ورأى الرايات فوق السور، قال لرجاله إن المدينة قد تكون محاصرة، فأنزلهم الى البر، ودخل الى أسفي، وكان ذلك أول مدد توصلت به المدينة . وسر به الحاكم والجنود كثيرا، إذ كانوا يعرفون بسالته . وما كاد هذا اليهودي المقدام يدخل الى المدينة، حتى عمل على استطلاع خنادق الأعداء، ولما لم يكن بإمكانه التطلع اليها من أعلى السور، فإنه أبى إلا أن يذهب اليها بنفسه . وأمر بفتح باب الحصن (95) بعد أن نصب فوقة أربع قطع من المدفعية، واختار مائة رجل من صناديد الجنود بأسلحتهم وبأيديهم قنابل نارية . خرج بهدوء، ففاجأ المغاربة، وأمر بأن تقذف عدة قنابل على أكواخهم المبنية بالأغصان، حتى أحرقت وأحرق معها من المغاربة كثيرون، وقتل اليهودي أو جنوده الناجين الهاربين، وهلك في هذه الوقعة عدد كثير .

ولما علم الشريف بالخبر، خرج من خبائه مصحوبا بعدد من المغاربة، وبعد أن تحقق من قلة عدد المسيحيين، أمر بقطع خط الرجعة عليهم، لكن عبثا، لأن اليهودي لما رأى أن قوة الأعداء كلها ستنصب عليه، تراجع وهو

---

(94) هو صاموبل ڤالانسيانو . (هامش)

(95) كان يسمى باب الرهبان . (هامش)

يحارب بمساعدة الذين كانوا فوق السور، ولما اقتربوا من الباب، جعلت المدفعية ترمي المغاربة . وانسحب المسيحيون واليهودي الى أسفي، دون أن يفقدوا رجلا واحدا . ولما رأى الشريف بسالة المسيحيين، وخسارته، والمدة التي قضاها في قصف المدينة، جمع أهل مجلسه، وقرر العدول عن مشروعه، لأن فصل الشتاء قريب، على أن يعود في الربيع بقوة أكثر . ورفع الحصار بعد أن دام ستة أشهر . وأمر الملك دم يوحنا، بعد ذلك بقليل، بهدم أسفي، لكن الشريف أمر بترميمها، وأقام بها حامية، فأصبحت منذ ذلك العهد خاضعة لسيطرته .

الفصل 41

نقض الشريف الأكبر السلم مع أخيه الأصغر الذي هزم جنوده، وساقه أسيرا

لما رجع ملك مراكش من حصار أسفي دون أن يحرز على النجاح الذي تمناه، اشتعل في قلبه من جديد الحقد الذي كان يكنه لأخيه، فصوب سلاحه ضده . ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى جمع جنوده بمراكش، وسار نحو ملك سوس مصحوبا بأولاده وعدة شخصيات مهمة . ولما علم أخوه بالخبر، عزم على ملاقاته، فقطع أشواطا كبيرة مخترقا جبل الأطلس، ووقف ينتظره في مكان تنبع فيه المياه المنحدرة في اتجاه الشمال، أي نحو مراكش، على المحجة المؤدية من هذه المدينة الى تارودانت . وهناك أقام محلته بجانب نهر يسمى إسير، وأرسل قائدا إسلاميا (96) مع مائتي رجل وبعض قطع المدفعية

---

(96) هو محمد . (هامش)

لحراسة الممر وتحصينه . إذ ذاك أقبل جنود مراكش بمدفعيتهم، وتحصنوا بأسرع ما يمكن بمساعدة بعض البربر . وفي الحين تقدم ملك سوس الى الأمام مع سبعة آلاف فارس، وأقام محلته في سهل عند قدم الجبل، منتظرا أخاه .

ولما اطلع ملك مراكش على ذلك بواسطة إسلامي انضم اليه، قسم جيشه الى أربع كتائب، وأمر ابنه الثاني مولاي نزار أن يتقدم بأربعة آلاف فارس مع الطليعة على أن يتبعه هو بنفس العدد من الفرسان، مصحوبا بابن آخر له (97) ويسير في المؤخرة ابنه البكر مولاي زيدان مع أربعة آلاف فارس، ثم ياتي المتاع بكامله، بقيادة ابن آخر له (98) مع ألفي فارس . ولما لاحظ ملك سوس أن الأعداء تركوا المحجة ليأخذوا طريقا أخرى، أقام بعض القواد لحراسة المكان الذي عسكر فيه، وأمر ابنه محمد الحران أن يذهب في ثلاثة آلاف فارس لملاقاتهم ويشغلهم بمناوشة الكتائب الأولى إلى أن يتلقى أمرا جديدا . وفي هذه الأثناء، ركب فرسه، مصحوبا بمغربي، وعبدين مسيحيين، وصعد على ربوة، ورفع بصره الى السماء وجعل يدعو الله بصوت مرتفع وبعجلة كبيرة، ثم أخرج من كمه خمسة جعاب غليظة من قصب، وألقى إحداهما الى اليمين، والأخرى الى اليسار، وواحدة أمامه، وواحدة خلفه، والأخيرة فوقه . وفي نفس الوقت أوفد المغربي الذي كان يصحبه الى ابنه آمرا إياه بأن يخوض المعركة . وأكد لي عدد من المغاربة الذين كانوا مع فئة الأخ الأكبر بأنهم عندما حمل أصحاب تارودانت، سمعوا ضجة عظيمة لرجال وطبول، مع ريح صرصر عاتية، فظنوا أن العالم أجمع ينقض عليهم، وولوا الأدبار مهزومين . وأسر في هذه الوقعة الشريف الأكبر مع ابنه أبي حسون وفرسان آخرين عديدين كانوا أشجع جنوده .

---

(97) هو أبو حسون . (هامش)

(98) هو مولاي القائد . (هامش)

حاول الإسلامي مومن الجنوي، الذي كان في معسكر سوس، أن يخفف من ألم ملك مراكش، مبينا له بأنه، وإن خانه الحظ، فيجب أن لا يتأثر كثيرا، لأنه سقط بين يدي أخيه . ثم ساقه الى الشريف الأصغر الذي كان كتوما «ماكرا» فلم يبد فرحه بهذا الانتصار لأنه ولو أن النصر ضمن له الحياة والدولة، فإنه تظاهر بحزن عظيم . ولما اقترب من أخيه الذي سيق إليه سجينا، نزل عن فرسه وأحاطه بقدر من الإكرام كأنه في حالة السراء، فتعانقا في الأخير بحرارة، وسارا في طريق تارودانت، حيث ظل الأكبر بضعة أيام في الأسر . وأضيف أن أحد عبيد (الشريف الأصغر) المسيحيين، وهو رجل طيب وثقة جدا (99) من مواليد سان ڤانسان دي لاباركيرا، أقسم لي بأنه صعد معه على الربوة، فلما ألقى بجعابه خيل اليه أن الجحيم كله قد ثار .

الفصل 42

مولاي زيدان ابن الشريف ملك مراكش وولي عهده يجمع مجلسه لتخليص أبيه من الأسر

انسحب مولاي زيدان ابن الشريف الأكبر الى مراكش مع من لجوا في المعركة، وتألمت المدينة كثيرا عندما علمت بأسر الملك . عند ذاك، قام ابنه الذي كان هو الآخر شجاعا حذرا، فأعطى أوامره في بعض شؤون الدولة. ولما شاهد ما أبداه الناس من حزن على نكبة أبيه، جمع أعيان المملكة كلهم، وجلهم مسيحيون . وأطلعهم على المصيبة التي أصابت أباه، مذكرا إياهم بالنعم التي أنعم بها على الكثير منهم، وما كان دائما يبديه نحوهم من حسن استعداد ومراعاة . وعلى النقيض من ذلك ذكرهم بعجرفة عمه

---

(99) هو يوحنا دي لا سييرا (هامش)

الذي ألقى القبض على أبيه، شقيقه وسيده بدون أي احترام.
وأضاف بأنه ينوي كذلك الاستيلاء على مراكش. ولما كان الأمر يتعلق بحريتهم وحياتهم فمن مصلحتهم أن يتصدوا بشجاعة الى عمه، وإن شرفهم يفرض عليهم إخراج ملكهم من السجن. أما هو، فسيؤدي واجباته كابن بار وأمير محبوب، لكنه فقد عددا كثيرا من الرجال واستهلك قدرا عظيما من المال، بحيث لا يجد وسيلة أخرى يلجأ إليها في مصابه سوى التفاوض مع ملك البرتغال (100) الذي في استطاعته أن يحميهم ضد عمه ويعيد أباه الى العرش، لكونه أميرا شهما. فوافقوا على هذا الرأي، وقرروا إرسال مبعوث الى ذلك الأمير بهدايا تشتمل على عبيد وخيل وغيرها من أشياء البلاد.
وأمروا السفير بالمفاوضة في السلم، على شروط مشرفة حسب الظروف، ومطالبة الملك بإمدادهم بثمانية آلاف أو عشرة آلاف من رماة البنادق، يحررون بهم الأمير السجين، ويطردون أخاه من تارودانت، ثم فكوا الأغلال عن أربعمائة أسير كانوا أخذوا في رأس أكير مع قائدهم دم كومتييري دي مونروا، واختاروا عددا من جياد الخيل، وزرابي تركية، وطيور كاسرة، خاصة منها البزاة التي هي ممتازة في هذه الجبال، وكانوا مستعدين لإرسال كل ذلك مع المنصور، الذي اختير سفيرا.

الفصل 43

اعتراض ملك سوس بحذق بعد أن أطلعه جواسيسه على مراد مولاي زيدان

لم يتمكن مولاي زيدان من تنفيذ مشروعه بسرعة ولا بسرية، دون أن يطلع على ذلك عمه الذي كان رجلا يتدبر الأمور. فلما علم بما عزم عليه ابن

---

(100) دم يوحنا. (هامش)

أخيه وأهل مراكش من التحالف مع المسيحيين ذهب عند أخيه للحيلولة دون هذا التحالف بكيفية محكمة، وقال له أولا إنه لا يرغب في شيء آخر غير أن يراه حرا طليقا، وأنه سيرجعه معززا مكرما متى تأكد أنه لن يتعرض للاعتداء على حياته . وأضاف طالبا منه أن يترك له لقب ملك تارودانت ودرعة ما دام قد ساعد في فتح كل ما يملكانه معا، وأنه - أي الأخ الأكبر - سيكون عاهل مراكش وتافيلالت وتيكورارين، وهكذا يمكنهما التعايش في هناء كأخوين شقيقين حقيقين . ولكي يورط الشريف الأصغر أخاه أكثر ليتفق معه ويحرمه من مدد ملك البرتغال، وعده بأنه سيذهب لإعانته على محاربة من بقي في أراضيه من مسيحين، لأنه يحبه، ولأن ذلك حق واحب، ولا بد من إقامة سلم متين بينهما، وأن شرفه يقتضي أن يتحرر فورا، ومملكة تارودانت التي يطالبه بها ليست بكبيرة، وأنه لو كان أسيرا عند غيره من الأمراء لسلبه بعض مناطق إمارته . كما بين له أيضا أنه إذا كان يأمل في اللجوء الى المسيحيين للانتقام منه والرجوع الى مراكش، فعليه أن يقدر ما سيكلفه هذا الأمر، لأنهم لن يقدموا شيئا إلا بشروط مفيدة جدا لهم، وأن ذلك لن يحدث إلا بسبب امتناعه من التفاوض مع شقيقه . وهكذا فإنه سيدخل أعداءه الى مملكته وسيخرجونه منها ملوما مدحورا . والأخطر من هذا أنه سيسقط من عين قومه إن لجأ الى أعداء محمد (عليه السلام) . اقتنع ملك مراكش برأي أخيه الأصغر . وحررت شروط سلم وقعا عليها بحضور أشخاص ذوي سلطة، وأقسم كل منها علنا على التزام صداقة لا تنقض عراها .

الفصل 44

اتفاقية التسليم بين الشريفين، وتحرير ملك مراكش

بعد أن تحدث الإسلامي مومن والقواد الآخرون مع ملك مراكش، بإيعاز من أخيه، أبرموا اتفاقية على الشكل التالي : يقتسم الأخوان قبل كل شيء الأقاليم التي فتحاها، فيأخذ الأخ الأصغر مملكة تارودانت وإقليم

درعة الواقعين جنوبي جبل الأطلس " وبلاد زناكة (101)، الواقعة غربي مدينة تارودانت . ويأخذ الأخ الأكبر مملكة مراكش، وإقليم تافيلالت وتيگورارين، وأراضي هسكورة وتادلا الممتدة شرقي مدينة مراكش . ويبايع مولاي محمد الحران ابن الاخ الأصغر، ولي عهد الاخوين، وبعده مولاي زيدان ابن الأخ الأكبر . ويحرر جميع الأسرى من كلا الجانبين دون أداء فدية . ويقسم ملك مراكش وابنه والأعيان الآخرون السجناء بالقرآن أنهم لن يشهروا السلاح أبدا ضد ملك تارودانت، ولا ينقضوا أي بند من المعاهدة . وسيؤدى خمس كل ما قد يحصل من غنيمة استقبالا الى ملك مراكش لكونه هو الأكبر . ومتى وجد الأخوان معا في الجيش، فإن ملك مراكش سيطاع كسيد مطلق، وملك تارودانت كوزير (102) . وحرر هذا العقد سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وألف.

عند ذلك أخذ الشريف الأكبر يتأهب للرجوع الى مراكش، وشيعه الأخ الأصغر الذي أصبح يدعى ملك تارودانت على مسافة أكثر من فرسخين مصحوبا بأولاده وعدد من الأعيان والقواد . وافترقا في الأخير والدموع تترقرق في عينيهما، مقدمين أكبر دليل عن مودتهما، التي لم تدم مع ذلك مدة طويلة . ثم تابع الشريف الأكبر طريقه نحو مراكش مصحوبا بعدد من القواد ورجال السلطة، الذين حضروا لتقبيل يديه والابتهاج بإطلاق سراحه . واستقبل في المدينة بفرح عظيم وأبهة كبيرة، إلا أن مولاي زيدان ذكر أباه بعد بضعة أيام بما ساور خاطره من التحالف مع ملك البرتغال، وأقنعه بأخذ الثأر من عمه . لكن الملك أباه، الذي كان بخيلا (!!)، أجابه بأن شرفه يفرض عليه ألا يتحالف مع المسيحيين، وأن ذلك أمر تحرمه الشريعة الإسلامية، إضافة الى أنه يرى من الخطر الكبير إدخال أعدائه الى مملكته، وبالتالي فإنه يرى أن يرجع الأسرى الى السجون، وألا يبعث بأي شيء الى ملك البرتغال فنفذت أوامره .

(101) في الترجمة الفرنسية : Les pays des Azanegues بلاد الأزانيگ. ولعل المقصود زناكة أو صنهاجة، والمراد بغرب تارودانت -في تصوره- جنوبها، أي الصحراء الغربية .

(102) أي نائب الملك . (هامش)

الفصل 45

نقض الشريف ملك مراكش الصلح الذي أبرمه مع أخيه

مكث الأخوان بعض الوقت في السلم، يهتم كل واحد منهما بشؤون مملكته، لكن ملك مراكش لم يطق (103) أن يتمتع أخوه بالمناطق التي انتزعها منه، وشعر بالإهانة لكونه كان أسيرا، فقرر نقض الصلح، واستشار في ذلك ابنه مولاي زيدان وأعيان مملكته، مبينا لهم أنه لا يستطيع تحمل افتخار أخيه بالتغلب عليه وأسره واغتصاب أقاليم من إمارته، كما أنه لا يستطيع تحمل جرأة أهل تارودانت الذين واتاهم الحظ في احتلال رأس أكير، فاحتقروا ذلك العدد الكثير من الفرسان الشجعان الذين كانوا بمراكش، وأنه غير ملزم بالبرور بأيمانه، لأنه أقسم وهو سجين .

رضي مولاي زيدان بهذا القرار، وكان متأثرا جدا بالإهانات التي لحقت بأبيه، وبه أيضا لمبايعة ابن عمه مولاي محمد الحران كولي للعهد . كما وافق أعضاء المجلس على مشروع ملك مراكش، وأكدوا له أنه سيقضي بسهولة على أخيه، لأن قواته أكثر من قوات خصمه، وأنهم سيساعدونه بشجاعة في عمليته . وفي الحين بعث ملك مراكش بأوامره الى جميع القواد والشيوخ، والى المحاربين، أن يعدوا المؤن والعدد بأكثر ما يمكن من السرية، لكن ذلك لم يتم دون أن يطلع عليه ملك تارودانت بواسطة من كان لديه من أصدقاء بمراكش . ولما كان هذا حذرا، فإنه تحقق بأن كل الاستعداد الذي يقوم به أخوه إنما يرمي بها الى مفاجأته . لذلك استنفر هو الآخر جنوده، وبعد أن جمع أكثر قواده، اشتكى إليهم من أن أخاه قادم بجميع قواته للقضاء

---

(103) كان ذلك سنة 1545 (هامش)

عليه، دون أن يراعى ما أولاه من حرية ومن نعم أخرى، ولا حتى اليمين وقسمه بالقرآن للمحافظة على السلم، وطلب منهم أن يساعدوه في قتال بهذا القدر من المشروعية، وأنه لا خوف إطلاقا من أصحاب ملك مراكش، لأن الله ورسوله لا يحبان الخائنين وسيمكنانهم من انتصار جديد على أخيه . لم يكد ينتهي الشريف من خطابه حتى وعده جميع القواد بمساعدته في حركته، معربين له أنهم لن تسنح لهم فرصة أحسن لاكتساب الشرف والثواب عند محمد (عليه السلام) . وإذ ذاك عين الحران قائدا للجنود، ولو أن أباه سيكون حاضرا بنفسه في الجيش . واجتنابا لما عسى أن يحدثه الجنود من أضرار في المنطقة، قرروا الخروج منها لمواجهة الأعداء في بلادهم .

الفصل 46

خروج ملك تارودانت لملاقاة أخيه ملك مراكش

لما قر عزم ملك تارودانت على هذا الرأي، استعد للحرب، وغادر مملكته سائرا في طريق مراكش بجيشه الذي كان يبلغ تعداده حتى عشرة آلاف فارس، لأن المشاة لم يكونوا يستعملون إطلاقا في تلك البلاد . وقد أغذ السير الى أن قطع جبل الأطلس وضرب خيامه في سهول الكيرة، (كذا) وأقبل ملك مراكش في خمسة عشر ألف فارس، بقيادة ابنه مولاي زيدان، وأقام محلته بمرأى من محلة عمه . وقد حاول في الحين عدد من الشيوخ الإصلاح بين الفريقين، لكنهم لم يستطيعوا لشدة غضب ملك مراكش، وثقة جنوده في الانتصار .

وبعد أن رتبت الكتائب على شكل هلال، التحم الفريقان في تاسع عشر غشت من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وألف، حوالي الساعة التاسعة صباحا . واقتتلوا زمنا طويلا بتشجيع قوادهم ولمصلحتهم الشخصية، بعضهم للحفاظ على سمعتهم ومالهم، وبعضهم لاكتسابهما . وبينما كانت المعركة على أشدها، وقع شيء غريب أطلعني عليه بعض المغاربة الذين كانوا حاضرين

هناك . ذلك أن النهار كان في غاية الصحو والصفاء لم تهب فيه أية ريح، فالتوت راية ملك مراكش في أحد الأدغال بكيفية تطلبت أزيد من ربع ساعة لنشرها، وفي نفس الوقت ضيق أصحاب تارودانت الخنادق على أصحاب ملك مراكش، حتى إنهم بدؤوا يفقدون الأمل، ويلوذون بالفرار، دون أن يوقفهم ترغيب مولاي زيدان ولا ترهيبه، بل بالعكس طاردهم الآخرون بشدة في مسافة تنيف على ثلاثة فراسخ وهم متحمسون أكثر الى أن حال الليل بينهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وكانوا سيقتلون أكثر من ذلك لولا أن جمعهم مولاي زيدان وبعض القواد الآخرين على بعض الربى . واحتموا هكذا بالمكان الملائم والليل الذي أرخى سدوله . فجمعوا كل الذين تشتتوا . إلا أن هذا الاحتماء، ولو أنه نجى بعضهم، فقد كان فيه هلاك الشريف الأكبر . ذلك أن أحد سكان مراكش أشار أثناء المطاردة الى مولاي عبد القادر ثاني أبناء ملك تارودانت، وكان شجاعا مقداما، أن عمه قد ترك المدينة خالية من كل شيء، وأن في إمكانه أن يستولي عليها إذا ما اقترب منها ببعض الجنود. استحسن عبد القادر هذا الرأي، وجمع أربعة آلاف فارس كانوا تحت قيادته، وبعد أن استشار بعض القواد، أخذ يغذ في السير نحو مراكش، وأقنع والده باتباعه . سار الليل كله دون توقف للاستراحة، ودليله المغربي الذي أخبره، فأصبح في اليوم الموالي أمام أحد أبواب مراكش (104) . وبعد أن رتب جنوده استعدادا للحرب، وأرسل الى السكان يطالبهم بتسليم المدينة إليه دون انتظار وصول أبيه مع المدفعية، وإلا قتلهم بالسيف . ظن العامل (105) الذي كان الملك قد تركه فيها أن عاهله قتل أو أسر، فأمر بفتح أبواب مراكش، دون أن يجرؤ على الوقوف في وجه المنتصر، فدخل إليها عبد القادر بجنوده، وأقام لحينه حرسا في كل مكان . ثم ذهب الى القصبة ونزل في قصر عمه، حيث وجد نساء ذلك الامير البائس وأطفاله في حالة اضطراب قصوى، يخفون

---

(104) باب التوبو (كذا) (هامش)

(105) الجهاني (هامش)

ما عندهم من أثاث، فأزال روعهم ولاطفهم كثيرا . وبعد أن وضع بيت مال عمه في مأمن، ذهب لزيارة القصبة والمخازن، وهو يقيم حرسا قويا في كل مكان يراه ضروريا . وفي هذه الأثناء وصل عمه الى باب خفي (106) للقصبة مطل على الجنوب، فجعل يقرعه بشدة ليفتح له، فنودي من أعلى السور بأن عليه أن يهرب لأن ابن أخيه مولاي عبد القادر يوجد في المدينة، وأن أخاه يقترب منها . همز فرسه على الفور هاربا الى أن وصل الى زاوية (107) الشيخ سيدي عبد الله ابن ساسي . ولما علم ملك سوس بما فعله ابنه، أخذ معه ثلاثة آلاف فارس، تاركا سائر الجيش مع مولاي محمد الحران، وقصد مراكش فوصل إليها يوم الغد حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا، فاستقبل فيها بحفاوة كبيرة من لدن ابنه والسكان، ودخل توا الى قصر أخيه وزار نساءه وأولاده الذين اشتكوا إليه كثيرا، فوعدهم بإبقائهم وإكرامهم غاية الإكرام . وبعدبضعة أيام دخل مولاي محمد الحران مع باقي الجيش والمدفعية، واستقبل بحفاوة بصفته الابن الأكبر للملك . ولم يلبث القواد وأكابر المملكة أن جاؤا ليبايعوا أباه الشريف الأصغر، الذي رغم ما كان عليه من فرح لأنه أصبح سيدا على مراكش، لم يستطع أن ينسى ما كان يوليه من حب لمانسية، وما اعتراه من آلام لموتها، بحيث إنه أحضر أباها دم گوتيير دي مونروا، وبعد أن أعرب له عن أسفه لفقدان ابنته، أطلق سراحه، وأعطاه فرسين مجهزين تجهيزا حسنا، وهدايا أخرى من إنتاج البلاد، وأرسله في الحين الى مازيغن .

---

(106) باب الغدر (هامش)

(107) في الهامش : أي دير . وكتبت في النص الفرنسي : كاهوز "cahuze" وحرف اسم الشيخ صاحب الزاوية فكتب : ابن صافي . وسيتكرر هذا التحريف .

الفصل 47

بعد فرار ملك مراكش الى الزاوية، أرسل ابنيه الى ملك فاس طالبا النجدة

لما وجد الشريف أحمد (108) الذي كان منذ قليل ملكا لمراكش، نفسه بزاوية سيدي عبد الله ابن ساسي، التي التجأ إليها مع بعض أولاده وأنصاره، ولم يدر ماذا عليه أن يفعل في نكبة خطيرة كهذه، وفقد الأمل في حمل أخيه على السلم، قرر إيفاد ابنيه مولاي زيدان ومولاي الناصر الى فاس، ليطلبا من الملك الذي كان من قبل مريده أن يعينه ضد أخيه الذي طرده ظاما من مملكته بمراكش . فاستقبلهما ملك فاس بحفاوة، وكتب إلى أبيهما يخبره بأنه سيساعده بكل ما له من قوة ضد أخيه، الذي بدأ يوطد الملك لنفسه، ذلك أنه لما أصبح ملكا بمراكش، أعلن أن جميع المحاربين الذين كانوا مع أخيه، سواء منهم المهزومون وغيرهم، يمكنهم الاستقرار مع المنتصر أو اتباع الفئة الأخرى، وأنه سيؤدي رواتب من يرغبون في خدمته . لكن الآخرين الذين يريدون أن يتبعوا أخاه، لهم الحرية في الالتحاق به على أن يتركوا أسلحتهم وخيلهم . وحينما أعلن هذا الخبر، أسرع إليه جميع المحاربين فأمر بأن تؤدى لهم الرواتب وأن يسجلوا في ديوان الجند . وهكذا نال ثقة الجنود بمهارة، وذلك ما يحتاج إليه الملوك أكثر . وبعد ذلك علم بأن أبناء أخيه بفاس يتفاوضون مع الملك المريني ليساعدهم على الرجوع الى مراكش، وأن هذا الامير كتب الى الشريف أحمد بأنه سيعينه، فاتفق مع بعض الفقهاء سرا أن يصالحوه مرة أخرى مع أخيه . فعمل هؤلاء على أن

---

(108) يسميه المؤلف دائما «محمد» تبعا لتحريف نطقه به

يلتقي الشريفان على ضفاف واد الردم الواقع على بعد فرسخين شرقي مراكش. وفي اليوم الذي كانت ستتم المقابلة (109) أقام ملك مراكش محلته على ضفة الوادي في انتظار أخيه، وجلس في فسطاط رائع محاطا بجميع حظايا حرسه . كان جالسا على مسطبة خشبية بشكل تخت على الطريقة التركية، مغلقة من جميع الجوانب، بحيث لا يمكن أن يرى ولا أن يضرب إلا من أمام، بيده خنجر وتحت قميصه زرد، وكان رجاله مصطفين في كلا الجانبين، تاركين ممرا طويلا عريضا، بحيث يراه الذين يأتون إليه من مكان بعيد . كان أول الواصلين هم أصغر أولاد الأخ، ثم الكبار، وهكذا كان البكر هو الأخير . لكن كلما اقتربوا من الفسطاط، كانوا ينزلون ويذهبون الواحد تلو الآخر لينحنوا أمام عمهم، ويقبلوا ركبتيه أو يده . فكان يعانقهم في الحين، ثم ينسحبون الى جانب الفسطاط، حيث كان أبناء عمهم وأولاد الملك وبعض القواد . وبعد مرور جميع هؤلاء الأمراء الشبان أقبل الشريف أبوهم، مصحوبا بفقيهين والمرابط سيدي عبد الله ابن ساسي . وبمجرد ما أبصره أخوه، قام وتقدم الى باب الفسطاط يستقبله، وعند ذلك سالت عبرات من هذا الجانب وذاك، وتعانقا ثم سارا ليجلسا على نفس العرش، فمكثا مدة يتأوهان وينظر الواحد منهما الى الآخر دون أن يستطيعا الكلام . ثم أخذ ملك مراكش يقول :

"إنك لم تبر باليمين التي أقسمت علانية في تارودانت لتحافظ على سلم لا ينقض معي . إن هذا لمن أعظم الذنوب، ويقبح أكثر في شخص الملوك، وبؤسك يظهر بأن الله يعاقب الناكثين، لأنني أعلم أنه، لولا إعانته تعالى، ما كانت قواتي قادرة على طردك من مراكش ولا استيلاب ملكك . لا شك أنه هو الذي جعلك مكروها من رعاياك وأولادك أنفسهم ، لأنهم لايطيقون أن تكون غير صادق وناكثا لوعودك لي أنا أخيك الذي

---

(109) في شهر أبريل (هامش)

أطعتك دائما مثلما أطعت أبي نفسه . وأقول أكثر من هذا إنني مستعد أن أطيعك على أن تحبني كأحد أبنائك . نعم، أعدك بأنني سأبايعك كملك، وألاَّ أتلقب سوى بلقب قائد عام لجيوشك، ومنذ الآن أسلم إليك مراكش، لكن السكان توسلوا إلي ألا أتركهم لقساوتك، وألا أسمح لك بعد بالدخول الى المدينة، وقد قطعت لهم بذلك وعدا سأفي به ولا أنقضه . فاذهب الى تافيلالت تتسل فيها بعض الوقت مع نسائك، ولا تزعج نفسك بأمر المستقبل، فسأمنح لأبنائك عدة ممالك، أريد أن تملّكهم أنت نفسك إياها ."

وعقب هذا الخطاب، شكر الأخ الأكبر أخاه الصغير، ولما رأى أنه لايستطيع أن يسترجع ملكه بمراكش، توجه يوم الغد الى تافيلالت مع خدامه، وأرسل يطلب زوجته وحاشيته . وفي هذه الأثناء رجع الآخر الى مراكش، حيث أقيمت أفراح كبيرة بمناسبة تصالح الأخوين، فبقي مدة طويلة يعمل في تسيير شؤون الدولة وتطبيق الأحكام القضائية بدقة . ثم أرسل ابنه الحران الى تارودانت بصفته وزيرا، وأمره بالتفكير في تجارة السكر .

الفصل 48

نقض ملك مراكش الهدنة التي كان قد أبرمها مع ملك فاس

بعد أن طرد الشريف أخاه من مراكش، وأصبح آمنا في هذه المملكة وفي مملكة تارودانت ودرعة وغيرها،ارتأى أن ينقض الهدنة التي كان أبرمها مع ملك فاس، بدعوى أنه اقتيل أبناء أخيه، فأرسل يقول له إن قصبة تادلا وجميع إقليمها تابعان لمملكة مراكش، وأن ملك فاس يملكهما ظلما، فعليه أن يسلمهما إليه . وفي نفس الوقت، أمر ابنه مولاي عبد القادر، وابن

الاسلامي الجنوي (110) الذي كان على الحدود، أن يجبيا خراج هذا الإقليم، ويعملا على الاستيلاء على قلعة فشتالة، التي كانت فيها حامية قوية تحت إمرة أونزار الذي يحكمها باسم ملك فاس .

التحق عبد القادر بهذه التخوم وأقام الحصار أمام فشتالة . وكان القائد المرجود بها قد اتخذ جميع الاستعدادات، لأنه لما أخبر بالحصار المتوقع جهز المدينة بالرجال والمؤن ومكث ينتظر العدو . كان مع مولاي عبد القادر الأتراك والاسلاميون من حرس أبيه، وعددهم ينيف عن ألف من رماة البنادق، مع جماعة من فرسان الأعراب، وقطعتين من المدفعية لقصف القلعة . وقد أسكن جنوده في ديار كانت خارج المدينة بناحية الشرق . ولما لم يجد مكانا صالحا لتركيب المدفعية، فكر في سحبها عبر طريق أسهل من جهة الغرب، حتى يستطيع قصف برج مفصول عن القلعة . وكان البرج قائما على عين جارية في واد عميق يذهبون إليها من القلعة بمحاذاة جدار، فظن أنه متى حرم المحاصرين من الماء استسلموا لعدم وجود ماء آخر عندهم .

ولما أصبح المدفع قريبا من هذا البرج بستمائة قدم شرعوا في استخدامه، لكن البرج كان منخفضا لدرجة أن الأرض تكاد تغطيه تماما، وحيث إن المدفعية كانت مرتفعة، فإن رصاصها أخذ يمر فوق البرج ولا يصيب إلا شرفاته . ولما رأى مولاي عبد القادر ذلك أمر الأتراك والإسلاميين بالهجوم، فالصقوا سلاليمهم بالأسوار وداهموا المدينة، لكن المحاصرين قاوموهم بشجاعة، وبعد ان خرجوا من باب خفي، جرحوا وقتلوا منهم الكثير وأرغموهم على التقهقر . استعاد عبد القادر حماسه في الحين وأمر بوضع لغم من جهة المنازل ليكون أخفى . وبينما هم يشتغلون في ذلك دون أن يفطن بهم المحاصرون، أخذ أحد الرواد يغني قائلا : "احترس أيها المسكين، فإن النيران داخلة من تحت تنُورتك ! "لما سمع القائد بذلك أمر بوضع لغم مضاد، التقى بلغم الأعداء الامر الذي من أجله أمر مولاي عبد القادر

---

110) مومن . (هامش)

بإيقاف العمل، وأخبر في نفس اليوم بأن ملك فاس مقبل لنجدة الحصن، فرفع الحصار وترك في الحدود مومن ابن الاسلامي، وعاد مع رجاله الى مراكش، بعد إشعار أبيه بمجيء ملك فاس وبنجاح الحصار .

الفصل 49

حشد الشريف لجنوده بعد علمه بمجيء ملك فاس

عندما رأى ملك فاس أن الشريف نقض الهدنة التي كان قد أبرمها معه، حشد جنوده وعزم على قصد العدو ومنازلته . فخرج من فاس عازما على ذلك في ثلاثين ألف فارس، وثمانمائة تركي وإسلامي تحت إمرة قائد فارسي (111) كان قد أتاه ليقدم له خدماته مع أربعمائة تركي صحبهم معه من الجزائر، إضافة الى ألف من رماة البنادق الفرسان، واثنتي عشرة قطعة من مدفعية البرونز . وكان أيضا مع ملك فاس أمير بادس (112)، وأمير دبدو، وآخرون كثيرون، فزحف بهذه الجيوش نحو تادلا .

ولما اطلع الشريف على ما جرى بفشتالة، وعلم بمجيء المريني، حشد قواد سوس ومراكش، وأزيد من ثلاثين ألف فارس وثلاثمائة من رماة البنادق الأتراك، مع ما ينيف عن ألف من رماة البنادق الاسلاميين وثماني عشرة قطعة من المدفعية وكل ما يلزم من الأجهزة . ثم أخذ الجيش يتحرك نحو تادلا، وبعد أن التقى بالقائد مومن الذي كان في هذه الحدود، سار قاصدا

---

(111) هو موريان (هامش)

(112) أبو حسون (هامش)

عدوه الذي كان قد دخل الى الاقليم . أسرع الى اجتياز واد العبيد، الذي يفصل مملكة فاس عن مملكة مراكش، عبر مشروع تيسفا (كذا)، وم ثم سار يقطع مراحل قصيرة وهو مستعد للقتال، ومنتظر أن يعود أهل فاس الظرفاء والأعراب الى منازلهم عند اشتياقهم الى رؤية ذويهم بعد طول الغيبة . ذلك أن الشريف ولو أنه عازم على مقاتلة عدوه منذ مغادرته لمراكش، كان يتظاهر رغم ذلك بأنه يرفض المواجهة . وكان ملك فاس معسكرا على ضفة نهر روا قرب فشتالة من جهة الشرق، في مكان مناسب تكتنفه ضفة النهر من جهة، والجبل من جهة أخرى لكن ملك سوس حينما تأكد بواسطة جواسيسه من أن عددا من الأعراب وأهل فاس قد انسلخوا عن أميرهم، رأى أن الفرصة مواتية للهجوم مادام عدد جنود الفريقين أصبح متساويا، واقترب قاصدا القتال، فارتاح ملك فاس لذلك كثيرا، خشية أن يتسلل جيشه، ويهزم نفسه بنفسه . لذلك أخرج جنوده بسرعة من المحلة وألف منهم خمس كتائب، أسند واحدة الى ملك بادس، الذي كان قائد جيشه فجعله في الميمنة، وجعل أخاه في الميسرة مع أمير دبدو . وترك الكتيبتين الأخرين لقيادة ابنيه مولاي القصري (كذا) ومولاي الشيخ، بينما كان هو على رأس الخامسة، مرفوقا بابنه مولاي بوبكر وآخرين كثيرين . وأما مدفعيته فكان يحرسها الأتراك، والاسلاميون، والمدجنون من أهل فاس تحت امرة القائد موريان . وكانت في مكان مناسب تستطيع أن تزعج منه العدو، الذي كان ينتظر في الحالة التي ذكرتها آنفا .

الفصل 50

خطبة الشريف على جنوده، وكيفية ترتيبهم للقتال

بينما كان ملك فاس يرتب رجاله للقتال ، نادى الشريف أبناءه، وأكبر قواده، وبين لهم أهمية النصر الذي يامل إحرازه على عدوه، وأنه سيكون من السهل عليه إثر هذه المعركة الظافرة، الالتحاق بفاس وسائر أقاليم بلاد البربر، وفضلا عما سيكسبونه من فخر في هذا اللقاء فانهم سيحصلون

على ثروات هامة . وبعد ذلك قال إنه إذا كان من بين جنوده من يخشون أهل فاس، ويرغبون في العودة الى مراكش، فإنه يطلب منهم التخلي بأسرع ما يمكن، ولن يلحقهم أي أذى، وسيؤدى لهم أجرهم كالمعتاد. 'إنني أعرف - يقول الشريف - وأنتم تعرفون كذلك، مدى شجاعة وإقدام أهل فاس، الذين أوهت عزمهم الرذائل وتعودوا على جميع الشهوات المخالفة لأوامر محمد (عليه السلام) حقا، يجب ألا نعتقد أن هؤلاء القوم يقاتلون مثلكم شجاعة وإقداما، أنتم الذين تلتزمون بالشريعة النبوية، وتحبون الشرف، وتتعرضون منذ أمد طويل لأهوال الحرب . أرجوكم أن تتذكروا الشعوب الذين قهرتموها، والمجد الذي أحرزتموه بهزم عدد كبير من الاعداء الخطيرين . إني أحكم الآن بفضلكم، وبفضلكم أيضا سأنتصر على ملك فاس . نعم، أتمنى أن تمتثلوا للأوامر التي أعطيتها لقادتكم، وبذلك ستحققون رغباتي" . وعلى إثر هذا الخطاب الموجه الى الجنود، قال الشريف لأولاده ولأكبر قواده إنه يعلم يقينا بما له من أسرار خفية، أنه لن يفقد في المعركة التي يوشك أن يشنها سوى رجل واحد من جملة جنوده، وأن ذلك الرجل سيغرق ويقبض على ملك فاس . أظهر الجنود عندئذ فرحهم وطلبوا من الشريف أن يقودهم الى المعركة، وأنهم سيموتون في سبيله .

هكذا وحتى لا يدع هذا الحماس القوي يضعف، صفف الشريف جميع جنوده للقتال يوم الغد، وسار الهوينا متئدا قاصدا لقاء أهل فاس . كان قد ألف سبع كتائب في شبه هلال إذا ما تلاحقت . وفي طرفي هذا الهلال كان مومن بلديه (كذا) في الميمنة ضد أخي الملك وأمير دبدو، ومولاي عبد الرحمن أحد أبناء الشريف في الميسرة ضد ملك بادس، وكانت هاتان الكتيبتان متبوعتين بكتيبتين أخريين، بقيادة الحران وعبد القادر ابني الشريف، بينما كان أبوهما في الوسط مع خمسة آلاف فارس مسلحين بخودات عالية جيدة . وفي مقدمة هذه الكتيبة، بين طرفي الهلال كان يسير رماة البنادق الفرسان، والاتراك والاسلاميون، وخلفهم المدفعية يجرها البربر، وبعض القطع الصغيرة الأخرى على ظهور البغال، مع الرصاص والبارود وباقي العدة. وفي هذا النظام تقدمت جنود الشريف نحو العدو، في سهل كبير واسع، وهو يجري عبر جميع الصفوف، مذكرا الجنود مرة أخرى بواجبهم . ولما توقف

الجيش، أمر القواد الذين كانوا في الجناحين ألا يناوشوا الأعداء حتى يروا إشارة القتال .

الفصل 51

كيف قبض الشريف على ملك فاس وابنه أسيرين

لما تقابل الجيشان فكر الملكان في كيفية القتال . ويقول من شهدوا المعركة إن النهار كان صحوا والشمس حامية تلقي أشعتها في أعين جنود الشريف، لكن هذا الأخير شغل عدوه بمهارة دون مهاجمته حتى لاتزعجه الشمس طوال فترة القتال، فلما مالت الشمس وأخذت ترسل أشعتها على أكتاف جيشه وفي وجه أعدائه . عند ذاك أمر بنشر راية من قماش أبيض كتبت فيها حروف ذهبية، فتناول ثلاث قصبات بيده وأمر أحد فرسانه أن يخرج من الكتيبة مسرعا ثم كرّ عليه حاميا نفسه بترسه، وهجم عليه الشريف بفرسه وانتزع منه القصبات الثلاث الواحدة تلو الأخرى، وعند الثالثة ضربه ضربة قوية على ترسه، فسره ذلك وأمر بالتقدم واتباع الراية، ثم أعطى إشارة القتال بطلقة مدفع . فخاض المعركة والكتائب كلها معا، واطلق رماة البنادق النيران جميعا حسب ترتيبهم . وعقب هذه الدفعة أخذوا يلتحقون بجناحي الجيش، تاركين المجال للمدفعية : لكن مفعولها لم يكن كبيرا، إذ أن أبا حسون وحده تقريبا هو الذي صمد بشجاعة من جانب أهل فاس كلهم ولما لاحظ الشريف جبنهم هاجمهم بكتيبة إلى أن أرغمهم على الفرار في ظرف وجيز . ولم يمت من جانب الشريف إلا رجل واحد، وفق ما تنبأ به، وهلك نحو مائة من جانب ملك فاس، الذي حاول عبثا أن يجمع شتات جنوده. إلا أن الفرس الذي كان يمتطيه عثر، فانقض عليه زنجي من خدام مولاي عبد القادر وطعنه بالرمح طعنة كاد يقتله بها لولا أن صاح به غلام بأنه الملك. عند ذاك أقبل مولاي عبد القادر، وأخذ الملك أسيرا (113)

---

(113) سنة 1544 (هامش)

ومعه ابنه أبو بكر الذي لم يرض بأن يتخلى عنه . وبعد ذلك فر جميع قومه، وانسحب أبو حسون الذي قام بكل ما يمكن أن يقوم به قائد مقدام مع الذين استطاعوا أن يتبعوه، وانضم الى مولاي القصرى وأمير دبدو، متصديا للأعداء من حين لآخر حتى يسهل الانسحاب على قومه .

ثم إن القائد موريان عندما شاهد هزيمة جنود ملك فاس، نزل الى الأرض وأمر الأتراك والاسلاميين والمدجنين أن يفعلوا مثله، فكون حاجزا من حبال المدفعية، وتحصنوا حتى لا يقتلهم المراكشيون . وبعد ان مكثوا بعض الوقت محصنين هكذا دون أن يجرؤ أحد على مهاجمتهم، أرسل الشريف القائد محمد العلج يقول لهم باسمه إنهم إذا أرادوا أن يدخلوا في خدمته، فإنه سيؤدي لهم نفس الرواتب التي كان ملك فاس يؤديها لهم، وإذا رغب بعضهم في الانسحاب فإنه يسمح لهم بذلك، شريطة أن يتركوا اسلحتهم وخيلهم . فرد عليه موريان، وهو يعتقد أن هذا الرسول غير قادر على ضمان أمانه قائلا : إن كان الملك يريد القيام بما يقول لهم باسمه، فليبعث إليهم بأحد أبنائه، أو برمحه أو بأية أمارة أخرى من شأنها أن تؤمنهم، وإذ ذاك سيدخلون في خدمته . لما علم الشريف بذلك قدر موريان، وليطمئنه هو وقومه أوفد إليهم ابنه مولاي عبد الرحمن بخاتم كان يضعه في أصبعه، وهكذا دخل هذا القائد ومعظم جنوده في خدمة الشريف، ورجع الباقون الى فاس بعد أن تركوا الأسلحة والخيل .

وفي أثناء ذلك نهبت محلة فاس واقتلعت خيامها، فنزل الشريف عن فرسه وجلس عليها مع أبنائه وبعض القواد . وأخذ يتحدث معهم عن الانتصار الذي أحرزه على أعدائه، وأرسل في طلب الملك الأسير وخاطبه قائلا: "أحمد الوطاسي المريني، إن أسرك من غضب الله عليك لما اقترفت أنت ورعيتك من خطايا . إن ما تراه من جرائم تقترف كل يوم بفاس التي يجب أن يعظم فيها محمد (عليه السلام) بصفة خاصة لهي الأسباب الحقيقية لمصيبتك . ورغم ذلك عليك أن تتأسى في نكبتك، لأنك وإن كنت قد انضممت الى أخي لإهلاكي، فلا تخش بتاتا أن أعاملك بالسوء، لأنك في قبضة ملك مسلم، لا تحت سلطة أمير مسيحي، حيث تكون أقل أملا في النجاة . لكن لا تظن قطعا أنك ستعود يوما ما الى مملكتك !"

عند ذاك رفع ملك فاس رأسه، وقد أوهنته جراحه، وأجاب قائلا :
"إن ما هو مسطر على جبين المرء لا بد أن يقع، وليس في إمكان الملوك دائما أن يستأصلوا نقائص رعاياهم، لا سيما إذا طال عليها الزمان" وأضاف قائلا : "هل من أجل هذا شهرت علي السلاح أنا الذي لم أسيء إليك قط، بل بالعكس، استقبلتك أنت وأخاك بفاس بحفاوة بالغة، في الوقت الذي لم يكن فيه الحظ حليفك، ولم تطلبا شيئا إلا أعطيتكما إياه . لكنني ربما يكون من لطف الله الخفي أني خصصت لك استقبالا حسنا إذ قدر علي أن أسقط بين يديك، لتشكر النعم التي تلقيتها من دارنا . أرجو الله أنها ستساعد على كظم غيظك، لكن كن متيقنا أنك لو أصابك ما أصاب أخاك وابن أخيك، لصفحت عنك مثلما صفحت عنهما ." ابتسم الشريف وأمر بأن تعالج جراح هذا الملك مواساة له، فضمدها يهودي (114) كان طبيبا في خدمة الشريف .

الفصل 52

تسليم عامل فشتالة القلعة للشريف، وذكر ما حدث من أشياء أخرى إلى عودته الى مراكش

بعد أن أمر الشريف بتضميد جراح ملك فاس، أقام الليل كله في محلة عدوه، ويوم الغد جاء ابن عامل فشتالة أونزار الى الشريف، وكان قد علم بهزيمة ملك فاس، حاملا معه مفاتيح القلعة، فاستقبله استقبالا حسنا . واستسلمت عدة مواقع أخرى في الإقليم كانت تابعة لملك فاس، مقتدية بهذا

(114) الاستاذ ليون (هامش)

العامل . ثم إن الشريف سار بجيشه نحو فاس، مصطحبا معه الملك وابنه أسيرين، لأن هذا الأمير كان قد وعده بأنه عندما يقترب من المدينة سيعمل على أن يسلم له سكان مكناس وأحد أبنائه الموجود فيها إمارة هذه المدينة فدية له . إلا أن القضية لم تنجح كما كان يريدها الشريف، لأن القصري ابن الأمير، ومولاي بوخريص (كذا) أخاه، ومولاي أبا حسون ملك بادس، ومن بقي من الجيش، تحصنوا بفاس الجديد . فشاهدوا ما عليه السكان من اضطراب بسبب انعدام الملك، وإن كان بوخريص أراد أن يصبح ملكا أثناء أسر أخيه، لكن لم يساعده أبو حسون على ذلك . وكان يقول إن التاج لا بد أن يعود الى القصري، بصفته ابن الملك الاسير وخليفته .

وعندما كان القواد والشيوخ في المشور، وهو المكان الذي يجتمعون فيه عادة مع الأمير لمعالجة القضايا العامة دخل إليه أبو حسون مع القصري وقال : "الله ينصر مولاي القصري !" وقبل رجليه هو الأول، فقام جميع الحاضرين وفعلوا مثله، لكن ذلك كان بشرط إذا ما رجع أبوه أن يكون ملزما برد الإمارة اليه . وعين القصري في الحين أبا حسون خليفة له، وأسند اليه النظر في الشؤون العامة، لأنه كان من أرومة المرينيين، ولأن ذلك كان في صالحه، إذ من الأكيد أنه إذا سقطت فاس فستلقى بادس نفس المصير . ولما بويع القصري ملكا، جاء الفقهاء يهنئون، وقالوا له إن الله ورسوله أرادا هزيمة جند أبيه لأنه كان يسمح للمسيحيين بأن يعصروا الخمر بفاس ويبيعوها للمسلمين، ولأنه كان يروض الأسود . فأمر في الحين بتكسير الدنان وإراقة الخمر، مما عاد على المسيحيين بخسارة كبرى . كما أمر بقتل الأسود بالنبال، آملا أن يسكن غضب الرسول . وفي هذه الأثناء، مر الشريف بمكان في غاية الطول والضيق يسمى العوني (كذا) في الطريق المؤدية من مراكش الى فاس، والذي لو حماه الأعداء لأوقف تقدم المنتصر . وبعد اجتياز هذا المكان، ظن الشريف أنه لم يعد يخشى أي شيء : فأقام محلته في سهل (115) بمقربة بساتين، على بعد نحو فرسخين من فاس . ومن

(115) زواغة . (هامش)

هناك أرسل رجلا الى المدينة حاملا رسائل من الملك الأسير الى أمه وابنه وأبي حسون يطلب منهم أن يسلموا مكناس الى سلطة المنتصر، وبذلك ستمنح الحرية للملك مع إمارة فاس وعدة أشياء أخرى لم تكن لترفض في وقت كانت فيه شؤون المملكة سيئة الى هذا الحد . وحتى الشريف كتب الى بعض السكان ممن تربطه بهم مودة ملتمسا منهم تعزيز طلبات ملك فاس، مضيفا بأنه سيكون آسفا جدا إن لم يفعل أهل فاس طوعا ما سيفعلونه في النهاية كرها . ولما وصل هذا الرسول الى فاس، شغله أبو حسون بالحديث، لأنه كان يعلم جيدا أن الأعداء لا يستطيعون المقام هناك طويلا لانعدام الأقوات . فجمع أعيان المدينة كلهم، وعزم على الخروج ذات ليلة من فاس الجديد في ثمانية آلاف من رماة البنادق وبعض الفرسان، لمهاجمة جيش الشريف . وأمر أيضا بأن يخرج أهل مكناس في نفس الليلة ليقطعوا ممر العوني . وسرعان ما أخبر بذلك الشريف الذي كان له جواسيس في المدينة، فأمر فرسانه بأن ينتشروا على طول البساتين حتى قرب فاس . فأسروا مائتي شخص أمر بأن تقطع رؤوسهم أمامه . ثم ارتحل بمحلته ووصل الى الممر قبل أن يتمكن منه أهل مكناس، ومن هناك رجع الى مراكش آخذا معه ملك فاس وابنه بعد أن صفدهما بأغلال فكت من مسيحيين أسيرين (116) . ولما وصل الشريف الى مراكش، استقبل بالبشر والفرح . وأقام فيها بضع سنوات، لايشتغل بشيء إلا بتدبير شؤون ممالكه بالعدل والانصاف .

---

(116) هما يوحنا دي مازارا وإسكالوفا . (هامش)

الفصل 53

زيادة دخل الشريف وقضاؤه بين الناس

أمّن هذا الانتصار للشريف الإمارات التي فتحها، لعدم وجود أي جار قوي، فبدأ إذ ذاك ينعم بالسلام، وضاعف دخله، وأغنى رعاياه، وعامل معاملة حسنة المسيحيين الذين يتجرون في هذه البلاد، وأعطاهم ضمانات. ولما عُلم ذلك تسارع العديد من التجار الى هذه المناطق لاقتناء السكر من مملكة تارودانت، حيث أمر بتشييد آلات لصنعه، كانت كل واحدة منها تكلفه سبعة آلاف وخمسمائة مثقال في السنة، والسكر المصنوع فيها خمسة عشر ألف مثقال، وحققت بعد ذلك ربحا آخر عظيما أضر كثيرا بالمسيحية. ذلك أن الانجليز، حين علموا بأنهم سيحصلون في مقابل الأسلحة على السكر بأبخس ثمن، حملوا الى هذه البلاد كمية عظيمة من السيوف والبندقيات والمسدسات الى درجة أنها أصبحت رخيصة الثمن، مثلما هي عليه في إسبانيا. وفضلا عن ذلك حرص الشريف كل الحرص على تطبيق العدالة التي لم تكن حتى ذلك الحين تمارس في ممالكه على أحسن وجه. وقد جاءه مغربي في ذلك الوقت يشتكي بأنه سرق هريه المملوء شعيراً، ولم يكتشف بعد سارقه ولو أنه أخبر الحاكم بذلك. عند ذاك أمره الشريف بأن يأتيه بشيء من الشعير إذا كان قد بقي منه شيء، فأتاه به، فقال له إذا كان يشك في أحد فليذهب أولا الى السوق، فإذا رأى شعيرا كشعيره أتاه منه بحفنة. فلم يلو المغربي على شيء حتى ذهب الى السوق، ووجد من شك فيه يبيع الشعير، فتظاهر بأنه يريد شراءه وأخذ منه حفنة حملها الى العاهل. أمر الشريف حينئذ بأن يحضروا إليه الشعير الذي احتفظ به، ثم عد مائة حبة من هذا ومائة حبة من ذاك، فوزنهما فإذا وزنهما واحد، علاوة أن الشعير يبدو متشابها تمام الشبه. إلا أنه أراد أن يتثبت حتى لايقدم على شيء مجازفة بلا سند، أرسل أحد خدامه ليأتيه بحفنة من شعير آخر وزن منه مائة حبة أخرى، فلم تتفق الأوزان. عندئذ أمر اثنين من زبانيته (117)

---

(117) شبه غلمان (هامش) وقد كتب في الترجمة الفرنسية «سيطاريز». ولعلها تحريف لكلمة شطار.

أن يحملوا إليه الشخص الذي سيعينه لهما المغربي، والذي يبيع الشعير المماثل للشعير المسروق، فأسرعا في الحين الى السوق، وقبضا على بائع الشعير المتهم . ولما سأله الملك من أين أخذ الشعير الذي كان يبيعه، اضطرب لهذا السؤال، واعترف بأنه سرقه لجاره المتظلم . فسلمه الملك في نفس الوقت الى العدل، وحكم عليه بأن يجلد مائتي جلدة، فنفذ الحكم وعلق الشعير في عنقه . هكذا كان الشريف يقضي بين الناس، وهكذا استرجع المغربي شعيره.

الفصل 54

دخول دييگو دي طوريس الى مملكة مراكش وذكر بعض ما جرى من أحداث حينئذ

في ذلك العهد (118) دخلت الى مملكة مراكش التي كانت آنذاك مزدهرة، رغم أنها كانت تحت سيطرة ملك جبار . وحيث إنني منذ الآن لن أكتب هذا التاريخ معتمدا على مذكرات الغير، ولن أذكر إلا ما أكون قد شاهدته بنفسي، فربما يكون من اللائق أن أذكر المناسبة التي حملتني على الذهاب الى مملكة فاس .

كنت بمدينة أموسة، في بلاد كامبوس، بدار أبي فرانسوا دي طوريس. وما أن أدركت الثامنة عشرة من عمري حتى تاقت نفسي الى السفر، فأطلعت أبي على مشروعي، واستأذنته في تنفيذه . ولما أذن لي ودعا لي بخير ذهبت الى إشبيلية (119) عازما على مغادرة إسبانيا في أول مناسبة .

---

(118) سنة 1546 (هامش)

(119) سنة 1544 . (هامش)

وهناك عقدت علاقات صداقة مع نيكولا نونيز، الذي كان صهره (120) في بلاد البربر يعمل على افتداء الأسرى في خدمة صاحب السمو الملك دم يوحنا الذي كافأه بأن خلع عليه مسوح الرهبانية، فأقنعني نيكولا بالذهاب الى مراكش لإعانة صهرة في أعماله، التي ستؤهلني لأخلفه فيها متى قدرت على ذلك، رغم صغر سني . قبلت هذه النصيحة التي لم تغنني كثيرا، إذ يستحيل على رجل يذهب ليؤدي الفديات أن يصبح غنيا وهو يرى بعينيه هذا القدر من البؤس الذي تجب معالجته. وفعلا، فإن سلفي الذي كان غنيا موسرا عند ذهابه الى بلاد البربر، عاد منها وعليه دين قدره سبعة آلاف مثقال، ألفان لمولاي الحران ابن الشريف، وخمسة آلاف لابراهام وإسحاق كبيصة، وهما أخوان يهوديان . غير أنني لم أندم قط على اقتفاء أثر الرجل المستقيم الذي خلفته، لأنني أعتقد أنني أخدم الله في مهمتي، وكفرت بها عن جزء من ذنوبي . وأخيرا أبحرت من قادس (121) في سفينة كراڤيل كان على متنها دييكو دي رووا، فساعدتنا ريح طيبة، ونزلنا بمازيغن (الجديدة) كان حاكمها لويس دي لوريرو فاستقبلني استقبالا حسنا لما اطلع على مشروعي . وبعد ثلاثة أيام على متن نفس الكراڤيل حاذينا ساحل أسفي، فنزلت فيها، ثم ذهبت الى مراكش، حاملا ما أتيت به من بضائع . لكن الحرارة كانت شديدة آنذاك في بلاد البربر، حتى إننا شربنا كل الماء الذي كان عندنا، واضطررنا الى حفر بئر في الرمل للعثور على الماء حتى لا نموت عطشا أثناء الطريق .

دخلت الى مراكش يوم عيد القربان (122)، ونزلت بالفندق (123) في

---

(120) فيرناند گوميز دالمدوّر (هامش)

(121) سنة 1546 . (هامش)

(122) أوائل جوان (هامش)

(123) في النص الفرنسي : (البونديڤا)

حي النصارى، حيث خصص لي فيرناند گوميز استقبالا حسنا، فسلمت إليه ما جئت به . ولم يكن الشريف في ذلك الوقت مشتغلا إلا بسياسة مملكته، لا يتحدث عن محاربة أحد ما عدا لويس دي لوريرو، الذي كان حاقدا عليه من جراء الهموم التي كان يسببها له كل يوم . وقبل مغادرتي إسبانيا بقليل، كان الشريف عازما على تخريب أزمور، لأنه يئس من الاحتفاظ بها لقربها من مازيغن التي لا تبعد عنها الا بفرسخين . وللحيلولة دون تنفيذ مشروعه، ذهب إليه ثلاثة شيوخ هم سيدي عبد الله بن ساسي، وسيدي محمد الكوش، وسيدي كانون . وكانوا مشهورين بالصلاح، لا سيما الأول الذي كان الناس كلهم يسارعون لتقبيل أذياله إذا دخل المدينة، وحتى الشريف كان يقوم من سريره لاستقباله . وأغرب من هذا أن الفقراء كانوا يطلبون الصدقة باسمه عبر الأزقة، كما لو كان ذلك لوجه الصالح . فاقترح هؤلاء الشيوخ على الشريف أن يدخلوا الى أزمور، وأن يحموها من المسيحيين بكرامتهم، أو بعبارة أصح "بسحرهم" . (124)

كان لويس لوريرو قد عزم منذ عدة أيام على نهب هذه المدينة، وعندما اطلع على ماوعد به الشيوخ تقوى عزمه، فحشد قواته وخرج ذات ليلة من مازيغن، وعند طلوع النهار كان أمام أزمور، لكنه لم يستطع تهييء هذه العملية بقدر كاف من السرية حتى لا يفطن سكان المدينة لمجيئه، بحيث إن جل السكان والحامية فروا عند منتصف الليل، دون أن تحبسهم وعود الشيوخ . ومنذ الصباح دخل لويس دي لوريرو بجنوده الى

---

(124) هذه الحادثة المتعلقة بأزمور صحيحة تاريخيا إلا أن المؤلف حرفها سياقا وتأويلا. فالشيخان ابن ساسي والكوش دخلا الى أزمور لما أخلاها النصارى ليحرساها حتى يأتي مدد المسلمين ومن يعمرها منهم، فرجع النصارى إليها وأسروهما الى أن افتديا بألفي ريال ومائتي ريال . انظر أ . الناصري، الاستقصا، 20:5

المدينة، دون أن يحضر أي مغربي لحمايتها، ولا حتى الشيوخ الذين وجدهم جالسين على حصير وهم يذكرون أورادهم، ويهيئون سحرهم، فأسرهم مع كل من كانوا معهم . ثم نهبوا ما لم يستطع الغاربة حمله من أمتعتهم، وعاد لوريرو الى مازيغن بجميع الأسرى، فتفاوض الشيوخ على أداء اثنين وعشرين ألف مثقال لفديتهم . وبعد أن تركوا سبعة من أولادهم كرهائن، عادوا الى مراكش، حيث استقبلهم الملك استقبالا حسنا . والتمسوا منه أن يتفضل فيسمح لهم بالتسول، لكي يحصلوا على ما يجب أداؤه لافتدائهم، فلبى رغبتهم وتصرفوا في ذلك بمهارة كبيرة، حتى إنهم جمعوا من المال ما أدوا به فديتهم وأصبحوا من الأغنياء . وبعد ذللك أرسل الشريف أربعة آلاف فارس ليشنوا الغارة على مازيغن، لكن لوريرو هزمهم بمائة وثمانين، وطاردهم الى آبار العيون على بعد نحو ثمانية فراسخ من مازيغن . أحدث هذا النبأ الرعب في مراكش، بحيث إن عددا من سكان المدينة هربوا منها بنسائهم وأطفالهم وما استطاعوا حمله من أمتعتهم، كما لو كانت قوات المسيحيين كلها على الأبواب . وفي يوم الغد ذهبت لتقبيل يدي الشريف فاستقبلني بأدب .

الفصل 55

رغبة الشريف في أخذ الثأر من لويس لوريرو وأمره بشن الغارات على مازيغن

لما أراد الشريف أن يأخذ ثأره من أجل الضرر الذي ألحقه به لوريرو، أمر أحد قواده (125) أن يقيم بمقربة من مازيغن مع ستة آلاف من

---

(125) حمو داود (هامش)

الجنود المسلحين بالرماح (126) ويعمل على استدراج لوريرو الى البادية للقبض عليه أو قتله، واعدا إياه على ذلك بمكافآت كبيرة . وأرسل معه أيضا مغربيا شجاعا (127) وأمره أن يهاجم لوريرو شخصيا . وصحبهم عدد من الفرسان ورجال الحاشية ليشهدوا العملية وليتملقوا الشريف .

وصل هذا القائد الى ضواحي مازيغن مع هؤلاء الجنود، وبعد أن استقر في كمين أرسل مائتي فارس ليجتاحوا البلاد ويعطوا الانذار . ولما أخبر لوريرو بوجود عدائين، وأنه ليس هناك غير المهاجمين الظاهرين خرج على رأس نحو مائة وعشرين فارسا وثلاثمائة جندي، وتوقف خارج الحواجز كأن النصر مضمون له . فناوش المغاربة المسيحيين متقهقرين بمهارة الى حيث كان قائدهم، وتوغل لويس دي لوريرو وجنوده أكثر فأكثر في البادية . خرج البربر فورا من كمينهم، وهاجموا المسيحيين وهم يصيحون صياحا عاليا وطوقوهم من كل جانب . طلب عدة جنود من لوريرو، عندما فطنوا بمكر العدو، أن ينسحب ليمكن أن يفعل أكثر، أو على الأقل أن ينسحب مع فرسانه ليتبعه المشاة شيئا فشيئا، ففقدان بعض الجنود خير من أن يفقد الكل، مادام من المستحيل إنقاذهم جميعا . لم يعمل لوريرو بهذه النصيحة، وجعل يقاتل ؛ وكذلك المغاربة الذين أصيب أولا قائدهم في ساقه برمية بندقية، الأمر الذي حفزهم على القتال بشدة، فبدأ أصحابنا يضعفون، ولوريرو يندم على جرأته . لذلك أمر عشرين فارسا أن يأخذوا ابنه الذي لم يتجاوز سنه الرابعة عشرة، وكان قد أخرجه معه من المدينة، لينقذوه ويخبروا أصحاب مازيغن بأن يستعدوا لاستقباله . فامتثل هؤلاء الفرسان في الحين وكان سبعة من بينهم قد أخلوا الطريق أمامهم واجتازوا الى ما وراء ساحة القتال . لكن

---

(126) سنة 1547 (هامش)

(127) قاسم (هامش)

النبيل الصغير مات في الساحة مع الآخرين . عند ذاك حمل المغاربة حملة هزموا بها أصحابنا، وأسروا وقتلوا معظمهم . لكن جميع أعيان هؤلاء البربر لم يكونوا حاقدين إلا على لوريرو فكانوا متجهين اليه بحماس . ولما عرف هذا القائد الشجاع أن موته أو أسره سيحقق نصر أعدائه، فإنه لاذ بالفرار (!) وكان ممتطيا ذلك اليوم فرسا أدهم سريعا جدا، فصوب رمحه ضد المغاربة، وفسح الطريق في وسطهم، وبدأ يركض صوب مازيغن فتبعه جميع أعيان المغاربة لا سيما واحد (128) كان يهمه الأمر، فلحق به لأن فرسه كان متعبا، فأهوى بسيفه على اللجام وقطع أحد العنانين وإبهام لوريرو مع أصبعين آخرين . ثم أقبل مغربي آخر فطعن عجز الفرس بالرمح . ولما أحس لوريرو بأنه جريح أجهد نفسه وابتعد قليلا عن البربر، لكنه سقط كالميت عند اقترابه من أسوار المدينة . ومن حسن الحظ، فإن لازار مارتان، وهو أحد الذين نجوا، عند ما رأى لوريرو مطاردا مدركا، أسرع إليه بفرسه لإغاثته، فنزل وساعده على الركوب وحماه برمحه حتى يتمكن من الفرار، وأما هو فقد أسر . ولما وصل لوريرو الى باب مازيغن وجده مفتوحا، لأن جميع النساء والأطفال كانوا قد خرجوا من المدينة وهم يبكون ويبحثون عن آبائهم وأزواجهم . وكانوا في حالة من الغيظ والجزع بحيث لم تنفع أي وسيلة في إدخالهم مع وجود المغاربة على الأبواب . وللحصول على ذلك أمر لوريرو بإغلاق الأبواب .

وقد أكّد لي لازار مارتان بأن المغاربة لو تقدموا أكثر لدخلوا مختلطين مع السكان، أو لأسروا على الأقل عدة نساء وأطفال . لكنهم لم يستغلوا حسن حظهم، فأطلق عليهم المسيحيون نيران المدفع لإرغامهم على التراجع عن المدينة فانسحبوا . وقد قيل لي إن جميع الذين خرجوا من

---

(128) هو قاسم .

مازيغن لمحاربة البربر يوم أن أعلن النفير بها، قد اعتراهم قلق ورعب شديد حتى تغيرت وجوههم، وكأنهم تيقنوا أنهم سيموتون . وسقط في هذه المعركة ما يزيد عن أربعمائة مسيحي، بينما لم يبلغ عدد قتلى المغاربة عشرين . ولما دخل لويس دي لوريرو الى مازيغن، وأخبر بموت ابنه حمد الله على ذلك . وقبل أن يعالج ذهب لمراقبة جميع المدافع التي كانت على الأسوار، فرتب كل شيء، وسهر طول الليل مع جنوده، دون أن يظهر ضعفا في مصابه .

الفصل 56

إبلاغ القائد حمو بن داوود الخبر الى الشريف

وصل خبر هذا الانتصار الى مراكش، وأنا أتفاوض مع الشريف . وكان القائد قد بعث إليه بتفاصيل ما حدث، مع رأس ابن لوريرو . فسر الشريف بذلك سرورا عظيما، إلا أنه امتنع من مشاهدة الرأس قائلا إنه كان يفضل أن يرى رأس أبيه، أو يرى الابن أسيرا فقط . وبالتالي كانت المدينة كلها منتبطة، لكن حمو ابن داوود لم تكن له شهرة كبيرة لدى البربر بعكس لوريرو الذي كان يتمتع بتقدير كبير عندهم حتى إنهم كادوا لا يصدقون ما قيل لهم عن هزيمة قومنا، بل كان منا من لم يصدقه بذلك بتاتا . وعندما أخبر قائد الشريف بأن عددا من الناس يشكون في هزيمة لوريرو، أمر بقطع رؤوس جميع المسيحيين الذين بقوا مجندلين في ساحة المعركة، وجعلها في غرارات (129) وبعث بها الى مراكش حيث وضعت بساحة القصر على مرأى من جميع الناس. وكنت حاضرا هناك ذلك اليوم مع آخرين كثيرين لاستطلاع

(129) نوع من الأكياس . (هامش)

ولما علمت بذلك ورأيت غوغاء السكان يسارعون جماعات لرؤية هذا الأمر . ولما علمت بذلك ورأيت غوغاء السكان يسارعون جماعات لرؤية هذا المشهد، لم أجرؤ على المخاطرة بالمرور الى ما وراء ذلك، فرجعت عبر أزقة ملتوية الى ديوان الجمرك . ورغم السرعة التي قمت بها، لم أستطع الالتحاق به عاجلا، حتى كان بعض صغار البربر يدحرجون أمام الباب خمسة رؤوس، وهم يتسلون بشدخها بالحجز، ويهينون المسيحيين بعبارات السباب الجارح . ولما شاهدت ذلك التجأت الى دكان مغربي (130) كان من أصدقائي ومن الذين يتعاملون مع الامير . فخرج معي فورا، وتناول عصا أخذ يفسح بها الطريق، ورافقني حتى باب الديوان، فدخلت من الباب السري وأخذت معي الرؤوس التي كانت في العتبة، فدفناها بعد ذلك بحزن كبير ، ومكثنا ثلاثة أيام مغلقين علينا الأبواب لا نجرؤ على الخروج، لكن الله دبر الأمور وخفف قليلا من فرح البربر . ذلك أن من عادتهم إذا حصلوا على رؤوس المسيحيين أو جثتهم أن يخزوها بسكاكين أو مغارز، معتقدين أن لهم بذلك أجرا كما لو حضروا المعركة . فاتفق أن أخذت مغربية رأسا الى منزلها، وعندما اجتمع سكان الزقاق لينخروه تعرفت المغربية على أنه رأس زوجها عثر عليه في تلك الهزيمة . ولما شاع هذا الخبر في المدينة كلها، تحول الفرح حزنا، واتهموا القائد بأنه أرسل رؤوس المغاربة بمقدار عدد رؤوس المسيحيين ليظهر انتصاره، وبذلك لم ينل كل الشرف الذي ينتظره من هذه العملية . وبعد أن هدأت الحال، ذهبت مع فيرناند گوميز والمسيحيين الآخرين الى الشريف نلتمس منه الإذن بدفن الرؤوس، فساعدنا على ذلك عن طيب خاطر، وأظهر لنا عدم سروره من هذه القسوة، لكننا رغم مابذلناه من سرعة في العمل لم نستطع أن نعثر سوى على مائة وخمسين رأسا دفناها في سرداب. وبعد ذلك أخذ صغار المغاربة يحملون إلينا رؤوسا لافتدائها . وكان أحد الشيوخ الثلاثة الذين أسروا بأزمور، واسمه سيدي محمد الدقـاق (كذا)، قد

(130) يدعى تانگرنا (هامش)

حضر ذلك اليوم، وعلم بمقتل ابن لوريرو فأخذ جثمان ذلك النبيل الصغير، واقترب به من مازيغن، رافعا راية بيضاء علامة للسلم، وأرسل أحد غلمانه الى لوبيس دي لوريرو ليواسية على هذا الموت . فقدم له جثمان ابنه ليدفنه، وطلب منه أن يقبل التفاوض معه لتحرير أولاده . فقبل لوريرو هذا الاقتراح وأرسل في طلب ابنه، فدفنه باحتفال كبير وبأسف شديد، إذ كان طفلا صغيرا يؤمل منه الكثير كأبيه، دمث الأخلاق .

وبالتالي جرت المقابلة في الأسوار بأمان من الجانبين، وكان الحديث فيها حول الترتيب العاجل للفديات، ورجا لوريرو من الشيخ أن يسعى ليعامل المسيحيون الذين لجوا من المعركة معاملة حسنة لا سيما لازار مارتان. وكتب بواسطة هذا المغربي الى فيرناند گوميز، موصيا إياه بنفس الطريقة أن يفتدي لازار مارتان، على أن يدفع من أجله حتى ألف مثقال، ثم افترقا، وعاد الشيخ الى مراكش .

الفصل 57

دخول حمو بن داوود الى مراكش في أبهه

غضب القائد حمو بن داوود غضبا شديدا لتشككهم بمراكش في صحة انتصاره ولعدم تقديره حق قدره . ولكي يعطي فكرة مطابقة لما كان يتصوره، قام بدخول رسمي الى مراكش . كان جنوده يشكلون صفين، ناشرين الرايات تصحبهم موسيقى وأبواق تسمع عبر المدينة كلها . وكان في وسط جنوده نحو خمسة وعشرين أسيرا، كل واحد منهم على بعير . لكن لما كان لازار مارتان أعلاهم مركبا ورأسه أصلع فإن السكان خصوه بالسباب أكثر من غيره . وبالتالي كان كل فارس من فرسان حمو بن داوود ناشرا ما حصل عليه من غنيمة من يد الأعداء، سواء الأسلحة أو الملابس . وبهذا النظام، وخلفهم أهل مراكش، ذهبوا الى القصر ليقبلوا يدي الشريف ويقدموا اليه الأسرى والغنيمة، فاقتسمها مع القائد والضباط الآخرين .

ويأتي بعد ذلك قاسم الذي أصيب برمية بندقية في كتفه، وقد زرته فحكى لي عددا من تفاصيل المعركة . قال لي إنه كان من السهل عليه أن يقتل لوريرو، لكن لم يكن يريد سوى القبض عليه ليقدمه هدية الى الشريف، وإنه لم يقطع أحد عناني فرسه إلا للحيلولة دون التحكم فيه ليتم أسره بعد .

عند ذلك شرع فيرناند گوميز يتفاوض في فدية لازار مارتان، على أساس أن يفتديه بأربعمائة مثقال، لكن الشريف طلب عشرة آلاف قائلا إن تلك الفدية ضئيلة إذا مااعتبر أن لازار مارتان قد أنقذ حياة لوريرو وأضاف أنه لو وقع لوريرو في يده لما حرره بأي ثمن ولأذاقه سوء العذاب . إلا أنه مع تعصبه بالنسبة للازار مارتان، فإن هذا الأخير تمكن من الفرار، بشرف كبير كما سأقص ذلك، دون أن يدفع أي شيء .

الفصل 58

أسير يتحايل بحذق ويفر مع لازار مارتان وبعض رفاقهما الآخرين

إن الخندق المخصص لأسرى مراكش ليس عميقا جدا، والسواري والشرفات التي يتبرد فيها السجناء أو يدفؤون بالشمس تكان تكون في الخارج على مستوى الأرض . فاتفق ذات يوم أن أقام بها سجين رواقا صغيرا في إحدى زوايا الشرفة على أساس أن يكتشف حيلة للخروج، موهما الحرس بأنه يصعد الى هناك لأنه لا يستطيع المقام في الأسفل، ورشا بعضهم حتى لايشكوا في شيء . وفي أثناء ذلك صنع حديدة مقوسة على شكل معزقة لتحقيق مخططه، وربطها بقضيب قصير . كان في كل ليلة يحفر قليلا من السور، حتى جعل فيه ثقبا تمر منه برتقالة، وكان يجوف شيئا فشيئا من الداخل كل ماكان حوالي الثقب دون توسيع من الخارج، ومن غير أن تنفذ حديدته الى الجانب الآخر للسور . وفي كل صباح ينظف جميع

التراب المستخرج منه، ويضعه في جراب كان يحمله معه عندما كان يذهب الى العمل وفيه طعامه، تاركا الثقب مغلقا برسوم من كاغد، كانت من عمل بعض الأسرى المتدينين . وهكذا، ورغم أنه لم يكن ينزع في كل ليلة كثيرا من السور، إلا أنه نظرا لكونه عمل في ذلك أكثر من سنة، أنجز ثقبا ملائما بحيث إنه لما قاس عرض السور لم يترك فيه سوى حوالي أربعة أصابع من سمكه . وبعد أن أنهى عمله، منعه من إشهاره خوفه من وجود أشخاص قليلي الوفاء .

وفي ذلك الحين أسر لازار مارتان فربط معه علاقات المودة، وبعد ثمانية أشهر أطلعه على سره . فعزما على الخروج، وتزودا من أجل ذلك بما يلزمهما في الطريق وأطلعا بعض الأسرى الآخرين على هذا المشروع . اختاروا ليلة حالكة الظلمة، وأزالوا الأغلال من أيديهم، وذهبوا الى الثقب، وضغطوا على الحاجز الذي لم يكن إلا من جبس، فحطموا القشرة وخرجوا . هرب أحد عشر أسيرا، وكان بالامكان ألا يبقى أحد هناك، لولا أن صاح أحدهم بحرس الخندق، وهو مذعور، إن الأسرى يفرون . عند ذلك فتح الحراس الأبواب ليدخلوا الى المكان الذي يوجد فيه العبيد الآخرون . وفي هذه الأثناء تسرب بعضهم الى أسفل الأسوار، وعلى إثر بعض الخلافات حول الطريق التي يجب سلوكها قاد منهم لازار مارتان ثمانية فقط، فساروا بقية الليل واختفوا النهار كله، فوصلوا في الليلة الثالثة الى أبواب مازيغن، حيث استقبلوا استقبالا حسنا، وخصص لوريرو استقبالا فاخرا للازار مارتان . وأما باقي العبيد فإنهم ضلوا الطريق وألقى عليهم القبض على بعد ثلاثة فراسخ من مراكش .

وفي اليوم الذي فر فيه الأسرى عوقب معظم الباقين لأن الشريف عضب لفرار لازار . أما الذين ألقي عليهم القبض فقد جلدوا بقسوة، وكويت بطونهم وأذقانهم بمشاعل حامية، بحيث لم تعد لهم صورة بشرية . ولا شك أنهم كانوا سيقتلونهم ضربا، لولا أن أسرعت أنا وفيرناند گوميز الى مكان تغذيب هؤلاء المسيحيين المساكين . وحينما حضر فيرناند، وكان محبوبا لدى من كلفوا بمعاقبتهم، رجا منهم أن يشفقوا على هؤلاء العبيد المساكين . فكفوا عن الإساءة إليهم، ولم نفكر نحن بعد إلا في تضميد جراحهم .

الفصل 59

فيرناند گوميز يفتدي بعض النبلاء مقابل الشيوخ فيتوجه الى البرتغال ويخلفه المؤلف

سلم الشيخ الذي جاء من مازيغن الى فيرناند گوميز الرسائل التي كان لوريرو يطلب منه فيها أن يفاوض في فداء أنطوان دي ميلو، ولوبي بيخوطو، وفرانسو ماتشادو، مقابل أبناء الشيخ . وقد فاتح فيرناند گوميز الشريف (131) والشيوخ في هذه المسألة . فتم الاتفاق على أن يؤدي النبلاء للوريرو اثنين وعشرين ألف مثقال كفدية للشيوخ، ويؤدي الشيوخ نفس المبلغ للشريف كفدية للنبلاء . وأعطى الملك دم يوحنا لهؤلاء النبلاء مائة قنطار من شمع إسبانيا، بيعت باثني عشر ألف مثقال لمساعدتهم على أداء فديتهم، وخفض الشريف للشيوخ أكثر من ثمانية آلاف مثقال . وقد تقرر ذلك على أن يعود فيرناند گوميز الى لشبونة، مصحوبا بلوبي بيخوطو، وأن أقيم أنا، وأنطوان دي ميلو، وفرانسوا ماتشادو كرهائن الى أن يعود أولاد الشيوخ بعد ستة أشهر .

وهكذا خلفت فيرناند گوميز . وأزلنا في الحين الأغلال من أيدي هؤلاء النبلاء، وكانت تزن أكثر من أربعين رطلا، يحملونها منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، تألموا أثناءها كثيرا، وخدموا الحدادين دائما تقريبا . وبعد ذلك ودع فيرناند گوميز ولوبي بيخوطو الشريف والشيوخ وانصرفوا مصحوبين ببعض المغاربة الذين كلفوا بإرشادهم في الطريق الى مازيغن، حيث استقبلوا بحفاوة كبيرة من لدن لوريرو، الذي زوج إحدى بناته من بيخوطو .

---

(131) سنة 1547 . (هامش)

وعبروا من هنالك الى لشبونة، لكن أبناء الشيوخ لم يستطيعوا العودة في ظرف ستة أشهر، بسبب رداءة الطقس، فوضعوا الأغلال في أيدينا أنا والنبلاء عند انصرام الأجل المحدد، وذلك ما كانوا يفعلونه كلما كان عليهم أن يرسلوا مغربيا الى مازيغن، أو أن تقلع باخرة من أسفي للتوجه الى إسبانيا. وقاسينا هذه الهموم مدة تزيد على ثمانية عشر شهرا حتى عاد أولاد الشيوخ، وانصرف أنطوان دي ميلو وفرانسوا ماتشادو . وفي ذلك التاريخ افتدي فانسانت ريسكادو، أحد شجعان النبلاء في هذه التخوم، مقابل أخي القائد بوذبيرة، الذي كان أسيرا في لشبونة .

وبعد أيام قلائل، بينما كان الشريف يؤدي الصلاة في الجامع مع عدد من الفقهاء والحراس والسكان، دخل رجل متوحش، ذو لحية كبيرة، وشعر طويل، مشوه الوجه حافي القدمين، فصعد منبر الخطيب على الفور وقال بأعلى صوته باللغة العربية : "إن المسيح حي، منتصر، وحاكم، وسوف يأتي ليحاكم الأحياء والأموات، وماعدا ذلك فإنما هو مجرد حماقة" . بهت الشريف وغضب من جرأة هذا الرجل، وأمر حراسه بقتله . لكن الفقهاء تشفعوا فيه ورجوا من الشريف أن يلغي أوامره، لأن هذا الشخص "مهبول" . لذلك فإنه طرد فقط من الجامع والمدينة . وذهب من هناك الى مملكة تارودانت، فلما ذهبت إليها لقيته وحدثته، فعلمت أنه من تروكسيلو، وأنه ندم على إسلامه وجعل يطلب من الله أن يرحمه وأخذ هكذا يكفر عن ذنوبه . كان رجلا عاقلا يرغب في الرجوع الى إسبانيا، ولا يخاطب أحدا إلا بإشارة . غير أنه أَسَرَّ إلي خفية . ولما استفسرته عن سر سيرته، أجابني بأن مقصوده أن يقول الحق علنا لهؤلاء المسلمين (132)، وأنه إذا عذب في سبيل الله، فسيكون جد مرتاح . وأرشدته الى مايلزمه القيام به للرجوع الى إسبانيا . فودعني ولم أعرف له خبرا منذئذ، بالرغم على بحثي الشديد عنه .

---

(132) عبر عنهم - كعادته - بالكفار .

الفصل 60

تظاهر الشريف بالقضاء بالعدل بين الناس

وذكر عملين شنيعين حدثا بمراكش

كان الشريف يشيع بأن العدل سيسود مملكته كلها، وأنه لن يسمح للمجرمين بأن يقيموا بها دون عقاب . وبناء على ذلك كان يأمر بقطع رؤوس أكابر المدينة وأمبراطوريته شيئا فشيئا، خاصة من كانت لهم علاقة بأخيه وابن أخيه . لقد أدى به هذا الى إلقاء القبض على المنصور، وهو قائد غني شجاع، له علاقة متينة بمراكش وميل للمسيحيين . كان من أقرب الناس الى مولاي زيدان ابن أخي الشريف . ولكي يتبين أن هذا القائد كان شجاعا حقا، سأروي أحد أعماله . حدث ذات يوم أنه ذهب في ألفين من حاملي الرماح لاجتياح ضواحي أزمور حين كانت تحت سيطرة المسيحيين : وما كاد يقترب من المدينة حتى أرسل بعض الطلائع الى الأمام، واستقر في كمين. وفي هذه الأثناء، خرج بعض الفرسان ليناوشوا رجاله، وكان من بينهم نبيل (133) مقدام شجاع . ولما اشتبك القوم خرج المنصور من الكمين مع باقي الفرسان، مطلقا العنان لفرسه، واختار هذا النبيل ليبارزه رأسا لرأس، وأمر أصحابه كلهم بالتراجع . تقاتل هذان البطلان بشجاعة، وكسرا على جسديهما بعض الرماح . لكن المنصور في الأخير أصاب المسيحي في ركبته بطعنة شديدة شقت ساقه، فوضعه على سرج فرسه، وأخذه أسيرا الى مراكش، وسلمه الى الشريف الأكبر .

---

(133) هونينسانت ريسكادو . (هامش)

ولما لاحظ الشريف الأصغر الجبار تصرف المنصور ظن أنه متواطئ مع أخيه ومولاي زيدان، فشاع الخبر آنذاك بأنه عثر عليه وهو حامل رسالة بدون إمضاء، وذلك باطل، فألقى الشريف الأصغر القبض عليه وسجنه في دار سيدي موسى الحاكم (134) فسعى أهله فورا لدى الشريف ملتمسين منه أن يستمع الى قول المنصور، ويعفيه من مصيبة السجن إن لم يكن مجرما . فوعدهم الشريف بأنه سينصفهم وصرفهم بكثير الأمل، لكنه إنما فعل ذلك ليخدعهم، إذ كان يخشى أن يطلق سراح المنصور . ولما لم يجرؤ على قتله بسبب أهله، فضلا عن عدم مبرر لذلك، فإنه أمر سيدي موسى الذي كان متواطئا معه، أن يزج به ذات ليلة في إحدى أفنية السجن ويقتله، ثم يقذف بجثته من أعلى أسوار الفناء المفضية الى زقاق صغير، ليظن الناس أنه سقط وهو يحاول الفرار . وفي غداة الغد انتشر الخبر بأن المنصور هرب، فاستولى الحاكم على جميع أمواله بأمر من الملك، وأرسلها الى قصر هذا الجبار، الذي تشكك الناس في أنه تسبب في موت هذا القائد . وفي نفس الوقت سيق الى مراكش أحد عشر شيخا من جبل الأطلس سجناء، وهم الذين كانوا يتولون الشؤون المدينة أثناء السلم، ويتولون قيادة جميع المقاتلين خلال الحرب . قيل إنهم سجنوا لعدم قبولهم بعض الإتاوات التي فرضها الشريف على البلاد . ولكن سواء كان الأمر هذا أو ذاك فإنهم بعد أن قضوا مدة في السجن، قطعت رؤوسهم وسط السوق، حيث كان جمهور غفير من سكان الضواحي الذين أتوا ذلك اليوم لحضور السوق . والذي ألمني أكثر هو أنه كان من بين المعدمين أب وابنه، فكان كل واحد منهما يطلب أن يقطع رأسه هو الأول : الأب حتى لايرى ابنه يموت، والابن حتى لايفجع وهو يرى قتل الذي وهبه الحياة، لكن لم تنفع التوسلات ولا الدموع ولم تلن قلوب هؤلاء المتوحشين، فنفذ الإعدام وفق الحكم الصادر .

---

(134) أي الحاجب الأول . (هامش)

الفصل 61

تنصُّر مغربي في مازيغن وما ترتب عن ذلك

في أعقاب هزيمة لوريرو (135) أمره الملك دم يوحنا بالذهاب الى تانيار، حيث مات في السنة الموالية في معركة ضد المسلمين، بعدما أدى مايلزم قائدا مقداما أن يؤديه في سبيل ربه وأميره، وأرسل الى مازيغن خلفا له تريستيان دي أطايدي كحاكم لها . فقام مقام سلفه همة وبسالة، وشرع في تحقيق أعمال باهرة ضد الأعداء، بواسطة مغربي تفانى في خدمته بنية أن يصح قائدا وينتصر . ومع ذلك فإنهم وإن لم يعمدوه حتى يتأكدوا من أنه مقتنع تماما، أسموه تريستيان دي أطايدي باسم الحاكم ولقنوه الديانة . كان رجلا يقظا حاذقا مقداما جريئا، نهب جيرانه في غارات عديدة، وكان يسلبهم قطعانا تارة، وأشياء أخرى نفيسة تارة، الأمر الذي أكسبه شهرة وجعله مهيبا، بحيث إن الشريف كان يتلقى دوما شكايات ضده . لكن الذي أغضب الشريف أكثر هو أن تريستيان جاء الى مراكش يوم عيد الأضحى (136) وهو عيد يحتفل به المغاربة . وبينما كان الشريف والفقهاء والنبلاء وأكثر من مائة ألف نسمة في السوق المجاور (137) لباب المدينة، وهم يحتفلون بالعيد، خرج تريستيان من بين جمهور السكان آخذا معه ابنا وابنة لأحد أهل مراكش، وذهب بهما الى مازيغن على مرأى من الشريف وذلك الجمهور

---

(135) سنة 1547 (هامش)

(136) سماه عيد الفصح "Paques"

(137) لعله يقصد مصلى العيد خارج المدينة .

الغفير . أغضبت هذه الجرأة الشريف، إذ أنهم لم يفطنوا لذلك ولو في المشور الذي يعقد فيه مجلس الملك، لأن تريستيان كان يدخل إليه متنكرا في زي خادم، فيرى ويسمع كل ما يجري به وينقل خبره الى مازيغن . لذلك أمر الشريف جميع أعراب دكالة بأن يمسكوه ويسلموه إليه، واعدا مَن يتمكن منه بمكافأة جيدة . لكن ذلك كله لم يمنع تريستيان من متابعة حيله، الى أن خرج ذات ليلة من مازيغن وقد تلقى الوعد بأنه سيعمد عما قريب، فوصل الى دوار سرق منه بعض إناث الخيل دون أن يشعر به أحد، وأخذ يسوقها عبر مسالك ملتوية نحو مازيغن، لكن عندما مر بالقرب من دوار آخر، أخذ فرس يصهل عندما شم رائحة الحجُور، وبما أن الناس كلهم كانوا يسترقون السمع فقد أشعر جميع الدواوير المجاورة بالبحث عن تريستيان، فوجدوه أخيرا وأمسكوه، وذهبوا به الى مراكش . سأله الشريف لماذا ذهب الى المسيحيين وهو مغربي من رعاياه، فأجابه بحرية أنه وإن كان مغربيا أصلا وتابعا له فإنه يعتقد الآن بأنه مسيحي من رعايا ملك البرتغال، وأنه حقا لم يعمد بعد، لكنه وعد بذلك، ويأمل أن يعيش ويموت على ملة المسيح التي لاخلاص بدونها .

غضب الشريف لهذا الكلام غضبا شديدا وأمر بقطع رأسه، فسيق الى السرق، حيث أسرع جمهور غفير من السكان فأقاموه على ربوة وسط الساحة المعدة لمثل هذه الإعدامات، وجعلوا يقطعون رأسه من خلف ببطء كبير، طالبين منه أن يذكر محمدا : لكنه كان ينادي المسيح ومريم العذراء بكل قواه، ويسلم نفسه إليهم . وأخيرا أخذ بيده شيئا من الدم السائل منه ورماه على رأسه، مضيفا بأنه وقد عمل كل مااستطاع ليعمد، فإنه يركن الى رحمة المسيح الذي سيتلقى دمه كتعميد، ومات على هذه الحال . أخذ المغاربة يلعنونه، والأطفال يرمونه بالحجر ويسبونه، وحينما نفّد الإعدام في حقه أبلغوا الشريف بأنه مات مسيحيا . وأما نحن الذين حضرنا التغذيب، فحمدنا الله عليه، ثم ذهبت أستعطف الشريف حتى يأذن لنا بتسلم جثته لدفنه على الطريقة المسيحية لكونه كفر عن ذنبه بحياته ومات مسيحيا، لكنه رفض قائلا إنه لابد أن يأكله الكلاب . وهكذا بقيت جثة تريستيان الشجاع أربعة أيام في الساحة، لم يقترب منه أثناءها أي كلب . وبعد ذلك عملت على

أن يدفن الجثة ليلا أحد غلمان (138) الحاكم سيدي موسى، لكنني لم أتمكن من الجثة إطلاقا . تلك كانت موتة تريستيان المتحمس، الذي كان سيصلب حسب الطريقة المعمول بها في هذه البلاد، لو لم يمنع الشريف قبل بضعة أيام، بطلب من الفقهاء، هذا النوع من القتل . ومنذ هذا الحظر، فإنهم أخذوا يشنقون أو يقطعون الرؤوس . وإليكم السبب في ذلك :

عندما صلب ثلاثة مغاربة (139) في شهر الصيام، وأنزلت الجثث، بقيت الصلبان كلها قائمة وصار بعض المسيحيين الذي يمرون بها ينحنون أمامها تذكارا للمسيح، فظن الفقهاء أن هذا النوع من تعظيم الصلبان كان شؤما عليهم وسببا في أن السماء لم تمطر منذ أكثر من ثلاثة أشهر، حتى إن جميع البذور تلفت في الأرض . فأسروا بفكرتهم الى الشريف الذي أمر بتحطيم الصلبان إرضاء لهم . وحدث بعد أيام قلائل صدفة أن سقطت أمطار غزيرة اهتزت لها الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فظن المغاربة أن الله أرسل عليهم المطر لأنهم أزالوا الصلبان، وخطب الفقهاء بذلك، وأمر الشريف منذ ذلك العهد ألا يقام أي صليب لإعدام أحد . كان ذلك تعذيبا قاسيا، إذ من المستحيل أن تصغي لمن يموتون مصلوبين دون أن تأخذك الشفقة . ولا أستطيع أن أستعيد ذكرى المغاربة الثلاثة الذين رأيتهم يصلبون دون فزع ولا دموع . فقد أوثقوهم وهم عراة تماما من وسط جسمهم وسيقانهم الى جذع الصليب، وقد بسطت أذرعهم من كلا الجانبين، وشعر رأسهم مربوط بحبل معلق في أعلى الصليب . إنهم حقا يموتون على هذه الحال بقساوة أكثر من أي نوع آخر من الموت . وغالبا ما يذوون مدة طويلة .

---

(138) يدعى إبورك . (هامش)

(139) سنة 1547 (هامش)

الفصل 62

محاولة الشريف الاستيلاء على مازيغن عن طريق الحيلة وإخبار المؤلف الحاكم بذلك

غضب الشريف لموتة تريستيان، لأنها أثارت استنكار المغاربة، فعزم على الانتقام من تريستيان دي أطايدي حاكم مازيغن لكنه لجأ الى الحيلة لينجح مشروعه . وفيما يلي الكيفية التي اتخذها . كنت أنا وفيرناند گوميز قد استبدلنا ثلاثة نبلاء (برتغاليين) كانوا بمراكش بأولاد الشيوخ الذين كانوا في لشبونة وسينقلون الى مازيغن . وللتعجيل بهذه المسألة، كان الشيوخ يرسلون أحدهم (140) الى مازيغن . كان حاكم المدينة يسلم إليه جواز مرور، حسب مااتفق عليه الشريف ولوريرو . وكان هذا الاتفاق ينص على أن تقوم الهدنة، مادام الشيخ في مازيغن قصد التفاوض، وألا تشن غارات في الناحية، وأن يسمح للمسيحيين بالتجول بحرية، بحيث إن قومنا كانوا يخرجون إلى البادية مادام ذلك الشيخ بالمدينة . فكانت الخديعة هي أن يرسل الشيخ الى مازيغن ويسمح للمسيحيين بالخروج، ثم يقع الهجوم عليهم ويؤخذون أسرى، فإذا جاء أصحاب المدينة لإغاثتهم قام كمين فيه عدد من الرجال بقدرما يقاومهم بعضهم، بينما يهاجم الآخرون المدينة واضعين السلالم على الأسوار . واستعداد لذلك أمر الشريف في سرية تامة بصنع ثمانية آلاف رمح، وإعداد السلالم مع بعض المشاة، وأمر الفقهاء بإيفاد الشيخ الى مازيغن، وكان علي أن أعطيه رسالة الى العامل حسبما جرت العادة بذلك ،

(140) سيدي خالد (هامش)

فطلبوها مني، لكنني رأيت ذلك غير مناسب في وقت يتأهب فيه ثمانية آلاف من الجنود المدججين بالسلاح دون أن أعرف السبب في ذلك . ولما كنت أعرف طبع الشريف، وأخبرت بأنهم يصنعون السلالم فكرت في أن هناك خديعة، وتأكد تخميني بالملابسات الظرفية. لذلك عزمت على أن أنقل خبر ذلك الى مازيغن . لكن لما لم يكن باستطاعتي أن أفعل ذلك إلا بواسطة الشيخ، والشريف كان يقرأ رسائلي قبل ختمها، فإنني لجأت الى الحيلة التالية: كتبت رسالتي ببساطة مذكرا بقضية الشيوخ، ومن بين الأسطر التي كانت على مسافة معقولة بعضها من بعض، كتبت بطاقة بنوع من سائل لايظهر تماما إذا محي أو جفف إلا بالنار . كنت أطلع في تلك البطاقة تريستيان دي أطايدي على شكي والدواعي التي جعلتني أثق به . كما طلبت منه ألا يدع أحدا يخرج أثناء مقام المغربي بمازيغن، وألا يسيء إليه من أجل ذلك حتى لايتخيل الشريف بتاتا أن الخبر جاء من مراكش . وشاء الله أن يقرأ تريستيان دي أطايدي الخط الغامض في رسالتي، ويأمر بواسطة البوق ألا يغادر أحد المدينة تحت طائلة الموت، وهو يخفي كل شيء عن الشيخ . ومع ذلك أمر بمضاعفة الحراسة في الأبواب وعلى الأسوار، وأعطى الإنذار الى أن ينكشف قصد العدو . وبعد يومين من إقامة الشيخ في المدينة، خرج المغاربة في ألفين من حملة الرماح، وهم يظنون أن سكان مازيغن سيخرجون منها وينتشرون عبر المنطقة كلها، بينما مكث الآخرون في الكمين . لكنهم علموا أخيرا بأن حيلتهم قد اكتشفت فعادوا الى مراكش دون أن يفعلوا أي شيء . ولما رجع الشيخ وانتشر الخبر بأن المغاربة اجتاحوا البلاد، شكوت الى الشريف بأنه خالف مااتفق عليه، فأجابني بأن ذلك وقع دون أمره، وأنه سيعاقب الأعراب على ماأحدثوه من أضرار .

الفصل 63

الشريف يسجن المسيحيين دون اعتبار إجازة الإقامة

لما رأى الشريف أن عملية مازيغن لم تنجح، وأنه لا يستطيع الانتقام من أصحاب المدينة عاجلا، دبر حيلة أخرى ضد المسيحيين، هي التالية . كانت عدة سفن تذهب كل سنة من ميناء سانت ماري الى رأس أكير لصيد السمك، لكن، منذ أن فتح الشريف المدينة أصبحت لا تفد إليها إلا بجواز إقامة، وأداء مثقال عن كل سفينة . واتفق أن عدة زوارق حاذت رأس أكير، فنزل منها نحو ستة وستين رجلا لاستطلاع البلاد والتزود بالماء والحطب، ألقى عامل المدينة القبض عليهم جميعا . وعلى الفور انطلق الذين كانوا في الزوارق الى عرض البحر، وكتب العامل الى الشريف يطلب منه أن يأمره بما يفعله بالذين حبسهم . وكتب لي أيضا المعتقلون لأشتكي الى الشريف باسمهم على ماأصابهم من ظلم قائده الذي خالف وعده وإجازة الإقامة التي أعطاهم إياها. وحينما توصلت بهذه الرسائل، ذهبت والإجازة في يدي لأرفع الشكوى الى الملك ضد العامل، ولما لاحظت عدم اكترائه بما أقول، شككت في أنه صاحب "الخديعة" . عند ذاك غيرت موضوع الحديث مبينا له أن كلمة الملك يجب أن تكون مصونة، وأنه من العار إخلاف الوعد، وأن ذلك يعد أحط نذالة عند الأمراء المسيحيين . فرد علي بشيء لائق به، وهو أنه بهذا الصدد ليس مسيحيا . لكنني أجبته بأن إخلاف الوعد شيء دنيء على الدوام عند جميع أصناف البشر، لاسيما إذا أقسم عليه اليمين علنا . فرد علي بغضب إنه يجب إلقاء القبض على عدو الله، وبأمر الله، وألا أحدثه بعد عن هذا كله . ثم أمر عامل رأس أكير أن يسوق المعتقلين فورا الى تارودانت، ومن هناك الى مراكش .

منع الامبراطور الحاكم آنذاك بقشتالة ألا يتوجه منذئذ أي زورق الى رأس أكير لصيد السمك إن لم يحمل معه كل ما يلزمه . وهكذا فقد هذا "الجبار" الفائدة التي كان يحصل عليها من هذا الميناء . وأخيرا فإن هذا العامل ألقى القبض في نفس الوقت على سبعة عشر شخصا كانوا قاصدين

رأس أكير بإجازة على متن سفينتي كارافيل للتجارة . وكان من جملتهم أخوان (141) من مواليد تافيلا، كتب (142) من أجلهما الملك دم يوحنا الى الشريف، طالبا منه إطلاق سراحهما، إذ أخذا ظلما بجوازهما . لكنه لم يكترث بكل ماكتبه له الملك، وأرغم الأخوين على أداء الفدية بصفتهما أسيرى حرب . فأديت مائتي مثقال عن أحدهما (143) الذي عاد الى البرتغال مع أنطوان دي ميلي .

الفصل 64

مكاتبة سليمان للشريف لإطلاق سراح ملك فاس

لجأت أم ملك فاس وابنه وأبو حسون الى السلطان الأعظم التركي حين رأوا أن الشريف مصمم على عدم إطلاق سراح الملك مالم تسلم له مكناس كفدية . كتبوا اليه إن الشريف قد أحيط بجميع أنواع الرعاية من أسرتهم، وإنه بعد أن نقض الهدنة التي أبرمها مع الأب والابن، دخل عنوة الى المملكة، فأسر ابنها الملك في المعركة واعتقله كمسيحي خلافا لدينهم . لذلك فإنهم يتوسلون اليه بكل تواضع أن يؤازرهم في نكبتهم، وبصفته

---

(141) هما مانويل، وهيرمان كوريرا (هامش)

(142) سنة 1550 (هامش)

(143) هيرمان (هامش)

السلطان الأعظم يرجون منه أن يرسل الى الشريف يأمره بإطلاق سراح الملك وابنه . أوفد (144) سليمان سفيرا الى الشريف الذي اغتاظ جدا لما رأى من قلة الأدب التي عومل بها . لكن ما أغضبه أكثر هي رسالة سليمان التي يطالبه فيها بصيغة الأمر أن يطلق سراح ملك فاس، وأن يمتثل أوامره وإلا فإنه سيغتاظ من تصرفه . كما أن عنوان الخطاب جرح الشريف، إذ لم يرض أن يكتب له السلطان الأعظم : الى عاملنا رئيس العرب (145) محمد الشريف. ولهذا كان عل وشك أن يأمر بقطع رأس السفير، ولاشك أنه كان سيضحي به من أجل غضبه، لولا وجود القائد موريان الذي قال له إن كل سفير يجب أن يبقى حرا آمنا بمقتضى الحق الإنساني، وإنه لا ينبغي إثارة غضب السلطان الأعظم الذي قد ينتقم بسهولة . وأخيرا قبل ألا يعامل السفير بمعاملة سيئة مكتفيا برده بدون جواب، بل ذهب في إخفاء غيظه الى أن أهدى له بعض الملابس وفرسا مجهزا تجهيزا فاخرا .

وبعد ذلك أحضر ابنه الحران من تارودانت، بالقوات التي كانت عنده في تلك المملكة، كما أمر ابنه مولاي عبد القادر بأن يحشد جنود مراكش، حتى أصبح في هذه المدينة أكثر من عشرين ألف فارس، ثم انطلقوا منها بقيادة الحران وعبد القادر لفتح مملكة فاس، ظانين أنهم سيحتلونها بسهولة بسبب النزاع القائم بين القواد والقصري ابن الملك السجين . دخل جيش الشريف الى هذا القطر من جهة القصر الكبير، بمساعدة أعراب الخلط القاطنين هناك، وألحقوا كل ماأمكنهم من أضرار بتلك البلاد . وكان آنذاك بتطوان وشفشاون مغربيان شجاعان اسمهما سيدي حسن ومحمد ابنا راشد (146) رفضا أن يخضعا للقصري، بسبب الخلافات التي كانت بينهما وبين أبي

---

(144) سنة 1548 (هامش)

(145) في النص الفرنسي : إلي شيخي على العرب .

(146) صحف الاسمان في النص الفرنسي فكتبا : سيدي حسن ومحمد بن رشان . وهو يقصد، ولاشك، الأمير أبا الحسن علي بن موسى ابن راشد مؤسس شفشاون، وولده الأمير محمدا الذي انتزع الشرفاء السعديون المدينة من يده . انظر أ.الناصري، الاستقصا، 41:5

حسون . وكانا قد كتبا الى الشريف أن يأتي الى فاس، ووعداه بالإعانة على فتح هذه المملكة . ولما علم القصري بذلك أرسل ضدهما أبا حسون في عدد من الجنود الراكبين والراجلين . وبعد أن أقام بضعة أيام دون أن يفعل شيئا، عاد الى القصري فوجده قد خرج بقواته لمقاومة الأعداء الزاحفين نحو فاس، ولإرغام قائدي القصر والعرائش وأعراب الخلط على الرجوع الى طاعته، بعد أن ثاروا عليه. ولما لم يستطيع أن يعمل معهم أي شيء، عاد إلى فاس، لعدم توفره على القوات الكافية لمحاربة أعدائه الذين رجعوا الى مراكش حين رأوا أن فصل الشتاء قريب، محملين بالغنائم، تاركين المنطقة خالية من علف الدواب . ولما وصلوا الى مراكش، استقبلوا فيها بابتهاج كبير من قبل السكان والشريف، وعزموا على استئناف عمليتهم في السنة الموالية، إذ كانوا يأملون أنهم سيصبحون سادة مملكة فاس، دون كبير عناء، بمساعدة الأعراب الذين كانوا جميعا في خدمتهم .

الفصل 65

ذكر التعسف الذي تمارسه عدالة مراكش ضد المؤلف ومسيحيين آخرين

من بين الأسرى الذين أخذهم الشريف من رأس أگير، أعطى أحدهم (147) وهو من مواليد جزيرة ماضيرا، الى ابنه مولاي عبد القادر، فكان عنده في داره بمراكش، ووكل حراسته الى مغربي . ولما كان هذا العبد ملزما

(147) فرانسوا لومولين (هامش)

لفداء نفسه بأداء أربعة آلاف أوقية فضية بالريالات وقطعة من قماش قرمزي، ورأى أنهم يتأخرون كثيرا في عملية افتدائه، وعزم على أن يفر مع أسير آخر . فنزل ذات ليلة مظلمة بمحاذاة السور بواسطة حبال . وفي الغد افتقد المغربي عبده بعد أن استيقظ من نوع عميق بسبب العشاء الذي قدمه له الأسير، فأشعر العدالة بفرار العبد الذي كان تحت حراسته . وقد أعلن على الفور عبر المدينة أن الذين سيعثرون عليه ستعطى لهم مكافآت كبيرة، ووجه البريد الى دكالة للقبض عليه لكن بدون جدوى، لأنه وإن قضى سبعة عشر يوما قبل وصوله الى مازيغن فإن الله كتب له السلامة . وقد وصل إليها بعدأن انتفخت رجلاه وكان لابد من فتحهما، الأمر الذي من أجله لزم الفراش طوال ستة أشهر .

ولما لم يصل أي خبر عن المسيحي الى عدالة مراكش، لاسيما الى الحاكم سيدي موسى، اختلق نوعا من التعسف ضد فرنسيين (148) كانا عميلين لبعض تجار بوركوص، ليستخلص منهما قيمة الأسير . وبعد مرور ثمانية أيام على فرار العبد استدعى هذين الرنسيين، وسألهما هل رأيا الأسير وتحدثا معه وأعطياه مالا ؟ فأجابا بالنفي، وفي الحين حررت شهادة تسعة شهود أكدوا عكس ذلك، فألقى الحاكم القبض على الفرنسيين وأخذهما ووضعهما في داره، حيث خصص لهما حجرة حبسهما فيها . وبعد أربعة أيام، أرسل الحاكم في طلبي بواسطة غلامه (149)، ولما قابلته سألني هل أعرف أسير مولاي عبد القادر ؟ وهل تحدثت معه وأعطيته مالا ليفر ؟ فأجبته بأنني أعرفه، ورأيته، وكلمته بل وأعطيته من مال الصدقات كسائر السجناء، وذلك ما كنت أفعله لصالح الملك أكثر منه في سبيل الأسير . ولما أنصت إلي الحاكم، قال للقضاة الآخرين : الله وحده يجزي هذا حسب جوابه، إلا أنهم أخذوني ووضعوني في المكان الذي كان فيه الفرنسيان . وأقاموا علينا

---

(148) بيير، ونيكولا فيريبو (هامش)

(149) إبورك (هـ)

هناك حراسة قوية مدة طويلة، ثم نقلونا الى دار أخرى لسيدي موسى . وكنت أظن في الواقع أنهم يسوقوننا لقطع رؤوسنا، إذ كنت ألاحظ أنهم يمرون بنا في الطريق المؤدية الى سجن المغاربة المقابل للدار التي اقتادونا اليها.

ولما وصلنا الى هنالك حمدنا الله، وفي نفس الوقت أرسلت أطلب أنطوان دي ميلو وتجارا آخرين من بين أصدقائي، فذهبوا الى الفقيه والملك ليتحدثوا إليهم في شأني، وتقرر في الأخير أن يطلق سراحي مقابل كفالة . وهكذا خرجت من السجن، وسعيت يوم الغد في الإفراج عن الفرنسيين . وقد علمت من الحاكم أنهما ملزمان بأداء فدية الأسير بسبب اعترافهما، وحكم عليهما بالتعذيب، إلا أنني نصحتهما ألا يتحملاه، إذ كان لابد من دفع الفدية وإن لم يعترفا بأي شيء . وهكذا سعيت لدى سيدي موسى حتى إنهما لم يعذبا، وأديا ستة آلاف مثقال التي فرضت عليهما، وأما أنا فأطلق سراحي نهائيا .

الفصل 66

تسليم المريني ملك فاس مدينة مكناس كفدية له، وعودته الى مملكته وذكر خصب إقليم مكناس

أبرم الفقهاء هدنة (150) مع الشريف حين قرروا إطلاق سراح ملك فاس، وذهبوا الى مراكش حاملين رسائل من أم الملك المريني وأبنائه الى

---

(150) سنة 1549 (هامش)

الشريف، فاستقبل هؤلاء الفقهاء استقبالا حسنا وأنزلهم في القصبة، حيث استأذنوه في زيارة أميرهم . وعند المساء ذهبوا لتقبيل يديه، مصحوبين بقائدين كانا مكلفين بحضور هذا اللقاء، وجعلوا يواسونه أولا ثم أخذوا يتفاوضون في شأن فديته . لكن أي اتفاق لم يتم طوال خمسة عشر يوما مع الشريف الذي كان مصمما على ألا يطلق سراح الملك ما لم يستلم مدينة مكناس .

كان المريني والسفراء يبدون بعض الصعوبة في ذلك، لكنهم قبلوا هذا الشرط عندما رأوا أنه لايوجد حل آخر لتخليصه من يد عدوه، وأرسل الملك المريني الى ابنه يأمره بتسليم مكناس الى الشريف . أمر هذا الأخير ابنه عبد القادر بأن يتوجه الى مكناس في أربعة آلاف من حملة الرماح وبعض الاسلاميين ورماة البنادق الأتراك من حرسه للاستيلاء على المدينة، ثم أطلق سراح المريني وأبرما كذلك هدنة بينهما لمدة خمس سنوات، وأقسما الأيمان علنا لكنهما لم يبرا بها، إذ كان كل واحد منهما ينوي نكثها .

تقع مكناس على بعد عشرة فراسخ من فاس من جهة الشمال، ولها قصبة حصينة وبنايات جيدة . ويمكن أن يصل عدد من تضمهم من السكان حتى ستة آلاف، معظمهم فلاحون، لأنه وإن كانت بها تجارة، وتصنع فيها زرابي تركية تحمل كعلامة صليبا أحمر وأصفر، فإن عملهم الرئيسي هو الزراعة، لأن الأرض خصبة جدا، ويوجد هناك على الخصوص جبل (151) بينها وبين فاس، ينتج كثيرا من الحبوب، والماشية، والزيت، والعنب الدمشقي، والتين وغير ذلك من الفواكه . كما يصنع فيه الكثير من الحرير، ونظرا لدخله الوافر سماه المغاربة جبل المال .

---

(151) زرهون (هامش)

ولنرجع الى حديثنا فنقول : إن اليوم الذي كان سيخرج فيه المريني ذهب ليودع الشريف الذي كان ينتظره بالمشور مرفوقا بعدد من قواده وحرسه. كان جالسا على أريكة، ولما حضر المريني وقف له، دون أن يبرح مع ذلك مكانه، وبعد أن تصافحا جلسا على الأرائك، وقضيا نصف ساعة تقريبا وكل واحد منهما يقدم للآخر عروضا كبيرة للخدمات، ثم ودع المريني الشريف الذي لم يقف له، وغادر مراكش مصحوبا بعدد من الفرسان . بات المريني في خيام ضربها قومه في حقل قرب المدينة، وانصرف يوم الغد الى مملكته، حيث استقبل بابتهاج عظيم، لأنه كان أميرا طيبا جدا . ولدى وصوله الى فاس، سلم إليه ابنه التاج، لكنه لم يحمله إلا لمدة وجيزة . وقد رأيته يوم غادر مراكش، وكنت حاضرا في كل ماورويته آنفا . كان رجلا رشيق القامة معتدل الجسم، حسن المظهر لكن بدون شجاعة، طويل اللحية مسترسل شعر الرأس قد وخطه الشيب، وسنه خمس وخمسون سنة على مايبدو، رزين الكلام والحركات

لكن ماكاد يغادر مراكش حتى إنتشر الخبر بأنه ذاهب لإرسال ابنه الى المسيحيين يلتمس النجدة منهم ليثأر من الشريف . وقد عزم هذا الأخير على إنذاره عندما بلغه الخبر . وأمر بأن ينصب خباؤه في البادية، وتلك علامة الحرب عند المغاربة، وحشد جنوده . وفي ذلك الوقت وصل أولاد الشيوخ من لشبونة، وذهب أنطوان دي ميلو وفرانسو ماتشادو من مراكش بعد أن ودعا الشريف والشيوخ .

الفصل 67

عزم الشريف على فتح مملكة فاس وماترتب عن ذلك

بعد أن غادر ملك فاس مراكش، انتشر الخبر بأنه ينوي التحالف مع المسيحيين للانتقام من الشريف، الذي جمع فورا مجلسه للتداول في شأن هذا الخبر . وأخبر الاعضاء بأنه عازم على إنذار المريني سوء مغبة عمله، فصودق بالإجماع على هذا القرار الحصيف . أعطى الشريف الأمر في الحين الى العمال والشيوخ أن يبعثوا بجنودهم الى مراكش، كما أمر ابنه الحران الذي

كان في مملكة تارودانت، بأن يجمع ماأمكنه من المقاتلين ويحضر الى مراكش. غير أن الشريف، الذي اعتاد أن يستشير الشيطان (152) في جميع أعماله، لم يفته أن يستشيره حول نجاح العملية التي اعتزم الإقدام عليها . فخرج، بإشارة منه، من مراكش من باب فتحه وكان لم يفتح منذ عدة قرون. كان قوس هذا الباب أعلى بكثير من أقواس الأبواب الأخرى، مبنيا بنوع من الحجر الرمادي، عريضا في الأعلى ضيقا في الاسفل، محكما وبدون أي ملاط كأنه من عمل الرومان، ومع ذلك يبدو أنه ليس من صنعهم، بل من صنع المغاربة، أو العرب الذين ملكوا إفريقيا من يد هذه الشعوب .

أمر الشريف أن تعلق حوالي هذا القوس عدة رؤوس لأسد اصطيدت عبر البلاد كلها . وحتى يؤتي بها عاجلا أعلن في مراكش أنه يجب على كل قائد أن يقتل أسدا في منطقته، ويبعث بالرؤوس الى الشريف تحت طائلة أن تستبدل بها رؤوس القواد . وهكذا في ظرف أيام قليلة، حصل على أكثر من خمسين أسدا، ومن بينها أسد في غاية الضخامة يزيد طوله على اثني عشر شبرا، ولم أستطيع أن أحيط بساقه بكلتا يدي . وعقب هذه الأنواع من الأوهام خرج الشريف ذات يوم (153) متأخرا من هذا الباب الذي فتحه، مصحوبا بجميع أولاده، وقواد حرسه من الراجلين والفرسان مع الموسيقى وعدة آلات غريبة يعزفون بها . كان يسير أمامه أشخاص وهم يشيدون بانتصاراته السابقة، وآخرون يتنبؤون بانتصاراته اللاحقة، وخاصة لنجاح هذه العملية . وهكذا وصل الى المحلة التي كان قد احتشد فيها أكثر من ثلاثين ألف رجل، فاستقبل بإطلاق جميع البنادق . وعند بزوغ النهار سار في الطريق المؤدية الى مكناس، حيث انتظر بضعة أيام وصول الأمتعة، والعدد، والأشياء الأخرى الضرورية لحصار فاس .

---

(152) لايتورع المؤلف المتعصب عن لمز الشريف بما يعقل ومالا يعقل . وقديما نسب الناس كل أمر عظيم الى الجن . وقد اختلط هذا الاعتقاد في ذهن المؤلف بما يحمله من حقد وكراهية للمسلمين وعاهلهم الشريف فأنتج هذا الضلال المبين .

(153) يوم 17 شتنبر 1549 (هامش)

كان في هذا الوقت بمراكش مغربي (154) يدعي أنه ولي كبير : كان يسير حافي القدمين ويرتدي رث الثياب، لايكلم أحدا ولا يجيب إلا كتابة، يصوم السنة كلها، ولايأكل في الليل سوى الخبز، والثمار، أو الخضر . كان بيته على ضفة قناة ماء تمر بالقرب من المدينة، لايزيد حجمه على قدر ما يسع رجلا مضطجعا، وليس له سوى لحاف ووسادة من طين . دخلت مرتين الى هذه الحجيرة الضيقة، لأن ذلك الرجل كان معظما يزوره عدد من الناس . فبلغ الى علم الشريف أسلوب عيشته والصمت الذي يلازمه، فقلق من ذلك، متذكرا مافعله سابقا لاعتلاء العرش، وظانا أن لهذا الشيخ حاجة في نفسه يخفيها فأحضره بين يديه، ولما أبى أن يجيب عن أسئلته ، أمر بأن يجلد أكثر من ألفي جلدة، ثم يزج به في خندق الأسرى . رق له قلب اثنين من هؤلاء العبيد (155) المساكين، وعالجاه الى أن شفي . كان يكلمهما ويشكرهما على ماأسديا إليه من معروف، ويعطيهما بعض الصدقات التي كان يتوصل بها . وبعد مدة طويلة أطلق سراحه، فذهب ليقيم في جبل (156) يبعد بنصف فرسخ عن المدينة . وهناك زرته مع الأسيرين الذين عالجاه، واستشاراه في سفرهما المزمع عليه الى مازيغن . فحذرهما من ذلك، وطلب منهما أن يرجعا اليه بعد خمسة عشر يوما ليقول لهما ماذا سيفعلان، ثم رجعنا الى مراكش .

لم ينس الأسيران أن يعودا في اليوم الذي حدده لهما، فنصحهما بأن يذهبا يوم السوق، وهو الخميس، وأعطاهما تفاحتين، أوصاهما أن يمسكاهما في يديهما وأن يتلهيا بهما، فإذا سألهما مغربي الى أين يسيران، أجاباه الى

---

(154) سيدي يحيى (هامش)

(155) هما يوحنا ناقشارا، وبيير مونيز (هامش)

(156) جبل گيليز (هامش)

مازيغن، ولا يخافان أحدا . فلما كان يوم الخميس، تزودا بما هو ضروري للسفر، وخرجا في الصباح، فسألهما حارس الباب، وكان إسلاميا من مواليد طافيلا يدعى سيدي محمد، إلى أين تذهبان ؟ فأجابا وهما يتلهيان بتفاحتيهما : نحن ذاهبان ياسيدي الى مازيغن . فخرجا هكذا بدون مزيد مناقشة . وعند المساء في الوقت الذي كان الأسرى يلتجؤون الى الخندق، وجدهم الحراس يتحدثون عن ذلك، فأعلنوا الإنذار بالأبواب، وقال الإسلامي ماجرى بينه وبينهما . وذهبت يوم الغد الى القصبة وسألته ماذا فعل بالأسيرين المسيحيين، فأجابني بأنه فوجئ بما حدث . وعلمنا بعد خمسة عشر يوما أنهما وصلا الى مازيغن، وهما يسيران دائما في الطريق الرئيسية، وقد لقيا عددا من المغاربة فلم يقبضهما أحد .

الفصل 68

محاصرة الشريف مدينة فاس

بعد أن استراح الشريف بضعة أيام في مكناس، استعد لحصار فاس، ولما غدا على مرأى من المدينة، أرسل من يرتاد له مكانا ينزل فيه جيشه . وبإشارة من مجلسه أقام محلته في أرض منبسطة مكشوفة قريبة من جبل راس الماء، وهو منبع النهر الذي يخترق فاس القديم وفاس الجديد، ويحمل اسم هذا الجبل . وقد أسرع الشريف في عمليته بحيث حرم ملك فاس من وسيلة إرسال سفراء إلى إسبانيا، إضافة الى أنه منعه من الدفاع عن نفسه بسبب المناجأة التي فاجأه بها . وإذ ذاك جاء أبو حسون أمير بادس ليزور (الملك المريني) فشجع أهل فاس على الدفاع عن أنفسهم ببسالة عظيمة حتى إنهم كادوا أن يرغموا الشريف على رفع الحصار، حيث لم يكن يرغب أولئك ولا هؤلاء في أن يصلوا الى معركة عامة . كان الشريف يعتقد أنه إذا ضيق الحصار على فاس بعض الوقت، فإنه سيجوعها لكثرة ماتضمه من السكان، وأن المحاصرين سيقبلون الشرط الذي يروقه . وظن أهل فاس بالعكس أنه مادام الحصار بدأ في أوائل فصل الشتاء القاسي والمزعج فإنهم سيرغمون الشريف على الانسحاب، أو على تحمل حصار يكلفه كثيرا . وقد

حدث ماكان يتصوره كل واحد منهما، إذ في فترة وجيزة أصبح "الكاراد" يساوي عشرين مثقالا، وهو ثمن باهض، وبالتالي فشت في الجيش (157) أمراض كثيرة من جراء مياه (الأمطار)، بحيث لم يعد فرق يذكر بين شقاء المحاصِرين والمحاصَرين . لذلك أبرمت هدنة بين الملكين، تنص على أن يسلم المريني فاس الجديد الى الشريف مع كل البلاد الممتدة من هذه المدينة الى مكناس، ويحتفظ هو بفاس القديم وسائر أراضي مملكته، ويتخذ كلاهما لقب ملك فاس، لكن الشريف أجاب باستهزاء أنه من المستحيل تغطية رأسين بقلنسوة واحدة . وعند هذه التطورات قام أهل فاس بغارة على معسكر الشريف . فاغتاظ من ذلك الى درجة أنه أمر بقطع رأس سفير المريني الذي كان في محلته، وإرسال ستة آلاف فارس الى أبواب فاس الجديد . فقام المحاصَرون في الحين بغارة ثانية، تطورت الى معركة حامية قتل أثناءها خلق كثير من كلا الجانبين، وحرص الشريف منذئذ أكثر على منع دخول المؤن الى المدينة منعا باتا . وفي ذلك الوقت جاء مولاي زيدان من تافيلالت الى فاس لمؤازرة المريني . وعندما اقترح الهجوم على الأعداء، أخبروا بأنهم على مقربة من واد سبو، على بعد يزيد قليلا عن نصف فرسخ من المدينة، فسار مولاي زيدان في الحين بجنوده وجنود فاس لقطع طريق المرور، وجرت هناك معركة كبيرة دامت الى أن فرق الليل بينهم . وبعد أيام قلائل، عاد مولاي زيدان الى تافيلالت، حيث كان أبوه، وقد رأى أن أمور ملك فاس لاتسير على أحسن حال كما كان يتمناه .

---

(157) مكيال قدره ثلاثة أصع من القمح .

الفصل 69

تغيير الشريف رأيه بعد أن كان على وشك رفع الحصار عن فاس،وذكر الكيفية التي فتح بها هذه المملكة

خلال عيد الميلاد لسنة تسع وأربعين وخمسمائة وألف، قرر الشريف بنصيحة من مجلسه أن ينسحب الى مكناس ليعود الى حصار فاس في فصل الربيع . ولاشك أنه لو نفذ مشروعه لكان أعطى ملكي فاس وبادس الفرصة لتجهيز المدينة، وإحضار المدد من إسبانيا أو الجزائر . لكن تاجرا مسيحيا (158) في جيشه كان صديقا حميما لإبراهم كابيصا، وهو يهودي من مراكش كان الشريف يصطحبه دائما معه، عارض القرار المتخذ . أخبر اليهودي التاجر المسيحي بأنهم سيرفعون الحصار من أجل الشتاء، وسيعودون في فصل الربيع. فأجاب التاجر بأن ترك حصار فاس يشكل خطأ كبيرا، لأنه إذا تضرر الجيش من البرد والمطر، فإن أهل المدينة يتضررون أكثر بالجوع والمرض، وأنهم على وشك الدخول في شهر يناير الذي تأخذ فيه حرارة الشمس في الارتفاع شيئا ما، وأن بداية الربيع في تلك البلاد تكون في شهر فبراير، فإذا استمرت الأمراض فسيعالجها الفصل، لكن بلية المحاصَرين تزداد يوما عن يوم فرد اليهودي بأنهم يحسون بالمصائب الحاضرة بما فيه الكفاية، لكن فيما يخص السعادة التي يعد بها مستقبلا فالله وحده أعلم بها . عند ذاك قال له التاجر : إن لدى المسيحيين خبرا "أوحـي" الى سانت إيزيدور أسقف إشبيلية، بأن ملوك فاس سيستأصلون بخطيئة اللواط . وبما أن الحاكمين بهـــــــا

---

(158) بيير دوريدية (هامش)

الآن يرتكبون هذا الذنب فلا بد من الاعتقاد بأن الوقت قد حان لأن يعاقبوا عليه، ورجا منه حينئذ أن يبلغ ذلك الى الشريف باسمه . ذهب اليهودي على الفور وأطلع الشريف على هذا الخبر، فسر به، وأحضر التاجر الذي أعاد أمامه وأمام أبنائه وقواده وجميع أعضاء مجلسه مارواه لليهودي، وأقنع الشريف بمتابعة الحصار، مشيرا عليه ببناء دار له ولأبنائه، وعلى القواد أن يفعلوا مثل ذلك ليتقوا البرد والمطر، وبذلك سيحطم شجاعة المحاصَرين الذي سيصيبهم اليأس إن لم يرفع الحصار . وبهذه الطريقة استولى ملك قشتالة (159) على غرناطة، حيث إنه لم يشيد دارا فحسب، بل مدينة تسمى سانت فوا (الايمان المقدس). استحسن الشريف هذا الرأي، وكذلك جميع أعضاء مجلسه، فأمر ببناء دار، وضاعف الحرس، وأرسل قوات متقدمة عديدة لتضييق الخنادق أكثر على المحاصَرين، ولمنع دخول المؤن إليهم . وعندما رأى أهل فاس خصومهم يبنون دورا، وقد ظنوا أن رفع الحصار سيخفف من آلامهم، بدأوا يتمردون ويتذمرون من الملك وأعضاء مجلسه، مطالبين جهارا بأن يكفوا عن بؤسهم، أو يتركوهم يستسلمون للمنتصرين .

اضطر الأمير (المريني) بسبب هذه الفوضى الى أن يجمع مجلسه، واستدعي إليه ملك بادس مع جميع القواد لاتخاذ قرار فيما يجب القيام به. كان رأي ملك بادس وأشجع النبلاء هو أنه، مادامت الحالة استفحلت الى أقصى درجة، فلا بد من اللجوء الى أصناف العلاج العنيفة والخارقة للعادة، وإنهاء الحرب بمعركة . لكن جبن المريني كان قويا جدا فلم يستطيعوا إطلاقا إقناعه بمغادرة الأسوار . لذلك قام ملك بادس، وهو يكاد يتميز من الغيظ، وخاطبه بهذه العبارة :

"لا يمكن لهذه المدينة أن تتخلص من مصائبها إلا بمعركة، ومن عدم الانصاف مماطلتها أكثر بإرجاء مهاجمة الأعداء . إنهم يبتهجون لعملهم بأن

---

(159) دم فيرناند الكاثوليكي (هامش)

المجاعة والأمراض لاتلبث أن تنيخ علينا بكلكلها، وأنهم سينتصرون علينا بدون قتال . وهكذا ستكونون السبب في كل مصائبنا، فيلزمكم بموجب محتدكم ومنزلتكم أن تتداركوا الحالة . فأين هي شجاعتكم ؟ ونخوتكم ؟ هل تعرفون من أنتم ؟ كيف يمكن أن يكون ملك بدون مروءة ؟ ملك يفضل أن يترك رعاياه يموتون خزيا، عن أن يشن معركة من الأكيد أن ينتصر فيها ؟ اذهبوا، فإنكم لاتستحقون أن أضحي أكثر في خدمتكم" .

وبعد ذلك، وقد رأى ملك بادس أن المريني مصمم على رأيه الأول وأنه يخشى القتال، خرج مع جنوده بأكثر ماأمكنه من سرية، عائدا الى بادس دون أن يراه العدو، ليرتب جميع الأمور، مدركا أنه إذا احتل الشريف فاسا فإنه سيهاجمه، لأنه كان معارضا له . وبمجرد ماوصل أرسل أهله الى الصخرة (البنيون) وهي أشهر قلعة في مملكته . وقد أوقع ذهابه فاسا في حيرة عظيمة، وزاد في شجاعة الشريف الى درجة أنه أصبح ذا أمل وطيد في الانتصار، بينما تأكد أهل فاس من خسرانهم . لذلك توجه عديد من السكان، وقد أرهقهم الرعب، الى الشريف فاستقبلهم كما يجب . ولما وصل الخبر الى المريني أرسل قائدين يطلبان السلم من الشريف على أن يسلم له فاسا الجديد ونصف مملكته . فاستقبلهما الشريف استقبالا حسنا بمحضر أبنائه وأعضاء مجلسه، وبعد أن استمع الى ماجاءا به من اقتراح، أمرهما بأن يقولا للملك أن يدافع جيدا عن نفسه، وأنه سيهاجمه ببسالة، وأنه لا يجب الحديث عن السلم إلا إذا سلمه مملكته كلها . رجع المبعوثان يجران ذيول الخيبة بهذا الجواب، وحاولا إقناع الملك بالخروج للقتال، فلأن يموت أو ينتصر ببسالة أفضل من أن يقع بين يدي جبار عنيد . لكن المريني كان جبانا خجولا، فكانوا يكلمونه عبثا في القيام بشن غارة . وفي هذه الأثناء، وقد علم الشريف مدى العوز الذي وصل إليه السكان، أرسل أشخاصا في الليل ينادون قرب سور فاس القديم بأعلى أصواتهم : إن الشريف يمنح إجازة المرور لكل من يرغبون في الالتحاق به . فخرج فورا عدد كثير منهم، ثم خرجوا جميعا دون أن يتمكن أحد من منعهم . وأخيرا قرر المريني أن يستسلم الى عدوه بالشروط التي يريدها، فأوفد إليه مبعوثيه، واستقبلهم الشريف بابتهاج، ووعدهم بأن يؤمن حياة أميرهم بأثاثه، ونسائه، وأولاده وأهله، فعادوا بذلك،

وكان المريني جبانا فقبل الشروط .

وهكذا خرج من المدينة في اليوم المحدد، وذهب الى محلة الشريف ليجثو بين قدميه، ويستعطفه أن يشفق عليه، ويعطيه مكانا يلتجئ اليه هو وأهله وأولاده يقضون فيه أيامهم . استقبله الشريف بعطف على مايبدو، ووعده بأن يحسن معاملته، لكنه لم يف بوعده . وبعد ذلك رتب جنوده، وتقدم نحو فاس الجديد فدخل في منتصف فبراير سنة خمسين وخمسمائة وألف من باب السبع، وأقام في القصر، حيث قدم عليه جميع القواد وسائر الشخصيات البارزة ليقبلوا يديه ويبايعوه . وبعد ذلك بقليل علم أن للمريني ابنة بارعة الجمال (160) فطلبها منه ليتزوجها، وظن المريني أن حالته ستتحسن بذلك فزوجه إياها، لكنه لم يكن أكثر سعادة، لأن "الجبار" فرق بين أفراد الأسرة وأقصى بعضهم عن بعض . فأرسل المريني الى درعة، وابنه الامير الى تارودانت، وأخاه بوزكري الى مراكش، والآخرين الى أماكن متعددة . وأما ابنة المريني فكانت أشجع من أبيها بكثير، لم تفتأ تبكي، حين رأت نفسها مملوكة من لدى عدو أهل بيتها، وأنها كانت في سن السابعة عشرة من عمرها فريسة "جبار بشع" يجاوز عمره الثمانين (161)

---

(160) للالو . كذا في النص الفرنسي . ولعل المقصود : لؤلو، أو لوه .

(161) لاندري من أين أتى المؤلف بهذه الأرقام ..والمحقق أن عمر الشريف كان آنذاك نيفا وستين سنة .

الفصل 70

وصف فاس القديم

هناك مدينتان تحملان اسم فاس . يسمي المغاربة إحداهما فاس البالي، والاخرى فاس الجديد، ومعناه في لغتنا فاس القديمة وفاس الحديثة . ويطلق على المملكة كلها اسم هاتين المدينتين . يقع فاس القديم في شعب صغير على ضفة نهر (162) ينبع غير بعيد من هناك في جبل صغير يحمل نفس الاسم في اتجاه الغرب . يخترق هذا النهر المدينتين، وتوجد بفاس القديم أكثر من ثلاثمائة وسبعين طاحونة . وهناك روايات عديدة حول أصل هذه المدينة وقدمها، فبعضهم يدعون أنها أسست في عهد الرومان، وأنها هي القيصرية القديمة عاصمة موريطانيا القيصرية، كما أن طنجة الواقعة في هذه المملكة على مضيق جبل طارق كانت عاصمة موريطانيا الطنجية، وأن المغاربة حرفوا شيئا فشيئا اسم قيصرية حتى سموها فاسا . ويعتقد آخرون أنه لم يمض على تأسيسها عهد طويل، وإنما حدث ذلك منذ أن فتح المسلمون هذه البلاد . ومهما يكن من أمر، فإنهم يذهبون عادة فيما بينهم الى أن المدينة كانت تضم مائة ألف نسمة، لكن من الأكيد أن عدد السكان الآن يزيد عن سبعين ألفا، وهي من أحسن المدن . كان صالح رايس يقول إنه تجول في جميع الأقطار التابعة للسلطان الأعظم وفي قسم من إمارات صوفيا، وزار أشهر المدن، لكنه لم يشاهد مثل فاس سعة وسكانا وثروة وخصبا . ويظهر هذا أيضا من خلال نقوش مكتوبة في حجر مربع في السور قرب الباب المؤدي الى فاس البالي، وهي : "فاس بلاد الناس" يعني دار مقام الناس، و: "من يخرج من فاس، أين سيذهب ؟" مما يدل بكفاية على حقيقة هذه

---

(162) رأس الماء (هامش)

المدينة ذات الشوارع والديار الجميلة الزاهية . إن معظم الأزقة واسعة ومستقيمة ومنسقة أحسن تنسيق، ولو أن عددا منها لامنفذ له . الدور مبنية بالحجر المنحوت والآجر، علوها ثلاث طبقات، وهي متينة، رائقة، فسيحة في الداخل تحتوي على غرف فائقة، مع أفنية وبساتين البرتقال وجميع أصناف الفواكه الحامضة والحلوة وسقايات .

يوجد في المدينة جامع في غاية العظمة والشهرة والزخرف، وعدة مستشفيات . ولايسمح للمصابين بالأمراض المعدية بأن يسيروا في الأزقة، ومعظم السكان تجار، لهم دكاكين في مكان مسور فسيح متقن البناء، له أبواب وسلاسل عارضة لمنع مرور الراكبين على الخيل . تتوفر فاس على ساحات جميلة جدا، في كل واحدة منها سقاية . كما أن هناك عددا من الصناع من جميع الأصناف، متفرقين عبر الشوارع في نظام حسن، اشتهروا بأنهم أغنى المغاربة، إذ يربحون ولايخسرون شيئا .

وبالتالي فإلى هذه المدينة ومدينة مراكش حمل قسم من ثروات إسبانيا، ولاسيما عندما فتحها المسلمون (163) ومنذ أن استرجعها المسيحيون، لأن كثيرا من المسلمين الأثرياء الذين كانت لهم أملاك بإسبانيا، أخذوا يلتجؤون الى هاتين المدينتين شيئا فشيئا بأمتعتهم ويثرونهما مثلما فعل أكابر مملكة غرناطة عندما غزاها الملكان الكاثوليكيان . ولما كانت مراكش تخلو دائما من السكان، فإن مدينتي فاس البالي وفاس الجديد استغنتا من أموال إسبانيا . يضاف الى هذا أن مدينة فاس لم يتفق أن نهبت على الاطلاق، بل عاشت دائما في رخاء . يتجلى ذلك بكفاية من خلال مايجبى فيها من النقود المفروضة على السكان للمصلحة العامة، وبذخ الأشخاص وفخامة المنازل . إن أساس عظمتهم، حسب قول المغاربة، هو زقاق الأندلسيين الذي هو أغنى

---

(163) في النص الفرنسي : "عندما احتل المغاربة مدينة فاس" . وهو لاشك تحريف من المترجم أو الطابع ، ولم نتمكن من الاطلاع على النص الإسباني للمقارنة .

أزقة المدينة كلها، لكن ذلك لايتفق مع مايقال عن الكونت يوليان في تاريخنا، بأنه قتل في قرطبة من طرف المغاربة مع أخيه الاسقف (164) وابنته (165)، لعدم إنجازه ما اتفق عليه، أي بعد طرد الملك دم رودريكيز، أن ينصب في المملكة الكونت أو أحد أبناء غيطشة . ويتفق المغاربة مع تواريخنا فيما يخص موته . حقا إنهم يقولون إنه لم يمت بقرطبة، لكنه اضطر لينجو بنفسه الى العبور الى إفريقيا والعيش في البلاد، بأمر من القائد موسى . ويذكرون أيضا أنه اختار كخلوة مدينة فاس، حيث أقام مع جميع أهله، وإسبانيين آخرين كثيرين حملوا ثرواتهم الى هذه المدينة . وبما أنهم كانوا يقيمون كلهم في نفس الزقاق فقد سمي هذا الحي زقاق الأندلسيين، لأن جل هؤلاء القوم كانوا من الأندلس . وهناك شهادات أخرى تدل على ذلك بوضوح، وهي المنازل التي أمر الكونت بتشييدها في ضاحية فاس البالي، حيث بني بعد ذلك أحد ملوك هذه المملكة فاس الجديد، الذي تحيط أسواره بهذه المنازل، ويسميها المغاربة اليوم "دار الكونت" . وقد وقفت عليها وهي بالقرب من باب المدينة المدعو باب السبع، حيث يقيم خليفة الملك . ويقول الآن المغاربة القاطنون في الزقاق الذي نحن بصدده إنهم ينتمون الى هؤلاء الإسبان، لأنهم لم يقبلوا قط التزوج من أهل البلاد . وذلك مالا يصعب تصديقه، لأنه حسب الشريعة الاسلامية التي اتبعوها ليس هناك درجة من القرابة تمنع الزواج باستثناء الأولى (166) .

أسوار فاس مبنية بالحجر، ويقال إن الملك إدريس هو الذي بناها . إن أهم قوة في هذه المدينة هم سكانها، الذين ليسوا شجعانا بطبيعتهم، غير أنه لايمكن احتلال فاس بدون كبير خطر وعناء، وقد يفنى فيها جيش حقا .

---

(164) ولياس (هامش)

(165) كاڤا (هامش)

(166) يعني أن أبناء الأخ يتزوجون بنات عمهم، وبنات الأخت يتزوجن أبناء خالهم

أضف الى هذا علو الديار ومتانتها، والأزقة التي ليس لجلها منفذ، لكنها مفتوحة على الشوارع الرئيسية، والتي لها منفذ إما واسعة جدا، أولها أبواب بحيث إذا غلقت استطاعوا أن يقبضوا الأعداء ويقتلوهم بالآجر والحجر الذي يقذف به السكان من النوافذ والسطوح . وتغلق أبواب الدور كل ليلة على الساعة العاشرة، وكذلك أبواب المدينة والأزقة، لأن المدينة كبيرة يمكن أن تقترف فيها عدة اغتيالات وسرقات دون العثور على مرتكبيها، لكن إذا أغلقت الأبواب لم يستطع أحد أن يذهب إلا إلى زقاقه، وإذا ذهب إليه بعض اللصوص ليسرق ولم يخرج منه قبل إغلاقه، أخذ هناك بما سرق في الصباح . وفي الواقع ليست هذه المدينة حاضرة بقدرما هي إقليم محاط بأسوار، لأن كل زقاق من أزقتها مدينة . وهي مجهزة بكل الأشياء الضرورية للحياة، لأن ترتبتها من أخصب مايوجد في العالم، يعطي كيل "سيبتيي"(167) من القمح أو الشعير المزروع في عدة مواضع منها خمسين وأكثر .

توجد في البلاد جميع أنواع الطرائد بكثرة، وفواكه عديدة في البساتين الممتدة على طول نهري رأس الماء وسبو، وهذا الأخير في غاية الكبر ونهر بالمعمورة . وهناك عدد وافر من شجر الزيتون الممتاز الذي يستخرجون منه زيتا كثيرا، وعدة كروم . ويصنع الحرير بكثرة، لاسيما نحو تطوان، حيث تصنع منه "التفتته" (كذا) .

زي لباس نساء فاس ورجاله كزي أل مراكش، لكنهم أكثر غنى وتشبثا بملذاتهم، لذلك يكرهون الحرب وينفرون منها، بحيث إن ملكا مسيحيا يمكن أن يعمل على أن يجبي منهم الخراج، لأنهم على أي حال لايريدون تحمل متاعب الحصار . ويعللون قلة شجاعتهم بأمر وجهه إليهم أول ملك أسس مدينتهم، مؤكدين أنه قال لهم : إذا جاء بعض الأمراء ليقيم الحصار أمام فاس ولم يكن أميرها إذ ذاك قادرا على مواجهته بالقتال، فلهم أن يسلموها للعدو، دون أن يمكن اتهامهم حقا بالجبن أو الخيانة . يقولون إن الملك الأول اتخذ ذلك القرار لتحتفظ المدينة ببهائها .

---

(167) كيل قديم سعته أربعة ليترات ونصف .

وكذلك يوجد بفاس عدد كثير من الأشخاص الذين يطلون الآنية بالدهن اللامع، ويصنعون الأطباق والجفان وأنواعا كثيرة من الماعون، نصف بيضاء ونصف خضراء، أو بلون الدبغ أو صفراء . وعندما استفسرت بعضهم عن سبب هذا التنوع في الألوان، روى لي هذه الحكاية .

كان قديما في مملكة فاس قائد اسمه ابن شيشة، عندما كان الكونت ريدوندو حاكما بأصيلا . فأرسله ملك فاس على رأس أزيد من أربعة آلاف من حملة الرماح ليشن غارات في ضواحي أصيلا، واضطر الى الانسحاب على بعد فرسخين من هذه المدينة . وبنما هو يحلق رأسه ليقيم الصلاة، في الوقت الذي كانت لحيته قد حلق نصفها فقط، حمل عليه الكونت بمائتي فارس، فهزمه وقتل الكثير من رجاله . غضب المريني لهذه الهزيمة ووبخ القائد وشتمه . ولما كان من أصل يهودي، حسب مايشاع وأسلم، كان البربر يشتمونه كثيرا ويعتبرونه جبانا . ومن ثم أخذ الذين يطلون بالدهن اللامع يصنعون أوانيهم من الفخار بلونين، ويسمونها "لحية ابن شيشة" وقصدهم بذلك إهانة ذلك القائد، وتخليد جبنه، إن صح التعبير، وبسالة الكونت .

الفصل 71

وصف فاس الجديد

لايبعد فاس عن أسوار فاس البالي إلا بقدر رمية بندقية، ويقع في سهل جميل، حيث توجد قصور وديار الكونت يوليان . يضم مايزيد قليلا على ثلاثة آلاف نسمة، وتحيط به أسوار عالية محصنة ببروج، ومتصلة من جهة الجنوب بملاح تكتنفه، يمكن أن يسع ألف شخص . وهكذا يكون عدد سكان المدينة نحو أربعة آلاف . توجد فيها دور وأزقة جميلة جدا، لأن الامير يقيم فيها بلاطه . قصره مشيد بفخامة على الطراز المغربي، وهناك جامع . أما المدينة، فإن الشرفاء زينوها بعدة مبان مزدانة بالحجر الملون والرخام المحمولين إليها من شتى الأماكن . وفي دائرتها بساتين عديدة

وجميع أنواع الفواكه الحامضة والحلوة . كما أن فيها عدة سقايات وبرك جميلة، منها بركة في الفناء الرئيسي للقصر مع أربعة أعمدة من المرمر على شكل صليب، إضافة الى سقاية وكثير من شجر البرتقال . وعلاوة على ذلك فللقصر بروج مشيدة متقنة البناء، جعل بعضها على شكل دار صناعة، حيث يقيم عدد كثير من الأسرى المسيحيين ويصنعون مختلف أنواع الاسلحة . وبالقرب من القصر أيضا زقاقان للخيل، وديوانة حسنة للتجار المسيحيين، كان الشريف قد أمر ببنائها عندما فتح المدينة سنة خمسين وخمسمائة وألف .

تمتد بين مدينتي فاس ساحة كبيرة، يقول المغاربة إن المجموع كله يشكل صورة سيف، نصله فاس البالي، وقبضته الساحة ورمانته فاس الجديد. ويعتقدون أن ملكا مسيحيا سينال هذا السيف : لكن من الأكيد أن هذه المدينة لم يمض على تأسيسها أكثر من أربعمائة سنة، وأنها لم تشيد قريبا بهذا الحد من فاس البالي التي هي كبيرة وآهلة بالسكان إلا لتكون لها بمثابة قلعة، لأنها تتوفر على برج في طرف جدار بين استحكامين يبرز من السور ويتحكم فيها . لذلك يقال إن أحد ملوك فاس حين لاحظ تقلب المغاربة والضيق الذي كان فيه بفاس البالي أمر ببناء فاس الجديد له ولقواده وأفراد حاشيته . وفوق ذلك فإنني مادمت أذكر في عدة مواضع من هذا التاريخ باب السبع، سأشرح السبب الذي من أجله سمي هكذا، قبل التطرق الى أشياء أخرى .

يحكي المغاربة أنه عندما غزا الملك فيرناند الصالح إشبيلية، وفد على فاس نبيل يدعى الفونس پيريس دي قزمان، واستقبل هذا النبيل الذي كان مقداما استقبالا حسنا من طرف الأمير الذي كان يحكم آنذاك، وأمر بإسكانه في فاس الجديد، وأحبه كثيرا حتى إنه كان لايخرج للصيد ولا يقصد أي مكان دون أن يصحبه معه . كانت هذه الصداقة كبيرة جعلت عددا من المغاربة يحسدونه عليها . واتفق ذات يوم أنهم كانوا يصطادون عند قدم جبل الأطلس، ومن جملة الوحوش التي أثارها الصائدون بالكلاب خنزير ضخم أخذ الملك وعدد من النبلاء في مطاردته، ومن بينهم الفونس پيريس دي قزمان، الذي تقدم كثيرا الى الأمام حتى اختفى عن الأبصار، وبينما كان مستمرا في متابعة الخنزير تورط في أدغال غابة ففقد أثر الحيوان، ووقف

دون أن يستطيع العودة من طريقه وبينما هو يسير من جانب الى آخر باحثا عنه، أبصر في شعب عميق حية وسبعا يتصارعان، لكن الحية كانت أقوى. ولما لاحظ ذلك هذا الفارس الشجاع عزم على إغاثة السبع فحمل على الحية برمحه وقتلها . ثم نزل عن فرسه، وقطع لسانها واحتفظ به . وبعد أن أخذ قسطا من الراحة بدأ يبحث من جديد عن طريقه . ولما رآه السبع ذاهبا أخذ يداعبه، واعترافا منه بما أسدى اليه من جميل، تبعه وصحبه خارج الغابة، فسار پيريس دي قزمان، لحينه في الطريق المؤدية الى فاس، ورافقه ذلك السبع الى الباب . لكن الحراس أغلقوه في وجهه، وذهبوا الى الملك ليخبروه بما رأوا . وفي الحين أمر أن يبقى السبع في الخارج، وأن يدخل الفونس پيريس . وبمجرد ما دخل الى المدينة ذهب الى الامير ليقص عليه ماجرى . فأمر الملك بأن يحرصوا على إطعام السبع ومنذ ذلك الحين سمي باب السبع تخليدا لهذا الحادث، ومازال يسمى كذلك الى يومنا هذا . وبعد أيام قلائل، حمل مغربي رأس الحية الى الملك وقدمه اليه مؤكدا بأنه قتلها طالبا منه المكافأة على ذلك . وكان الفونس پيريس إذ ذاك في القصر، فعرف رأس الحية، وطلب من الأمير أن يتفضل فيأمر المغربي بأن يكشف عن لسان ذلك الحيوان . وعندما كان المغربي يبحث عنه أرسل أحد غلمانه ليحضره من حقيبته . فتأكد الملك من كذب المغربي، وعاقبه عليه وعاد الفونس بعد ذلك بقليل الى إسبانيا، واكتسب لقب الطيب، بناء على ماأداه من خدمات لربه ولملكه . ومنه انحدر دوقات ميدينا سيدونيا .

الفصل 72

عزم الشريف على غزو مملكة بادس

كان من بين أهل المريني الذين ألقي عليهم القبض زوجة أبي حسون واسمها للافاطمة . كانت فائقة الجمال متحررة أكثر مما يتطلبه شرفها، لأنها كانت تعشق بسهولة، وسرعان ماتمل مغامراتها الغرامية . كان الخبر شائعا بأن لها علاقات مع أسرى مسيحيين، إذ أنها بسبب الغيرة تسببت في

موت أحدهم لما علمت أنه كان يتمتع بأمة زنجية لها وقتلتها أيضا . وقد تم ذلك كمايلي : كتبت بطاقتين الى عامل قصبة فاس البالي، أرسلت إحداهما بواسطة الأسير، والأخرى بواسطة الزنجية، تطلب في كلتيهما من العامل أن يقتلهما معا، فلم يتردد في تنفيذما أمرته به، وألقاهما في بئر . وبالتالي كانت هذه السيدة تقول جهرا - وقالت لي ذلك أيضا - إن الله لن يميتها حتى ترى الامبراطور شارل الخامس، الذي كان إذ ذاك ملك قشتالة . لقد حملت هذه المرأة الى مراكش، ولما أذن لها بأن يزورها الناس هناك أرسلت في طلبي عدة مرات بدعوى التحدث عن فدية بعض غلمانها، لكنها لم تفعل ذلك إلا لاستخدامي في تبادل الرسائل مع زوجها الملك .

ولنرجع الى تاريخنا فنقول : إن الشريف حينما استولى على فاس، عزم على غزو بادس غمارة لا لغضبه على أبي حسون فحسب، ولكن أيضا بسبب الخوف منه، لأنه كان شجاعا مقداما محبوبا جدا في إماراته كلها . فأوفد الى بادس سيدي موسى الحاكم مع جميع مايلزم من الجنود للاستيلاء على هذه المدينة، فاحتلها بدون أية مقاومة . ذلك أن الملك لما رأى نفسه محروما من كل شيء ذهب الى الصخرة (البينيون) غير أنه لم يجد فيها كل مايجب لتحمل الحصار، فقرر امتطاء مركب شراعي والابحار الى إسبانيا والنزول بمالقه وكان قد كتب قبل خروجه بكثير الى دم بيرناردين دي ماندوسة قائد الأسطول بأن يحتل الصخرة باسم الامبراطور، لكن الرسائل لم تصله، أو لم يولها أية ثقة، بحيث إن القلعة هجرت، فاستولى عليها الحاكم، كما استولى على المدينة واستقر بها . وبعد أيام قلائل، جاء بعض الشيوخ لمبايعة الشريف والاعتراف به كأمير لهم . وعقب ذلك اختار الملك "الجبار" فاس الجديد كمقر لبلاطه، وأحضر اليها أولاده ونساءه، والذخائر والعبيد الذين كانوا عنده بمراكش . وكان من بينهم غلام يسمى الفونس بيريس دي سايافيدرا، ابن الكونت دي لاگوميز من مغربية من آل هذا "الجبار" كانت أسيرته . كان هذا النبيل شجاعا، يحسن الكلام بالعربية وسائر لهجات هذه البلاد، حتى إنني سمعت الشريف يقول إنه لايوجد في بلاد البربر كلها من لا يعترف بذلك لهذا النبيل، الذي كان فضلا عن كل هذه الخصال المتعلقة بقوة الفؤاد والذهن يتحلى بفضائل روحيه، إذ كان يحب الدين ويتفانى فيه . لكن قبل أن

أذكر أي شيء عن إيمانه، سأروي الكيفية التي استعبده بها الشريف .

لما كان الفونس پيريس شابا أغار عدة مرات مع بعض الناس من الجزر الخالدات (كناريا) على بلاد المغاربة (168) حيث أسر بعض الرجال واستعبدهم، ثم وصل الى ميناء تاهگور (كذا) وأرسل من هنالك رجلا الى العامل للحصول على جواز مرور، قصد التفاوض في فداء بعض الأسرى . فسلم اليه العامل الجواز، وبعث على الفور الى الشريف الأصغر الذي كان بتارودانت، يخبره بأن الفونس پيريس دي ساياڤيدرا يوجد في الميناء بجواز مرور للتحدث في شأن بعض الفديات . ولما كان الشريف غاضبا من الغارات التي كان يشنها هذا المسيحي في المنطقة، عزم على أسره رغم جواز المرور الذي كان يحمله . ومن أجل ذلك أمر أن تسلح برأس أگير بعض السفن الكبرى التي كانت تسير الى الميناء الذي يوجدون فيه، فوصلوا اليه ليلا، وحاذوا المركب واقتحموه وأخذوا منه الفونس والربان وسائر من فيه ، أحضر الفونس أمام الشريف الذي شتمه كثيرا وغله بسلاسل تزن أزيد من سبعين رطلا، ومع ذلك كان يتحرك بسهولة، حتى إنه عندما كان يذهب الى أماكن التجار المسيحيين كانوا يعرفونه من بعيد، ويتراهنون لمعرفة ما إذا كان هو أو أسرى آخرون عديدون ، قضى الفونس أكثر من ست وعشرين سنة في الأسر الى أن مات . كان الشريف يكن له بعض الاحترام لأنه كان قريبا له، لكنه مع ذلك لم يقبل افتكاكه أصلا لأنه كان يخشاه . كان العمال يقومون بزيارته دائما، وكذلك أهل أم الشريف، التي كانت تسهر على قضاء حاجاته، كما كان الشريف يأمر دائما بإعطائه حصة من الطعام أجود من غيرها . ومن جهة أخرى، كان من أبرز لاعبي الشطرنج في البلاد قاطبة، إذ كان المغاربة يتباهون خصوصا بهذه اللعبة، بحيث كان يصول ويجول ويحصل على معاشه في سعة بهذه الرياضة، ويصنع أهدابا وحواشي متقنة حتى إن أي سيدة أو فارس لم يكن يرغب إلا في لباس ما يصنع منها .

---

(168) في الهامش : "أنزكاس" ولعل المقصود إنزگان .

وفي سنة تسع وأربعين، وخمسمائة وألف، لما أراد الشريف الانطلاق في عملية فاس، حاول أن يقنعه بأن يسلم قائلا له : إن الدين المحمدي هو الدين الحقيقي، لاخلاص للإنسان ولانجاة له إلا به وحده، وإنه إن قبل ذلك سيطلق سراحه ويزوجه إحدى بناته، ويلقبه بلقب عامل رئيسي . أنصت الفونس بيريس بإمعان الى الشريف، ثم أجابه كفارس مسيحي حقيقي، بأنه تلقى منه كثيرا من النعم أثناء أسره، وأن مايقترحه عليه أشياء عظيمة، غير أنها لن تؤثر قطعا في ذهنه، وأنه يفضل تحمل الموت ألف مرة على التخلي عن دين المسيح ليعتنق الاسلام . غضب الشريف من هذا الجواب ولم يلح عليه أكثر، ثم أرسله الى فاس، فمات هناك .

الفصل 73

اقتسام الشريف مملكاته مع ابنيه :

وموقف أحدهما من الشكايات الموجهة ضد القضاة

في سنة خمسين وخمسمائة وألف من تاريخ سيدنا (المسيح)، عندما رأى الشريف نفسه قويا، اقتسم مملكاته مع ابنيه، فأسند حكم مملكة تارودانت الى ابنه البكر الحران، وحكم مملكة مراكش الى ابنه الثاني عبد القادر الذي كان يحبه حبا جما لأنه كان يشبهه . تألم البكر من هذا التصرف لكن أباه طمأنه واعدا إياه بأنه سيخلفه يوما ما على سائر إماراته . وعقب ذلك ودعا أباهما وأتيا الى مراكش، حيث كنت عاطلا تقريبا على وشك العودة الى إسبانيا . ولما أخبر الحران برحلتي من طرف يهودي (169) كان فيرناند گوميز

(169) صاموئيل كابيصا (هامش)

مدينا له، ببعض المال، أرسل في طلبي وأمرني ألا أنصرف ما لم يبعث فيرناند گوميز بألفي مثقال كانت له عليه من فداء بعض الأسرى . فأجبته بأنه ليس علي شيء وأنني غير ملزم بأداء ديون فيرناند گوميز، وعليه أن يعتبر جوازات أبيه . عند ذلك رد علي بجواب قمين بمسلم (170) وهو أنه وإن لم أكن ملزما بأداء ديون گوميز، إلا أنه لابد من أن أدفعها بدون نزاع، لأنني خلفته في وظيفته . ولم يكن بالامكان سوى الامتثال لأوامره . ثم ذهب الى تارودانت مقر إماراته .

استقر عبد القادر بمراكش موطن حكمه . وعندما أخبر بالشكايات التي كان السكان يرفعونها ضد القضاة والعمال عالجها بالطريقة التالية :

نشر يوم السوق براءة يأمر بها جميع الأشخاص الذين يشعرون بأنهم ظلموا بحكم بعض القضاة أو الشيوخ، أن يحضروا الى مراكش، وأنه سيستمع اليهم محددا لهم من أجل ذلك يوم الأربعاء من كل أسبوع . كان عدد من المغاربة يأتون في هذا اليوم للمطالبة بحقوقهم، فيقضي فيها بالكيفية التالية: كان يجلس أمام بوابة القصر، والى جانبه أعضاء مجلس العدل والحرب، وحراسه مصطفون من القصر الى البوابة التي كانت تعترضها سلسلة يقترب منها الكاتب المدعو المزوار، فينادي الأطراف، ويتقدم على الفور وكيل من نودي، فيدنو من الباب حاملا عددا كثيرا من الطلبات التي سلمها له موكلوه، فيضعها بأدب بين يدي الكاتب الذي يقدمها الى الملك، فيعرضها على أعضاء مجلسه ثم يبتون فيها فيوقعها الأمير، وترد الى الأطراف، وبذلك كان الحكم يصدر بسرعة على هذه الطريقة . وهكذا قوّم المسؤولين عن تدبير الأمور، حتى إنه طوال ثلاثة أشهر لم يعد أحد يأتي ليشتكي . وكنت أذهب عدة مرات لأشاهد هذه الأمور التي تستحق المشاهدة، بل أكثر من ذلك يجب أن يقتدى بها .

---

(170) عبر عنه - كالعادة - بكافر .

الفصل 74

أصل محمد (x)

الفصل 75

الترتيبات التي يتخذها المغاربة أيام الخميس للقضاء بين الناس

يكون في أيام الخميس بعض الأشخاص الذين يسميهم المغاربة حكاما (171) وهم متضلعون في الشؤون المدنية والجنائية معا، لكل منهم خليفة يدعى المائدم يحضر عادة الى المحكمة الواقعة في الساحة التي يقصدها جميع أصناف الصناع .لاتعقيب في الحكم الجنائي بخلاف المدني الذي يكون فيه قاضيان يستأنف حكمها أمام قاضي القضاة (172) الذي يستأنف بدوره حكمه أمام مجاس الملك . إنهم يبتون في القضايا بسرعة، بالنسبة للمدني يفصلون في عدة قضايا صغيرة في المسجد بأداء اليمين على القرآن . لهم موثقون عموميون يسمونهم عدولا، تمر بين أيديهم جميع العقود القضائية، وهم أنفسهم الشهود عليها، إنهم أناس ثقات خاصة من بين البورجوازيين والتجار . ولا يقع أي تزوير، فخلال العشر سنوات التي قضيتها بين هؤلاء البربر، لم أسمع قط أن أحدا أنكر الحق، رغم أن التجار المسيحيين يدعون عندهم بضائع كثيرة، ولاتكون مثبتة إلا في دفاترهم .

(x) حذفنا هذا الفصل لأنه كتب بطريقة غير موضوعية وجارحة .

(171) شبه قضاة . (هامش)

(172) في الهامش «السكوتي» والصحيح : السكتاني .

إنهم جميعا ملزمون بالذهاب الى الجامع لأداء الصلاة، وحتى أيام الجمعة . ولإعلام الناس بالحضور الى الجامع هناك فقهاء يسمونهم مؤذنين، ينادونهم من أعلى صوامع، وقد تدربوا على ذلك حتى إنهم يسمعون من بعيد جدا . ويذهب إليه الملك، محفوفا بقواده وحراسه راجلين وراكبين . ولحث الناس أكثر على عدم التخلف عن الصلاة، يسير غلمان الحاكم عبر الساحات والأزقة فيما بين الحادية عشرة والثانية عشرة صباحا، مرغمين جميع الناس على التوجه الى الجامع . وفي ذلك النهار، يصلي بالناس وباقي الخواص أحد الفقهاء، الذي هو بمثابة إمام خاص بالملك، ويلقي الخطبة عقب ذلك (172 م) وتقام الصلاة على النحو الآتي :

يصلون، وأثناء صلاتهم يحركون أيديهم وأجسامهم بكيفيات خاصة، فيقومون وينحنون ويجلسون من حين لآخر، وهم مستقبلون جهة الشرق التي يسمونها القبلة . لاتدخل النساء المسلمات الى الجامع، لأن الدين يحرمه عليهن (173) وإنما يصلين في بيوتهن . ولهؤلاء البرابرة شبه صيام يسمونه رمضان، يدوم شهرا قمريا . يصومون طول النهار . إن مما يدعو للإشفاق أن تراهم في القيظ، وهم أشد مايكونون خائري القوى شاحبي اللون . يتناولون الطعام ثلاث مرات في الليل، منذ ظهور أول نجم الى مطلع الفجر . يفطرون المرة الأولى عندما يشاهدون أول نجم (174) وإذا كانت السماء غائمة انتظروا أن يقبل الليل بظلامه، وإذ ذاك يتناولون وجبة خفيفة تشتمل فقط على فواكه، وعسل، أو زبد . وعلى الساعة العاشرة يأكلون لحوما جيدة ويصلون عند الفجر ويتناولون طعاما يسمونه السحور (175) . ويكون عيد الفطر عند

(172م) خطأ من أخطاء المؤلف العديدة حول الإسلام وشعائره . إذ من المعلوم أن خطبة الجمعة تسبق الصلاة .

(173) خطأ آخر وجهل بتعاليم الإسلام . فالمسلمات منذ عهد النبوة يؤدين الصلاة في المسجد

(174) من المعلوم الاعبرة بالنجوم ، بل بغروب الشمس .

(175) قدم - جهلا - صلاة الفجر على تناول طعام السحور .

بزوغ هلال الشهر الموالي، ويسمونه العيد، وإذا كان الجو غائما لايسمح برؤية الهلال انتظروا اليوم التالي . وسأذكر بهذا الصدد شيئا حدث بمراكش سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وألف، ألا وهو : في اليوم الذي كانوا ينتظرون رؤية الهلال بناء على حسابهم، وقف جميع المغاربة في النوافذ والسطوح والأزقة، وهم يرقبونه، بعضهم يقولون إنهم يرونه، وبعضهم يقول عكس ذلك . وفيما هم حائرون أعلن عن متابعة الصوم . وفي يوم الغد، حوالي التاسعة صباحا، حضر (رقاص) بريد على بعير، أرسله فقيه اسمه سيدي رحال مقيم بسفح جبل الأطلس، حاملا رسالة الى الشريف يخبروه فيها بأنه رأى الهلال حتى إذا كان أهل مراكش لم يشاهدوه فيعلموا أن ذلك اليوم هو العيد .

ولهم عيد آخر يسمونه عيد الأضحى تذكارا لأضحية إبراهيم . يخرج الملك ذلك اليوم محفوفا بقواده، ويحتشد الجمهور، فيذبح بيده الخروف ليعرف مدى ما سيكون من نجاح في شؤون الحرب طوال السنة . ويتم ذلك على الشكل الآتي :

بمجرد ما يمر السكين على حلقوم الحيوان، يلفونه في قماش ويسلمونه الى أحد غلمان الأمير، فيركب بغلة ويحمله الى المشور الذي يعقد الملك فيه مجلسه . وعند ذاك يكشف عنه : فإذا كانت الضحية مازالت تتخبط تذلك فال حسن، وإلا عدوه شؤما . وبالتالي، فإن المسلمين يشكرون على شيء وهو أنه إذا أصيبوا برزء لم يقولوا سوى هذه الكلمة : الحمد لله. وهذا ما يمكن أن يقال عن هؤلاء بصفة عامة .

الفصل 76

زواج المغاربة، واحتفالات أخرى دينية

بما أن محمدا (عليه السلام) كان يحب النساء (176) فإنه سمح لأتباعه بأن يتزوجوا بأربع نساء شرعيات، وأ يحتفظوا بهن بعض الوقت، ثم يتركوهن ويتزوجوا غيرهن . وعندما يتزوجون يستدعون فقيها وموثقا عموميا وشهودا . وبعد أن يستمع العدل الى مايريد الزوج أن يخصصه مهرا لزوجته، يكتب شبه عقد يسمى الصداق . لايعطي الآباء شيئا لبناتهم، لكن عندما يفارق الأزواج زوجاتهم يكونون ملزمين بأن يؤدوا اليهن ماوعدوهن به . ويمكن للرجل أن يتزوج امرأة أخرى بمجرد ما يطلق زوجته، لكنها لاتستطيع أن تتزوج إلا بعد أربعة أشهر . وإذا ثبت عليها الزنى في أثناء العدة رجمت، وهي عادة اتخذوها من الشريعة القديمة . وإن رغبت الزوجات في طلاقهن من أزواجهن فقدن الصداق . لكن هناك رجالا يرغمونهن على ذلك بكثرة إساءتهم إليهن، وبذلك يتزوجون مرات عديدة . يقيمون احتفالات كبيرة عند الزفاف، وإذا تعلق الأمر بشخصيات ذات منزلة رفيعة، وضعوا العروس على جمل مجهز كما ينبغي، في شبه محفة يسمونها "كايولا" -الهودج- مغطاة بنسيج من حرير ملون مصنوع بكيفية تجعل العروس ترى من خلالها دون أن يراها الناس. يصحب الهودج عدد كثير من الفرسان والنساء المغنيات، ثم يعودون الى منزل الأب، ومن هناك إلى بيت العريس، حيث يأتي قوم كثيرون فيتناولون طعام العشاء، ويرقصون ويغنون . وللبرهنة على أنهم ينفقون كثيرا في الزفاف يذكرون مثلا يقول: إن المسيحيين ينفقون أموالهم في الخصام واليهود في العيد، والمسلمين في الزفاف .

---

(176) عبارة المؤلف وقحة تنبئ عن جهل مطبق بالسيرة النبوية . انظر عبد الله كنون، حب الرسول للنساء، الدار البيضاء، 1988 -لاسيما الفصل الأخير : الحب غير العشق.

وعلاوة على نسائهم الشرعيات، يمكن لهم أن يتخذوا ماشاؤوا مما ملكت أيمانهم ، وتهدى هؤلاء الإماء من طرف الملوك كأزواج لقوادهم، ولمن يحبونهم ويفضلونهم. إماؤهم بيض وسود، ويمكن لهم أن يتمتعوا بهن جميعا دون حرج حسب دينهم . يجب على المسلم أن يبيت عند النساء الشرعيات (177) لكل واحدة ليلة، ويتسلى مع الحظايا والإماء نهارا، ويسكنهن جميعا في دار واحدة، فتشب بينهن مشاجرات واضطرابات كثيرة . ويخصص لكل واحدة مبلغ معين للنفقة العادية حسب منزلة الذي يملك عصمتهن . وبالنسبة للنفقة الإضافية لايمكنه أن يعطي إحداهن دون الأخريات . ويحرص الزوج على أن يكن حوامل في غيابه لايفكرن إلا فيه . لذلك تراهن يقلن للجيران في الصباح : "اشهدوا بأنني حلمت زوجي هذه اللية . "وهكذا مهما طال غيابه، فإنه ملزم بأن يعترف بالأولاد الذين ولدوا في داره . ويعتقد المسلمون أن مدة حمل المرأة قد تطول حتى سبع سنوات . وسأحكي في هذا الصدد ما جرى لإسلامي، من مواليد تافيلالت، مع جارية جميلة وهبها له الشريف كزوجة .

بعد مرور خمس سنوات على زواج الجارية من هذا الاسلامي، وقد ولد لها ولد عمره أربع سنوات، تخاصم معها زوجها، فاغتاظت من ذلك وقالت له إن ذلك الولد ليس منه بل من الملك . ثم ذهبت الى فقيه وطلبت منه أن يقول للشريف إنها كانت حاملا عندما وهبها للإسلامي، وإنها ولدت منه طفلا، وعليه أن يأخذه لأنه أبوه . فبلغ الفقيه ذلك الى الملك، الذي تحدث الى المسلمة، ثم أرسل في طلب الزوج وقال له : "هذا الابن لي، وأريد أن يحضروه لي، لأنه حسب ديننا يمكن للمرأة أن تظل حاملا سبع سنوات" . فأجابه الاسلامي بقوله : "مولاي، إذا كان الاسلام يبيح مثل ذلك، فإنني لا أريد أن أكون مسلما، لأنه لاتوجد أمة من بين سائر الأمم الأخرى

---

(177) الصواب : عند النساء الحرائر .

تحمل فيها امرأة أكثر من تسعة أشهر، ولا أساس من الصحة لما تقولون ولذا فإن الطائل لي". سخر الشريف من هذا الجواب، وسمى الاسلامي مهبولا(178).

وبالتالي فإن هؤلاء القوم "المتوحشين" يتأثرون إلى حد كبير بموت الملوك والعمال . ولإظهار حزنهم عند وفاة أحد الشخصيات المرموقة، يستأجرون عدة نساء يكسبن قوتهن بالبكاء ونتف شعورهن وخدش وجوههن، فيقرعن طبلا بصوت كئيب ويندبن الراحل ويرثينه رافعات أيديهن الى السماء ومضرجات، وجوههن بالدماء . يغنين قبل دفن الموتى ويغسلنهم ويلففنهم في كفن جديد، ثم يحملنهم على محفة صحبة بعض الفقهاء والفقيهات وغيرهم . لكنهن يسرن بسرعة، ويذكرن بأعلى صوتهن قائلات : الله كما ينادون محمدا (عليه السلام)، وإذا وصلن الى المقبرة الواقعة خارج المدينة، دفنهم في تراب طري . القبر واسع من أسفل ضيق من أعلى، وهو مقبب بحيث لايطرح التراب فوقهم أصلا، يوضعون على جنوبهم، ولايجعل في كل قبر إلا ميت واحد . يعتقد هؤلاء البرابرة أن الموتى إذا وضعوا هكذا كانوا متأهبين أكثر ليوم البعث، فلايشق عليهم البحث عن عظامهم . وبعد هذه الأنواع من الاحتفالات يحملون الطعام الى الموتى، ويضع الناس كلهم المال والمجوهرات في أضرحتهم مقتنعين بأنهم سيجدون كل ذلك في الآخرة ويتاجرون به (179) .

ليس عندهم نواقيس ولا ساعات دقاقة ولا أية صورة، لأن هذه الأشياء جديرة بالوثنيين . ولايقطعون أصلا الخبز ولا اللحم بالسكين، ولكنهم يستعملون أيديهم فقط . وليس لهم كمائدة وسفرة إلا الأرض، مع حصير أو قطعة جلد، يسمونها الطيفور . أضف الى هذا أنه ليس لهم مناديل، وإنما يلحسون أصابعهم بألسنتهم، وذلك أقذر شيء في الدنيا . وسأحكي لهم بهذا الصدد ما حدث لي مرة مع الشريف الشيخ .

---

(178) أي ساذجا . (هامش)

(179) يعمّم المؤلف عادة حمل الصدقات والنذور الى أضرحة الأولياء على جميع الموتى ويؤول ذلك تأويلا بعيدا عن تعاليم الاسلام وبدع المسلمين معا .

كان الشريف ذات يوم يتعشى، وهو يمسح اليد التي كان يأكل بها على رأس مسلم صغير أسود، في سن العاشرة، وأنا أبتسم دون أن أتعمد ذلك . فانتبه الي وقال لي :

"قل لي. ياديبيكو، بأي شيء يمسح الملوك المسيحيون أيديهم عندما يأكلون ؟ وماهو ثمن الشيء الذي يستعملونه لذلك ؟ فأجبته بأنهم يستعملون مناديل مطرزة تساوي كل واحدة منها أكثر من مثقال، وأنهم يقدمون لهم في كل وجبة فوطة بيضاء . فرد علي، وقد مسح يديه مرة أخرى على شعر الطفل المسلم : "أليست هذه الفوطة - في نظرك - أفضل بكثير، لأنها تساوي سبعين أو ثمانين ريالا " ؟

شراب جميع المغاربة الماء ولبن الماعز والنوق . وإذا مرضوا لايلجؤون أصلا الى الأطباء ولا إلى الصيدليين، وإنما طبهم الحمية، والأعشاب، والنار . وفي إمكاني أن أذكر عدة أشياء أخرى عن هذا الشعب وعن دينه . لكنني لست راغبا في إضجار القارئ ولا في ترديد صدى أقوال من كتبوا عن هؤلاء الشعوب .

الفصل 77

المؤلف يصبح صديقا حميما لأحد أبناء الشريف

كان من جملة أبناء الشريف واحد اسمه مولاي عبد المومن . عمره عشرون سنة رشيق القد حسن القامة، ناصع اللون، مهيب المنظر، جميل العينين. كان صديقا حميما للمسيحيين، يحسن بعض الشيء اللغة الإسبانية . وقد أكن لي الصداقة، فكان علي أن أزوره عادة مرتين في اليوم . ولما كان أبوه يحاصر فاسا سنة تسع وأربعين وخمسمائة وألف، وخلفه هو على حكم مراكش، كان يظهر ما يكنه لي من محبة وهو يرى نفسه سيد البلاد وعزم على أن يتعلم كتابة وقراءة لغتنا . وكنت في الحقيقة ألقنه إياها بإخلاص، لأن قصدي أن أطلعه على أمور ديننا . كان شديد الرغبة في

القراءة حتى إنه يحمل معه دائما كتاب ألفبائه، وإذا سئل عما يقرأ كان يجيب بأنه يقرأ القرآن .

ولما توطدت مودتنا كان إسلامي، من أصل مسيحي من مواليد تافيلا (180)، وكان عاملا له، أحس بغيرة شديدة . ومما زاد في غيرته أنه وجدنا ذات يوم في حديقة القصر، والأمير الشاب يظهر نحوي بعض أمارات المودة . كان قد أمرني أن أقطف له العنب، وأشركني في الغداء معه بأشياء اخرى جئت بها من منزلي . كنت رافعا عنقود العنب بيدي، فيتناول الأمير منه حبة وأنا أخرى، حسب رغبته . عند ذلك دخل العامل، وبما أنه كان يكرهني ويغتاظ أن يراني متمتعا برعاية عبد المومن، قال له إن أعضاء المجلس ينتظرونه، لكن ذلك لم يمنعه من إتمام الغداء، وذهب بعد ذلك الى المجلس . وبعد رجوعه أخذنا نتعاطى لعبة الأوتاد، وكان يهب ما يخسر فيها الى الأسرى المسيحيين ليستعينوا به على العيش .

أرغى الإسلامي عندئذ وأزبد ضدي، واخترع حيلة من شأنها أن تفقدني صداقة عبد المومن، لكنها كادت أن تودي بحياته . فقد أخبر أعضاء المجلس أنني أحاول تنصير الأمير الشاب، وأنه متأكد من ذلك، ولابد من تدارك الأمر . وفي هذا الصدد أشار عليهم بأن يزوروا رسالة باسم الشريف، يحملها الي أحدهم. وبعد يومين، جاء عندي سيدي منصور، وهو من أعضاء المجلس، فأخبرني بأنه تمنى كثيرا ألا يكون مكلفا بما سيقوله لي، وأطلعني على الرسالة المزعومة. فشكرته على مايوليني من عناية، رغم أنني كنت أعلم بأنها مجرد دسيسة،وأكدت له أنني سأمتثل ما أمرني به الملك فانصرف المغربي بعد ذلك،ولم أذهب طيلة ذلك اليوم الى القصر، لكن عبد المومن أرسل في طلبي غداة اليوم الموالي،فتمارضت معتذرا الى اليوم التالي ، ومع

---

(180) اسمه محمد . (هامش)

ذلك فإنه أرسل في طلبي ثلاث مرات، وأخيرا ذهبت فوجدته في زقاق الخيل، وقبل أن أدنو لتقبيل يده، قال لي إن وجهي ليس وجه مريض، ولكن وجه غاضب . وألح علي لكي أكشف له مايهمني، فأطعته وقلت له : إن عامله الإسلامي يحاول أن يضعني في مأزق . فأمر في الحين غلامين أن يأتياه به، ولما حضر أمر الذين جاؤوا به أن يقتلوه . فألقوه فورا على الأرض وهموا بقتله بالخنجر لولا أنه توسلت الى الامير الشاب لصالحه، فلطف من غيظه، ولامه على نذالته . ولم يرد أن يراه منذ ذلك الحين .

وحيث بدأت أوري لكم ما جرى لي، فسأضيف الى ذلك أيضا مايلي :

كنت ذات يوم في حديقة مع أخت عبد المومن، التي جاءت مع سيدات أخريات ذوات مناصب رفيعة، فاقتربت منها بأدب وطلبت يدها لأقبلها. وبعد تبادل الكلام أمرتني أن أصنع لها إكليلا من الزهور، كتلك الأكاليل التي يحملها الملوك المسيحيون عادة، فصنعته وقدمته لها، فوضعته على رأسها وقالت لي : "ليتني لا أموت حتى أتزوج بالأمير دم لويس حينما يصبح عاهلا لهذه المملكة، إن عدة مغربيات يعتقدن أنه سيحكم هنا في يوم من الأيام، ومن الأكيد أنهن سينتصرن ليكن زوجات لرجل واحد لأنهن يعتبرن ذلك في شريعتكم . "كانت تلك السيدة مرتدية ذلك اليوم الزي الإسباني : بدلة من الساتان الأبيض في بياض جسمها، وأكمام القميص عريضة جدا ومفتوحة، وخمار رفيع فوق الرأس . كانت تحسن شيئا ما اللغة البرتغالية، وتتحلى بفضائل ومزايا عظيمة .

الفصل 78

إقامة المؤلف مذبحا عندما كان في بلاد البربر ووضعه فيه تماثيل

ماكدت أصل الى مراكش حتى لاحظت أن المسيحيين لم يعودوا يهتمون إطلاقا بالجهر بإقامة شعائرهم الدينية، لأن الشرفاء لم يقبلوا قط إقامة القداس في ممالكهم، ولأن المرينيين لم يرخصوا به في تطوان إلا لكونتريراس . وسأذكر بهذا الصدد ما حدث للدار التي كان يقام فيها الحفل المقدس . فبمجرد ما عاد الى إسبانيا خربت هذه الدار حتى إنها لم ترمم منذ ما يزيد على اثنتي عشرة سنة، وحتى الزمن الذي مررت فيه من هناك، ولم يسكنها أحد . كان يبدو للمسيحيين أنها منة من الله، حتى لايدنس المكان الذي كان يقام فيه القداس بعادات المسلمين واحتفالاتهم .

ولنعد الى حديثنا فنقول : بعد أن أسكنونا، نحن المسيحيين، الديوانة الكبيرة، عزمت على تفريش قسم من المنزلين الذين كانا من نصيبي ونصيب فيرناند گوميز، وأن أضع فيه مشهدا مع بعض التماثيل التي كنت حملتها من إسبانيا . ومن أجل هذا، ناديت جميع التجار يوم السبت ليلا، بعد أن أغلقت أبواب الديوانة، وأوقدت عدة شمعات ومصباحين . فلم يكن سرورهم بهذا الشيء الجديد أقل من اندهاشهم له، وأخذنا نرتل جميعا، "سالڤي ريجينا"، واتفقنا على أن نعمل مثل ذلك كل يوم سبت ويوم عيد . ثم ألفنا طائفة سميناها طائفة الرحمة، وقررنا أن يطلب تاجران الصدقة للأسرى المسيحيين المساكين كل أيام الأحد والأعياد . وبعد ذلك بقليل أقبل وقت الصيام، وبما أننا كنا في الأسبوع المقدس، أقمت مذبحا صغيرا تذكارا لخلاص البشر على يد المسيح . وفق ديننا، وجعلته من الحرير المختلف الألوان في اثنتي عشرة درجة مغطاة بالساتان الأبيض، وفي الوسط قطعة من القطيفة السوداء بعدة أسنان وتخريم من الورق، وأربع وعشرين شمعة بيضاء، وعدة باقات من الورد والقرنفل . وفي اسفل الدرجات وضع صليب على وسادة

مغطى بستار أسود، مع أربع شمعات عسلية من نفس الشمع . وفي يوم الجمعة العظيم بينما كنا نرتل آلام المسيح، والديوانة موصدة، سمعنا ضجيجا، فأرسلت على الفور غلاما يتعرف على ذلك . فأخبرني أنهم مغاربة يطلبونني من قبل العدالة . خرجت إليهم، وبعد أن سلمت عليهم حسب طريقتهم، سألوني عما كنا نفعله وأنه بلغ الى الملك شيء لايعجبه . فأجبتهم بأننا بصفتنا «مسيحيين نقوم بما يجب علينا القيام به، وأنهم سيدخلون عندما ستتم صلواتنا . رجعت حينئذ وأسرعت في اتمام المراسيم بسرعة . وأدى التجار صدقاتهم التي بلغت سبعين مثقالا، ثم أدخلنا المغاربة . فذهلوا من جمال مذبحنا الصغير . وبعد أن جلسوا على الزرابي المبسوطة على الأرض، سألوني بواسطة ترجمان عن معنى هذا، فقلت لهم إن ذلك تشخيص لموت المسيح وآلامه، وهو الذي يدعونه سيدنا عيسى . وشرحت لهم بعد ذلك أنه مات على عود الصليب لافتداء جميع البشر . وتحدثت لهم عن حبه، وسلطته، وغير ذلك من صفاته "الإلهية"، فانسحبوا وهم مسرورون جدا - على مايبدو - من تصرفاتنا . لكن الأمير طلبني حوالي الساعة الثالثة عشية، فقصدته في المشور برفقة بعض التجار . وبمجرد ما رآني قال : "إيه ياديبكو، من أذن لك بأن تفعل ما قيل لي إنك فعلته ؟ و كيف تجرأت على القيام به دون أن تلتمسه مني ؟" فأجبته بأدب : "مولاي، لو كنتم من جملة المسيحيين، فهل تريدون أن تطلبوا لهم حرية إقامة الصلاة ؟" قال لي "كلا . " فقلت : "هلا تستحسنون إذن أن نؤدي واجبنا الديني، نحن الذين نوجد في بلاد المسلمين ؟" فاستحسن الملك جوابي وموقفي، ودعاني إبليس (!)، وأذن لي في اتخاذ تماثيل ومتابعة صلواتي على الطريقة المسيحية . كانت للشريف خصلة حسنة وهي أنه يقدر جميع الأشخاص الذي يؤدون مراسم دينهم . وفي هذا الصدد فإن المغاربة المتشبثين بتعاليم دينهم يقولون إنهم سيفوزون بالخلاص الأبدي من بين جميع الأمم، وإننا سنذهب كذلك الى الجنة، نحن المسيحيين،إذا فعلنا ما يأمرنا به الحبر الأكبر (181)

---

(181) في الهامش : "هكذا يدعون البابا" ولاحاجة الى ما في كلام المؤلف من خلط وقلب في موقف المسلمين من المسيح عليه السلام وأتباع دينه الحقيقي، ومن المحرفين الضالين المضلين .

الفصل 79

عبور المؤلف جبل الأطلس للذهاب من مراكش الى تارودانت

بعد إقامة طويلة بمراكش، غادرت هذه المدينة مع بعض المسيحيين في شهر ديسمبر سنة خمسين وخمسمائة وألف، ومن هناك ذهبت الى جبل الأطلس الذي هو وعر جدا في بعض المواضع، وآهل كثيرا بقبائل بربرية في الجانب الشمالي . إنهم يفتخرون بأنهم حفدة مسيحيين، كانوا قديما في هذا الجبل، عندما استولى عليه المسلمون، مؤكدين بأنهم عاشوا أكثر من مائة سنة على المسيحية، لكنهم عندما فقدوا كل أمل في النجدة، إذ كان المسلمون قد غزوا إسبانيا كلها وجزءا من فرنسا وإيطاليا، اضطروا الى الاستسلام للمنتصرين واعتناق دينهم . إنهم بيض البشرة، يتكلمون بلهجة يسمونها تامازيغت، (182) لايمكن أن تكتب. وبالنسبة لزواجهم فإنهم يتخذون عادة امرأة واحدة، ويشربون الخمر ممزوجة بطبيخ لتكون حلالا في نظر الإسلام .

سكان هذا الجبل قصيرو القامة، والبلاد غنية بالفواكه الحلوة والحامضة . وهم يحصدون قليلا من القمح وكثيرا من الشعير، وفيه جداول ماء في غاية الجمال، وعيون خاصة منها واحدة في قمة الجبل على المحجة الكبرى المؤدية من مراكش الى تارودانت، وهي عجيبة . وليلة وصولي الى هذه الربوع نزلت عند سيدي محمد، من أكابر وأغنياء سكان الجبال. كان يستقبل المسيحيين الذين يمرون من هنالك. فخصص لي استقبالا حسنا، وقضى معي

---

(182) كتبت في النص الفرنسي "تماسيت"

جزءا كبيرا من الليل وهو يقص علي أن عندهم ناقوسا في كهف، وبعض الكتب من عهد المسيحيين تدل على انتمائهم إليهم، وكان تحت يده مفتاح ذلك المكان الذي يسلم الى أكابر البلاد . كنت راغبا في زيارة الكهف، لكنني عدلت عن ذلك، خشية أن يغضب الشريف إذا أخبر بذلك . وأفادني المضيف بأنهم يكرهون جدا هذا الملك، لقتله الشيوخ بمراكش، وللضرائب التي يفرضها عليهم . وفهمت من كلامه أنهم سيثورون عما قريب .

وخلال الليلة التي قضيتها هناك، شاهدت الكيفية التي يعلم بها هؤلاء البربر أولادهم، فبدت لي معقولة جدا . إذ بعد أن يرعى الأطفال قطعانهم طوال النهار، يجتمعون عند المساء في منزل معلم، وعلى ضوء نار عظيمة يوقدونها بالحطب الذي حملوه معهم، يستظهرون درسهم الذي حفظوه في النهار . وأخيرا بعد أن قضيت الليلة، ودعت مضيفي، وأمرت أن يؤدى له ما كان علي من نفقة، لكنه امتنع من قبضه، بل بالعكس أراد أن يعطي غاماننا ما يكفيهم للسير بنا الى تارودانت .

تناولنا الغداء ذلك اليوم على قمة الجبل قرب تلك العين الجميلة التي ذكرتها آنفا، وحمدت الله على أن وجدت في مكان بهذا القدر من الارتفاع عينا عجيبة كهذه . يتخذ المغاربة بجوار هذه العين أحجارا ينحتون فيها ثقبا يضعون فيها الماء والدقيق، ويصنعون من ذلك شرابا يحملونه معهم ويشربونه . وعند صلاة العصر (الستار عند المسيحيين) انحدرت نحو تارودانت، التي كنت أشاهدها من هناك، إنها جاثية في سهل فسيح وصلت اليه ليلا، وذهبت لأقيم في المكان الذي يوجد فيه التجار المسيحيون . وفي الغد ذهبت لأقبل يدي الحران، وقلت له إنني قصدت المكان الذي يقيم به امتثالا لما أمرني به وأنا بمراكش، لكنه بدلا من أن يستحسن ذلك، ألقى علي القبض، أنا وأحد وأبناء فيرناند گوميز، الذي بقي رهنا في الألفي مثقال التي كانت مازالت في ذمته، وزج بنا في خندق الأسرى المسيحيين . كان هذا الخندق الذي يسمونه مطمورة، نازلا تحت الأرض بأزيد من اثنتي عشرة قامة، لاينفذ اليه الضوء إلا من فناء صغير .

حبسنا هذا "الجبار" في السجن أكثر من سنة ونصف الى أن مات، فأخرجنا منه بعد موته ابنه مولاي سليمان، بطلب من بعض التجار المسيحيين

لكن لابد من الاعتراف بأننا قاسينا في هذه الزنزانة جميع الآلام، وتقريبا جميع الأمراض التي يمكن تصورها . كنا بالتأكيد سنموت فيها بؤسا لولا زوجة الحارس التي كانت رؤوفة واسعاف بعض التجار المسيحيين . وأثناء مقامي بالسجن، عين الحران فقيها اسمه سيدي يحيى، أصبح صديقا لي . وعندما رأى ذلك الفقيه أننا نتلو كل ليلة "سافي ريجينا" أمام التماثيل، سألنا عم تصلح له هذه التماثيل، وعن نوع صلاتنا . فأجبته بأن صلواتنا هي عبارة عن بعض الأدعية التي كانت الكنيسة ترتلها، وأن التماثيل تستعمل لتشخيص القديسين الذين هم في السماء، وتذكيرنا بهؤلاء المنعمين الذين يتمتعون بالحضرة الالهية، والذين يتوسلون لنا عند الله . سر هذا المغربي بما قلته له، وأفادني بأنه يرغب في التنصر.

الفصل 80

وصف مدينة تارودانت

تقع مدينة تارودانت في واد صغير لطيف جدا، يمتد من رأس اكير الى الجبال الفاصلة بين هذه المدينة ودرعة . طوله ثمانية عشر فرسخا، وعرضه أقل من ذلك بقليل، من جبل الأطلس الى جبال أخرى تعزل المدينة عن الصحارى . يحدها من جهة الشرق إقليم درعة وتافيلالت، ومن جهة الغرب رأس أكير وبلاد صنهاجة (183) ومن جهة الشمال جبل الأطلس، والصحارى، من جهة الجنوب . وتحيط بها أسوار من الطين الممزوج بالجير، مجهزة بأبراج، واتخذت اسمها من قرية كانت في السهل، تدعى تارودانت .

---

(183) في النص الفرنسي : "ازناكة" .

وبالتالي ليس لهذه المدينة خنادق، وإنما لها في الجانب الشرقي فقط قصبة ذات أسوار متينة، فيها قصرا الشريفين، وهما مزخرفان على الطريقة المغربية وتوجد بمتربة هذه القصبة بساتين في غاية السعة، تحتوي على جميع أصناف الثمار . ويشتغل الأسرى المسيحيون عادة في الحدائق المسورة، التي يخصصها الشريف لنسائه وحظاياه كما كان يعطي كل أسير شجرة من كل نوع من الثمار ليحرس له أخرى . وعندما كنت ذات يوم أتحدث معه في الحدائق، سألني عن السبب الذي من أجله كانت شجرة واحدة يعطيها لأسير تدوم طويلا، بينما جل أشجاره تفسد عاجلا، كان يقول ذلك مبتسما على سبيل المزاح، مبديا أنه يعرف جيدا مصيرها .

توجد في المدينة، فضلا عن هذه الحدائق والقصور، عدة مساجد مشيدة على الطراز العصري . كما أن هناك أزقة جميلة، ومنازل جيدة، وساحات أسواق فسيحة يقيم بها الصناع، وتباع فيها عدة بضائع بكثرة كاثرة. وفيها ملاحان يسكنهما أكثر من ألف يهودي . وللتجار المسيحيين ديوانة، وهي أول دار بناها الشرفاء ليسكنوا فيها : وتشتمل على غرف جميلة وماء عذب فرات يخترقها، وفي كل مساء يغلق بواب مغربي أبواب تارودانت ويفتحها كل صباح . أضف إلى هذا أن لها مجازر تباع فيها طرائد الصيد واللحوم، وسمك البحر والنهر . ويقام كل يوم خميس سوق قرب المدينة، يقصده جميع سكان المملكة لبيع وشراء القمح والشعير، والغنم، والدجاج، والصوف، والملح . كانت جميع هذه المواد رخيصة في العهد الذي كنت فيه هناك . وفيه أيضا كثير من ريش النعام، المجلوب من بلاد صنهاجة، والعنبر المحمول من هذه القبائل نفسها، وكمية وافرة من السكر . ويستخرجون من زيت الزيتون القدر الكافي لمؤونتهم . علاوة على كروم جيدة، يطبخون عنبها، أو يأكلونه طريا بعد أن يقطفوه . كما أنهم يجففون بعضه (زبيب). ويوجد فيها كذلك جميع أنواع الخضر الطرية واليابسة .

يمر قريبا من هناك نهر يسمونه أكوس تؤخذ منه قنوات تدخل الى هذه المدينة، ويخترق ماؤها المساجد والقصور، ويسقى به قصب السكر . وقد شاهدت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وألف أشجار الإجاص والتين تثمر مرتين. وفي ضواحي المدينة غابات كثيفة، يربون فيها خيولا جيدة وعددا

كثيرا من الإبل، كما توجد مراع خصبة ومناجم فضة، ومعادن أخرى كثيرة تشبه السكة. وأسلوب المعاش هو ما عليه الحال بمراكش . وميناء هذه المملكة على ساحل رأس أكير، يتاخم في اتجاه الغرب تاحكوز وصنهاجة، حيث يقطن الأعراب الذين يرتدون قمصانا زرقا من القطن، ويغطون رؤوسهم بنفس اللون، ويلبسون سترات من صوف . لاخبز عندهم على الإطلاق وإنما يأكلون الأرز واللحم ولهم قليل من الخيل وكثير من الإبل يستعملونها للارتحال . وسكان الجزر الخالدات (كاناريا) يجاورنهم من إحدى الجهات ويتاجرون معهم . وهذه القبائل من رعايا الشريف . وأخيرا فإن هذه المملكة وإن كانت صغيرة من حيث الامتداد فهي غنية بجميع الأشياء وفي غاية الاعتدال، توجد فيها عدة أسد وخنازير برية وبقر وغنم وحشية .

الفصل 81

بعث الشريف الجنود لغزو مملكة تلمسان

لما استقر الشريف وتمكن من مملكتي فاس وبادس، وقسم إماراته الأخرى بين أبنائه، أقام المريني بدرعة، وابنه القصري بتارودانت، وأخاه بوزكري بمراكش، وأهله الآخرين في أماكن شتى ليحرمهم من كل وسيلة اتصال فيما بينهم . وحيث إن طموحه لم يترك له وقتا للراحة، فإنه عزم في مستهل سنة احدى وخمسين وخمسمائة وألف، على أن يستولي على مملكة تلمسان وهي يومئذ بيد أتراك الجزائر، الذين اغتصبوها من ملكها السابق . أمر الشريف ابنه الحران الذي كان بتارودانت أن يأتي الى فاس . وما كادت تصل رسائل الشريف الى الحران حتى جهز تسعة آلاف من حاملي الرماح، وترك ابنه مولاي سليمان خليفة له بتارودانت، وسار بهذه الجنود الى مراكش، حيث كان أخوه قد جند كذلك أربعة عشر ألفا من حملة الرماح . وبعد أن تزود هناك بكل ما يحتاجه للحرب، توجه نحو فاس، حيث استقبل استقبالا حسنا من طرف إخوته ورجال الحاشية وأبيه الذي زاده عشرة آلاف من الجنود المسلحين بالرماح، بحيث أصبح له في المجموع ثلاثون ألف فارس، انطلق بهم

وبحرس الملك الإسلاميين الى تلمسان .

كان هذا السفر موفقا جدا، لأن سكان هذه المدينة كانوا مضطهدين من طرف الأتراك، فلم يبلغهم نبأ قدوم الحران والقوات المصاحبة له حتى حملوا السلاح لنصرته، فخرج الأتراك من تلمسان في الحين وانسحبوا الى الجزائر . هكذا احتل الحران تلمسان دون أن يفقد رجلا واحدا، واستقبله السكان بفرح عظيم، ولم يلبث أن حضر ممثلو المناطق المجاورة مقدمين له البيعة . ولما رأى الحران نفسه موفقا الى هذا الحد، أراد أن يطرد الأتراك من مستغانم، فجمع مجلسه وأعيان مملكة تلمسان الذين أكدوا له التزام خدمته، فاستشارهم فيما هو عازم عليه . وحينئذ اختلفت الآراء إذ ظن قواده، وهم في غمرة نشوة الانتصار، أن القدر سيساعدهم دائما، وأنهم سيهزمون الزتراك بسهولة . أما أهل تلمسان فإنهم بالعكس نصحوه بألا يتحرش بالأتراك، لأنهم خطيرون أقوياء شجعان ، ولأنهم بدلا من أن يسلبهم أدنى شيء قد يتمكنون من أن يسلبوا الشريف ملكه . وبالرغم من أن هذا الرأي كان هو الأفضل فإن القواد الشباب الذين ظنوا أنهم سيقضون على الكل بسهولة، أقنعوا الحران بالقيام بمحاولة ضد الأتراك . لذلك ترك غلاما له عاملا على تلمسان، وسار نحو مستغانم دون أن يجتاح بلاد وهران ولو أنه مر قريبا من المدينة . انتشر الخبر بأنه تلقى أمرا من أبيه بألا يحدث أي ضرر بأراضي الامبراطور شارلكان . وأخيرا وصل أمام مستغانم فاحتلها بدون مقاومة، لأن الأتراك الموجودين بها، رأوا من المجازفة الدفاع عن مدينة ضعيفة غير مجهزة بما يلزم . فانسحبوا الى الجزائر، مصممين العزم على أنهم لن يتركوا طويلا عدوهم في الراحة .

وفي هذه الأثناء ترك الحران حامية في مستغانم تتألف من سبعمائة فارس وبعض رماة البنادق، وعين حاكما لها أحد المغاربة من أحيائه، ثم عاد الى تلمسان محملا مجدا وغنيمة، وانطلق من هناك الى فاس، حيث استقبله أبوه بابتهاج فائق لايمكن التعبير عنه، وبحفاوة لائقة بمثل هذه العملية الظافرة .

الفصل 82

إصابة الحران بمرض بعد عودته الى فاس، وموته

بعد أن استعاد مولاي الحران أنفاسه قليلا سرح جنوده، وبعد ذلك بقليل طلب بكل تواضع من أبيه أن ينصفه في التقسيم الذي وضعه لإماراته، معتمدا في ذلك على الخدمات التي أداها لوالده، راغبا في أن يمنحه مملكة مراكش، ويكتفي أخوه الأصغر بمملكة تارودانت . أبان الشريف بأن مثل هذه الرغبات لاتروقه اطلاقا، الأمر الذي أفزع الحران حتى إنه مرض ومات بعد اثني عشر يوما، ودفن في مقبرة ملوك فاس (184) القريبة من المدينة القديمة، والتي هي من أجمل آثار المغاربة . وقد أسف عليه الشعب والجند، لأنه كان أميرا شجاعا .وكان الشريف أقل تأثرا، لأن المحبة التي يكنها لثاني ابنائه مولاي عبد الله كانت قوية حتى إنها خففت من آلامه . لكن الزمان عرفه مدى الخسارة التي أصابته في فقدان ابنه البكر الذي كان شهما بطلا، ولا يتخلف أبدا عن أية عملية، الأمر الذي من أجله لقبه الشعب بالحران، ومعناه العنيد . وكان أبوه قد تكهن بأن هذا الأمير البطل سيستولي على مدينة مزدانة بكثير من شجر الزيتون . وهكذا فإن المغاربة كانوا يظنون أنه سيمتلك إشبيلية : فخاب ظنهم . لكن تنبؤ الشريف لم يكن خاطئا، لأن الحران استولى على تلمسان التي يوجد فيها كثير من شجر الزيتون .

---

(184) (قبة) بني مرين . (هامش)

الفصل 83

ثورة برابرة جبل الأطلس

لما علم برابرة جبل الأطلس بموت الحران الذي كانوا يخشونه، والذي كان أميرا شجاعا، أعلنوا الثورة. فبعد أن نظموا كل ما يلزم لتنفيذ مشروعهم بدأوا ينهبون جميع من يمرون ببلادهم للتنقل من مملكة الى أخرى، ويقطعون الطرق بواسطة خنادق كبيرة عميقة، كما جندوا محاربين، وأحدثوا اضطرابا كبيرا حتى بلغ خبر ذلك الى الشريف . ويعزى سبب تمردهم الى الضرائب التي كان الشريف يثقل بها كاهلهم، والى موت الشيوخ الذين أعدموا بمراكش. ولما صمم هؤلاء البربر على الثورة، اختاروا كرئيس لهم سيدي محمد الذي كان قد أضافني . فجمع على الفور الشيوخ والأعيان، وعين قوادا أمرهم بما يلزمهم القيام به، وأقام حاميات في الأماكن الضرورية . ثم رغب الى أحد الشيوخ الذي كان مقيما على صخرة حصينة في سهل عند قدم الجبل بناحية تارودانت وأرغمه في النهاية على القيام بالثورة . كان هذا الشيخ يدعى سيدي يزيد، ففرق بعض الأسلحة التي كانت مخزونه عنده، لأنه كان يدرب جنوده على فنون القتال، متوقعا أن الشريف سيسيء معاملتهم .

لم يكترث "الجبار" (الشريف) في أول الأمر بثورة هؤلاء البربر ظنا منه أنه سيخضعهم بسهولة، وليس عليه إلا أن يفاجئهم . فأرسل ألفا من الإسلامين ومعهم بعض الأتراك من حرسه بقيادة كوريطو وجعفر، وأمرهما بمعاقبة البربر معاقبة شديدة على جسارتهم، والإتيان اليه برؤساء الثورة إذا تمكنوا من القبض عليهم .

انطلق هذان القائدان، ووصلا بعد بضعة أيام الى سفح الجبل، وبعثا من هناك عيونا لاستطلاع حال البلاد، فأخبروهما بأنهم لم يجدوا أحدا يحمي الحواجز التي أقامها الأعداء، فعزم القائدان على التقدم، معتقدين أن الخوف أرغم البربر على الانسحاب . لكنهم إنما تركوا تحصيناتهم عن قصد . ولما اقتربوا من الخنادق والحواجز، أمر القائدان طلائع الجند بتحطيمها وردمها، ثم صعدوا في الجبل دون أن يعترضهم أحد حتى وصلوا الى أوائل القرى

فأخذوا في نهبها وإحراقها، ثم تفرقوا وانتشروا هنا وهناك، كأنهم في بلاد قد تم إخضاعها . عند ذلك خرج البربر من كمينهم، فذهب فريق منهم لإقامة الحواجز وحارب الفريق الآخر الإسلاميين والأتراك بقيادة سيدي محمد الذي هاجمهم بشدة في أكثر من عشرين ألف رجل . تقهقر الإسلاميون لحينهم، وقد رأوا هؤلاء الأقوام ينقضون عليهم، وانسحبوا الى جهة الحواجز التي كانوا قد حطموها، آملين أن يجدوا الممر مفتوحا أمامهم . لكن كل شيء من الحواجز كان قد أعيد الى حاله، فاضطروا الى المقاومة من كل جانب، وقتل جلهم وأسر منهم خمسة وعشرون .

تأثر الشريف لهذه الهزيمة، ولما غنمه البربر من الأسلحة وأخذوه من أسرى كان في استطاعتهم أن يكونوا هم المنتصرين الآسرين، ولخطر عدوى قبائل أخرى عندما يطرق الخبر أسماعها . وفعلا حدث ما كان يخشى وقوعه، لأن سيدي محمد بعد أن قسم الغنيمة على رجاله، أحضر الاسلاميين بين يديه، ووعدهم بإطلاق سراحهم وإعطائهم ضعف الأجر الذي كان يخصصه لهم الشريف، شريطة أن يصنعوا له الأسلحة ويساعدوه في عمليته، فعاهد الإسلاميين على الوفاء . وحتى يقيدهم أكثر بما التزموا به، زوجهم ببنات أعيان رجاله، وأسند لبعضهم مهمات، وللاخرين صنع الأسلحة التي أدى لهم عليها مبالغ هامة . بل علموا البربر كيفية صنعها فتعلموا ذلك بسهولة لكونهم حاذقين . فكان ذلك سببا في أن الشرفاء وجدوا صعوبة في إرجاعهم الى الطاعة، وحتى الآن لم ينقادوا بعد .

الفصل 84

إرسال صالح رايس، خليفة ملك الجزائر، جنودا ضد مستغانم وتلمسان

عقب احتلال الحران لمستغانم وتلمسان، ذهب الأتراك الذين نجوا من هاتين المدينتين الى الجزائر، فحكوا لصالح رايس ما جرى لهم . وكان إذ ذاك

حاكم المملكة باسم سليمان القانوني، فغضب غضبا شديدا على الحران، لكنه أدرك أن جرأة الأمير الشاب جديرة بالعقاب أكثر مما هي جديرة بالغضب. فجمع مجلسه، وتقرر فيه العمل على الانتقام منه. أعطى على الفور إسلاميا من نافاريا ألفين من خيرة رماة البنادق الأتراك والإسلاميين بالجزائر، وبعض القطع الحربية والأشياء الضرورية لتنفيذ مشروعه.

انطلق الإسلامي من الجزائر، وسار الى مستغانم، فضيق عليها الحصار أياما يسيرة، حتى إن المغربي الذي كان يحكمها أدرك أنه لايستطيع أن يدافع عن نفسه ولا أن يغاث بالسرعة التي يحتاج إليها، فسلم المدينة على شرط أن يخرج هو ورجاله بما لهم من أسلحة وخيل ومتاع، فسمح لهم بذلك، لكن لم يعمل بهذه الشروط، لأنهم عندما بدؤوا يخرجون حمل عليهم الأتراك الذين كانوا يتميزون عليهم من الغيظ، فقتلوا مهم عددا كثيرا، ومن بينهم الحاكم. حمل الناجون النبأ الى الغلام الذي كان يحكم تلمسان باسم الشريف، فأرسل لحينه بريدا الى أميره يستنجده. جمع الشريف مجلسه، وتقرر إيقاف القتال ضد البربر، وإيفاد ابنه مولاي عبد القادر للدفاع عن تلمسان في عشرين ألف فارس. ثم أرسل في طلب هذا الأمير الشاب الذي كان منشغلا في مكان آخر، ليأتي الى فاس ويصحب معه عشرة آلاف فارس. فامتثل عبد القادر، وبعد أن رتب شؤون الجبل عين خليفة له ابنه مولاي أبا عمر (كذا) وأقبل بجنوده لملاقاة أبيه بفاس، حيث استقبل بفرح كبير. فتقدم أمامه اخوته وأكابر البلاط والاعيان، وعندما دنا من أبيه ليقبل يديه، عانقه الشريف وقبله في جبينه، وتلك أفضل علامات السلام عند المغاربة. وبعد أن استراح بضعة أيام، أضاف إليه عشرة آلاف من جنود الرماح من مملكتي فاس وبادس، وانطلق في مستهل يناير من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وألف مع اثنين من إخوته (185)، فأغذ في السير حتى وصل الى

---

(185) مولاي عبد الله ومولاي عبد الرحمان وقد كتبت في الهامش بما يشبه عبادة، وسيأتي أنه عمر لا عبد الرحمان.

تلمسان قبل الأتراك . استقبله الحاكم والسكان بفرح عظيم، وبعد أن استشار مجلسه حول الأوضاع، تقرر أن يعسكر قرب تلمسان، ويتحصن هناك في انتظار الأتراك الذين كانوا يقتربون، ووصلوا بعد بضعة أيام . فأقاموا معسكرهم في مقابلة معسكره على ضفة قناة مليئة بالماء وعميقة كانت تفصلهم عن جيشه .

وبعد أن عسكر الأتراك بقليل، أراد مولاي عبد القادر مهاجمتهم، واستعد للعبور مع فرسانه على جسر صغير كان على القناة . فتصدى لهم الأتراك، وجرت معركة عنيفة، تكبد فيها المغاربة أكبر خسارة . وحيث إنهم كانوا يستعملون الرمح والترس، فإنهم لم يستطيعوا أن يحاربوا جيدا أعداءهم الذين كانوا يطلقون عليهم وابلا من العيارات النارية والنبال . وكان صوت طلقات البندقيات المختلط بأصوات الجنود قويا لدرجة أنه أفزع الخيل، فلم يعد الفرسان يتحكمون فيها . بدأوا يفقدون الحماس وينسحبون ، تقدم على الفور عبد القادر الى الامام ليعيد النظام ويحث جنده على عبور الجسر، لكنه رمي بطلقة بندقية اخترقت صدره، وأتمت إحباط شجاعة جنده فانسحبوا، واجتاز الأتراك الجسر باحثين عن جثة القائد .فلما وجدوه قطعوا رأسه وجعلوه في طرف رمح، وصاحوا بالانتصار وطيروا الخبر الى صالح رايس . لكن أخوي عبد القادر لم يفشلا وجمعا جنودهما فرتباهم للقتال، ولفا جثمان عبد القادر وأرسلاه الى فاس .

تأثر الشريف كثيرا لموت ابنه حتى ظنوا أنه سيفقد وعيه، ومكث أياما لايرى أحدا ولا يتقبل أي تغزية . وفي هذه الأثناء جمع أكبر الأخوين (186) المجلس لمعرفة هل يجب الانسحاب أو متابعة القتال . وبعد تردد دام بعض الوقت قرروا الانسحاب بالإجماع، لأن الأخ الأكبر كان يرغب فيه لاعتبارات خاصة، ولأن الطلقات النارية للأتراك كانت رهيبة . وفي يوم الغد، بعد استعراض الجنود، تظاهر الأخوان بعزمهما على القتال، ثم انسحبا ليلا بهدوء نحو فاس، حيث استقبلهما الشريف استقبالا سيئا ووبخهما، لاسيما البكر . ثم سرح جنوده، وجعل يقدر الخسارة التي أصابته بموت الحران .

---

(186) مولاي عبد الله .

الفصل 85

دخول الأتراك الى تلمسان واستيلاؤهم على البلاد

أخبر يوم الغد قائد الترك من طرف عيونه بأن الأعداء لاذوا بالفرار، فسر بذلك سرورا عظيما، وبدأ منذئذ يؤمل في أن يستولي على المملكة كلها عما قريب دون أن يفقد أي رجل . لذلك قوض الخيام ورتب الجنود للقتال، ثم دخل الى تلمسان حيث استقبلته الفئة الموالية له استقبالا حسنا، لأن الآخرين انسحبوا خوفا منه . فسارع الى احتلال القصبة، بعد أن أقام حاميات في كل مكان، وأعلن العفو العام شريطة أن يؤدي القوم يمين الولاء للتركي ، اضطر جميع الغائبين الى العودة الى منازلهم، فأمرهم باسم "الخليفة التركي" بأن يتعهدوا بالسمع والطاعة له ولجميع القواد وأكابر الدولة. وبعد ذلك بقليل ألقى القبض على معظم الذين ساعدوا الشريف، وعاقبهم عقابا شديدا، واستصفى أموالهم لفائدة سليمان . فجمع مبلغا كبيرا من المال، خصص جزءا منه مع أشياء أخرى من البلاد هدية لصالح رايس، وأطلعه على كل ما جرى . سر صالح رايس سرورا عظيما بالهدية واسترجاع تلمسان، وبعث الى السلطان الأعظم يخبره بذلك .

وفي هذه الأثناء، أرسل صالح رايس الى الاسلامي معدات لحكم تلمسان، وأمره بمحاربة الشرفاء إذا ما هاجموه، وإطلاعه على كل شيء، لينجده عند الضرورة . كان هذا الاسلامي نبيلا عريقا، ولما كان عمره أربع عشرة سنة، قتل ببندقية راهبا كان يعلمه حين جلده مرة . وفر عقب ذلك الى إيطاليا، وعندما كان في البحر أخذه الأتراك، وسقط في يد بربروس الذي عينه قائدا بعد أن أغواه بخزي . وفي الأخير عندما كان هذا الاسلامي بتلمسان، أخذ يقوم بغارات في ضواحي وهران، وأرسل في طلب دم مارتان دي لاكويفا، الذي أصبح منذئذ دوق دي البوكيرك وكان في هذه الحدود، وذلك ليبارزه . فلم يرفض مارتان دي لاكويفا هذا العرض لأنه كان شجاعا، وتصارعا ببسالة، وجرح كل واحد منهما الآخر . غير أن دم مارتان تمكن من رمح خصمه ورده إليه ردا جميلا، فتوثقت الصداقة بينهما، وبذلك

لم تسقط وهران سنة سبع وخمسين وخمسمائة وألف، عندما حاصرها صالح رايس، إذ كان هنالك الإسلامي وجنوده، فعمل سرا كل ما أمكنه للحيلولة دون احتلالها . كان يخبر أصحاب المدينة بكل شيء، ولما رأى حرج الموقف وأن المدينة على وشك السقوط بيد صالح رايس، انسحب مع رجاله الى تلمسان، فاضطر سائر الجيش الى اتباعه . ولما علم الخليفة التركي بذلك أمر الاسلامي بالتوجه الى القسطنطينية ليبرر موقفه . فخشي الاسلامي على نفسه وسار في البحر على متن مركب وضع فيه جميع أثاثه وأربعين من الأسرى المسيحيين متوجها نحو إسبانيا، التي عزم على المقام بها، لكن زوبعة رمته على شاطئ جنوة، فانتهب مركبه أصحاب تلك المنطقة وهو يجتهد في القول بأنه سيعتنق دين المسيح، إلا أنهم ردوا عليه بأنه سعيد حيث لم يقتلوه، وأن ماسلبوه إنما هو لتعويض أشخاص سبق له أن نهبهم عندما كان قرصانا. حاول أن ينتزع شيئا مما بأيدي أعدائه، لكنه رأى أن جهوده باطلة، فذهب الى بلاط إسبانيا، حيث لقيته بطليطلة سنة ستين وخمسمائة وألف . كان يسكن هناك ويعيش بكيفية عادية مع دوق دي ألبوكيرك، وابنه دم گابريال دي لاكويفا، الذي كان يخدمه لدى الملك دم فيليبيس، ليسترجع بواسطته مانهب له . لكنه يئس من شؤونه فانصرف، ولم أستطع بعد أن أعرف ما فعل به الزمان .

ولنرجع الى حديثنا فنقول : غضب الشريفان للاستقبال السيء الذي خصهمابه أبوهما، فأصيب مولاي عبد الرحمان بمرض بعد بضعة أيام، ومات من هذا المرض. تأثر الشريف تأثرا شديدا بذلك، لأنه كان أشجع من بقي من أبنائه وأحبهم الى الناس في البلاد كلها . انتشر الخبر بأن أخته من أبيه للامريم قضت على حياته، لأنها كانت غيورة من حب الشريف له وخشيت أن تضيع من أجل ذلك ولاية العهد لأخيها الشقيق مولاي عبد الله . وبالتالي، فإن جميع المغاربة ظنوا أن ذلك كان سبب موت عبد الرحمان ، حتى قيل عندما انتزع الأتراك فاسا (187) من يد أبيه ، إن الله والرسول

---

(187) سنة 1554 (هامش)

أرادا أن يستولي الأعداء على هذه المملكة بسبب هذه الجريمة العظمى. ولما رأى الشريف أنه فقد أبناءه عزم على الانتقام من المريني وأسرته، فأمر بقطع رأسه (188)، ورأس ابنه وأهله . واليكم الكيفية التي مات بها القصري .

كنت إذ ذاك بتارودانت، وكدت أصادف موت القصري، الابن البكر لملك فاس . أرسل الشريف قضاته الى داره، وعندما دخلوا أطلعوه على أمر ذلك "الجبار" وأمروا في نفس الوقت بحفر قبر في فناء منزله . فصلى، ولما انتهى من الصلاة احتزوا رأسه ودفنوه بثيابه . وبعد أيام قلائل، أعلن أن الشريف نفذ نفس الطريقة في حق أبيه وأعمامه . تلك كانت نهاية المرينيين التسعة، بعد أن ملكوا فاس أزيد من ثلاثمائة سنة . ولم يكن عمر القصري عند قتله إلا ثمانا وعشرين سنة، وهو معتدل الجسم حسن القامة، طيب، كريم، محبوب من طرف المسيحيين، الذين تأثروا تأثرا محسوسا لمحنته .

الفصل 86

عزم الشريف على القيام بزيارة ممالكه، والتوجه لإخضاع البربر

تأثر الشريف تأثرا محسوسا لفقدان أبنائه، وفجعت زوجته (189) بقتله أباها وأخاها وأعمامها . فاستشاطت غضبا ضد هذا (الناكث) الذي كانت تسميه (طاغية) وانعزلت عنه . فبدأ يداخله التشكك، وقرر أن يزور ممالكه ويخضع بربر جبل الأطلس . فأناب عنه ابنه مولاي عبد الله كخليفة له

(188) سنة 1952 (هامش)

(189) للالو (بنت المريني) (هامش)

بفاس، وترك معه حرسه وبعض القواد وتوجه الى مراكش (190)، حيث استقبله حفيده استقبالا رسميا أكثر منه ترحيبا، إذ كانا يندبان معا، أحدهما يندب موت أبنائه، والآخر موت أبيه .

بعد أن استراح الشريف بضعة أيام بمراكش، أطلعه عيونه على أن البربر مستعدون للدفاع عن أنفسهم، لذلك عبر الى مملكة تارودانت الواقعة في الجانب الآخر من جبل الأطلس، وقرر محاربة مغربي كان قد ثار في البينيول (كذا) فسار بهذا القصد في الطريق السهلة المودية الى تارودانت . ولما خلف الجبل عن يساره واقترب من هذه المدينة، أسرع ابن الحران (191) لاستقباله، وهو متأثر جدا لموت أبيه، وأدخل الشريف الى تارودانت . فأقام بها بضعة أيام، أرسل عند نهايتها في استطلاع (البينيول) فأخبر بأنه محصن جدا يصعب احتلاله عنوة، لأنه لايمكن الوصول اليه إلا عن طريق مسلك واحد في غاية الوعورة . مع خنادق عميقة، وأنه رغم ذلك سيسهل الاستيلاء عليه إن لم يصل إليه أي مدد . عمل على منع المدد والمؤن عنه، وكان ذلك هينا عليه، لأن (البينيول) كان بعيدا بأكثر من فرسخين من الجبل الذي امتنع البربر من النزول منه، ولأنه سرح ستة آلاف فارس على طول السهل بين جبل الأطلس وهذه المدينة . وعلاوة على ذلك، أمر ابنه مولاي عثمان، وكان أميرا شابا في الرابعة والعشرين من عمره، أن يذهب في ألف من رماة البنادق من حرسه، وأربعة آلاف محارب، ليحاولوا ردم الخنادق، والتقدم خطوة خطوة، حتى يصلوا الى مرتفع (البينيول) . فامتثلوا على الفور، وساروا حتى بلغوا أول الحواجز والخنادق . وهنالك تصدى لهم البربر، لكن الإسلاميين والأتراك غلبوهم وأرغموهم على الانسحاب، وردم الرولد الخنادق أثناء المعركة . وهكذا اخترقوا الحواجز والتحقوا شيئا فشيئا بالجبل الى أن أرغموا البربر على الاحتماء بالحصن الذي كان في الأعلى، وجرت فيه معركة

---

(190) سنة 1552 (هامش)

(191) مولاي سليمان (هامش)

عنيفة، لأن البربر كانوا يقاتلون قتال اليانس المستميت، والإسلاميين والأتراك بصفتهم جنودا محنكين تذكروا الماضي فلم يتفرقوا إطلاقا، إلا أن أمير الجبل أرسل عشرة آلاف رجل لإنجاد المحاصرين وتشجيع سيدي زيد على الصمود حتى يتمكن من إغاثته بنفسه وبكل ما لديه من قوة، لكن نظرا لكون الممر كان محتلا من طرف أصحاب الشريف فإنهم لم يجرؤوا على النزول الى السهل، ومكثوا في حدور الجبل ينتظرون ما عسى أن يقع أكثر من أن يقدموا المساعدة، فسقط الحصن عنوة لانعدام المدد، وقتل جل من كان فيه، وأسر سيدي زيد مع بعض الأعيان، وأرسلوا تحت حراسة شديدة من طرف مولاي عثمان الى أبيه . وقد حدث أثناء هذا الحصار شيء جدير بالذكر . ذلك أن ابنة زيد لما رأت احتلال المكان، وانكسار الجنود، وأسر أبيها، تناولت الراية (192)، وصعدت الى برج الحصن، ونادت بعض الشبان البواسل، وشجعتهم على القتال، وقاومت طويلا في البرج الذي كانت قد التجأت إليه، لكنهم قتلوا جميعا في النهاية أو أسروا، وأما هي، فلما أراد قائد الاسلاميين (193) أخذها، استنجدت بالله ورسوله، وألقت بنفسها من المكان الذي كانت فيه، فتهشمت على الصخور . ولما مثل سيدي زيد أمام الشريف، شتمه هذا الاخير كثيرا، ووبخه على جسارته وخيانته، ثم حكم عليه بالقتل سحبا بالخيل، وسلمه الى سيدي منصور عامل قصبة تارودانت، الذي كان رجلا قاسيا فظيعا وأمره بتنفيذ الحكم . فساق زيدا على الفور الى مكان خارج القصبة وهناك فتح ثقبين في أعلى قدميه، أدخل فيهما حبالا غليظة من القنب مربوطة في ذيل جواد جموح امتطاه العامل، وأخذ يعدو بين السكان الذين اجتمعوا أفواجا، ساحبا هكذا زيدا عبر المدينة كلها، فتمزق جسمه إربا إربا، وتركه لتأكله الكلاب . كنت حاضرا في هذا المشهد المشؤوم . وعقب هذا الإعدام، أمر الشريف بتمهيد بعض الصخور، ثم ذهب لزيارة البلاد، وخاصة الآلات التي تستخدم في صناعة السكر .

---

(192) كانت الراية تسلم لأجمل فتاة لتشجيع الشبان على حمايتها (هامش)

(193) حسن كوربطو (هامش)

الفصل 87

توجه الشريف الى مراكش بعد تهدئة فتن تارودات

لما أعدم زيد، وهدأ كل شيء في مملكة تارودانت، ترك بها الشريف كخليفة له ابنه مولاي عثمان (194)، وانطلق الى مراكش . لقد سبق لي أن ذكرت كيف ولد بها هذا الابن للشريف، ذلك أن مغربية، بعد أن أقامت عنده خمس عشرة سنة (195)، تزوجت ثم تخاصمت مع زوجها الذي ولدت منه عثمان ورغم ذلك ادعت أنه ليس ولده بل ولد الملك، وأخبرت فقيها أطلع الأمير على ذلك فصرح بأن عثمان ابنه، وأرسل في طلبه على الفور وأمر أن يتزيا بزي ابناء الملك، وحرص على أن يدخل الى مراكش، حيث استقبل بهذه الصفة . وأنا شاهد على ما أقول .

ولنرجع الى حديثنا : بينما كان الشريف بمراكش يفكر في الوسائل التي سيقهر بها البربر، أقبل تجار من إسبانيا، وأكدوا له بأن أبا حسون أمير بادس رجع من ألمانيا بعد أن أقام فيها مدة طويلة آملا أن يساعده شارلكان على استرجاع ملكه . وأضافوا بأن الإمبراطور لم يستطع مساعدته بسبب الحروب التي كان يخوضها ضد اللوثريين، لكنه وصل الى الجزائر مع سفن كرائيل أعطاه إياها دم يوحنا، لالتماس النجدة من الأتراك . وفي ذلك الوقت تقريبا، وبنما أنا أتأهب للذهاب الى فاس (196) مع حفيد الشريف (197)، حدث شيئان يستحقان الذكر، إن صح التعبير :

---

(194) نبزء بالدعي .

(195) لم يسبق أن ذكر هذه المدة .

(196) سنة 1553 . (هامش)

(197) مولاي سليمان (هامش)

أولهما : بينما كنت أتجول ذات يوم، اقترب مني مغربي، وقال لي إنه يعرف جيدا السبب الذي من أجله كنت كئيبا، وذلك لأنني لم أتوصل منذ أمد طويل برسائل حول شؤوني. وعند ذلك عرض علي خدمته، واعدا إياي بموافاتي بأخبارها إن قبلت مكافأته على تعبه . ولما كنت أعلم أن ذلك لا يمكن أنجازه بدون شيء من الرقية، فإنني شكرته بخشونة، وقلت له إن ديني يمنعني من أن استخدمه في هذا الشأن .

وثانيهما : أن إسلاميا (198) وزوجته (199)، وكلاهما من إسبانيا، قررا الذهاب الى فاس ليسكنا فيها، فطلبا من ساحرة مغربية أن تأتي الى منزلهما في يوم حدداه لها، وأن تتنبأ لهما بالمستقبل ليعرفا مدى توفق رحلتهما . اتفق أن كنت ذلك اليوم في منزلهما، فألحا علي أن أمكث لمجرد حب الاطلاع، شريطة ألا أجيب إطلاقا إذا سألت الساحرة هل يوجد مسيحي في الدار .

وفي هذه الأثناء، دخلت عجوز مغربية ينيف عمرها على مائة سنة، نحيفة الجسم، مجعدة الوجه، مسودة اليدين معوجتهما، شعثة الشعر، لابسة جبة قصيرة على الطريقة المغربية متعددة الألوان . كانت أشبه بجنية منها بامرأة . وبعد أن حيت الحاضرين واستراحت قليلا، أخرجت جرابا من جلد، يحتوي على أصداف صغيرة وأخذت تسحر بها، وهي تهمهم بعدة كلمات وتنادي إبليس بأعلى صوتها، وتقوم بحركات مقطبة وجهها عدة مرات . وبينما كانت تنادي الشيطان هكذا، كنت أتلو عقيدتي وأدعو المسيح بخشوع. لكن العجوز استغربت لعدم مجيء الشيطان وسألت : هلا يوجد مسيحي في الدار ؟ ولما أكدا لها عدم وجود أي مسيحي، تناولت أصدافها من جديد، إلا أنها طلبت أخيرا من إبليس أن يقول لها لماذا لم يقبل، وقد رأت أن إلحاحها لايجدي شيئا. ومن المحتمل أنه أطلعها على ذلك، إذ سرعان ما

---

(198) منصور (هامش)

(199) فاطمة (هامش)

أخذت أصدافها ووضعتهما في جرابها، والتحقت بالباب دون أن تنتظر أجرتها بعد أن كالت للإسلاميين الذين يستقبلان المسيحيين في منزلهما جميع أنواع الشتم واللعن . ثم سألني الإسلاميان عما كنت أشتغل به عندما كانت المغربية تقوم بسحرها، فأجبتهما بأنني كنت أدعو اسم سيدنا المسيح . فردا علي : كيف يمكن أن يحضر الشيطان ؟ "

وعلى إثر ذلك، سرنا خلف الشريف على طول طريق مراكش . وبينما كنا في خيامنا ذات ليلة، ومع هذين الاسلاميين صندوقان من صنع واحد وحجم واحد، سرق لهما أحدهما كان فيه خزنة مذهبة، وأكثر من ألفي ريال من فضة وخواتم . وهكذا اطلع هذان البائسان نفسهما على ما رغبا في معرفته بواسطة السحر، وأديا بمالهمائمن الإساءة التي ارتكباها .

وأخيرا وصلنا الى مراكش، حيث أقام الشريف بضعة أيام وهو يفكر دائما في كيفية تهدئة البربر . وكان يصحب معه دائما الشيخ مومن، عامل تاحكوز، الذي ساعده على اعتلاء درجة الحظ التي كان فيها . ومع ذلك، فإنه لجأ الى الحيلة للقضاء عليه، لاعتقاده أن رجلا بهذا القدر من الغنى والحظوة، في إمكانه عندما تسنح الفرصة أن يخذله ويثور بجميع البلاد . لكن، حتى لا يساوره أي شك، أسند إليه حكم القصر الكبير، وهو من أجمل مدن مملكة فاس . وبمجر ما قلده إياه، ذهب إليه العامل بجميع أمواله وأهله، لأنه أخبر بأن الشريف يريد قطع رأسه، جزاء على ما أسدى إليه من خدمات .

وبهذا الصدد، سأضيف شيئا عن هذا العامل، وهو أنه عندما كان ذاهبا ذات يوم الى الجامع مع الملك، يصحبه ستة وستون شخصا مابين أبناء وأحفاد، كلهم رجال مكتملون، ممتطون خيولا مجهزة أحسن تجهيز بركابات ومهاميز ورؤوس لجام، وأغمدة، وخناجر من الذهب الرفيع مع طقوم من الحرير متعددة الألوان ومرصعة بالجوهر . كان منظرا جميلا حقا، وسرني أن أرى جميع هؤلاء الشبان، وهم في غاية الرشاقة واللطف، يدخلون الى الجامع . كان أبوهم مومن شيخا وقورا، حسن القامة، تبين هيئته عن مرتبته بكيفية واضحة، الأمر الذي كان مدعاة لأن يخاف منه الشريف (الجبار) ومن بين الخدام الذين كان يملكهم، شاهدت واحدا يعدو مسرعا خلف جمل، فأدركه

وأمسك به من ساقه بيد واحدة وصرعه على الأرض .

الفصل 88

قواد قصر الشريف، والنظام الذي كان يسير عليه

إن الأشخاص الذين بيدهم مقاليد المملكة كلها هم الوزير (200) وآخرون سأتحدث عنهم بعد قليل . فالوزير هو الذي يخلف الملك على العرش، لكن إذا كان صغيرا جدا أسندت هذه المهمة الى من هو أكثر سلطة وأفضل امتيازا في القصر . وبعد الوزير، فإن الكاتب الأول هو الذي يقوم عادة بوظيفة الكاتب ورئيس الخدم وأمين الصندوق . بينما يقوم نائب الوزير بمهمة قائد عام . ويأتي بعد ذلك العمال الرئيسيون، يضاف إليهم صغار أهل الملك سواء منهم الإخوة والأقرباء، الذين يكلفون بالفرسان والمشاة المخصصين للحرب وحراسة الملك . كما أن هناك عددا معينا من القضاة، يقضون بين العرب والبربر، وفق قواعد النظام وتنوع أعرافهم. وهناك آخرون وهم شبه سعاة يستلمون واجبات الملك، العادية والاضافية. وفضلا عن هؤلاء القوم، يشاهد في حاشية القصر بعض الأعيان في خدمة سيدهم، يتقاضون شبه مرتب يتمثل في عدد من الخيل وإقطاع بعض الأماكن، ويصحبون الملك في السلم والحرب. ومن ثم يصبحون عمالا أو أعضاء في المجلس. وفي البلاد كذلك أعيان آخرون عاديون، أو من الحرس الفرسان، وهم حملة سلاح الملك، تكون خيلهم في اصطبله.وللملك عامل مكلف بشخصه، له الصلاحية في إعطاء

---

(200) أي خليفة الملك (هامش)

الأوامر للقضاة ليحكموا بالسجن، والإعدام، ومصادرة الأموال، فإذا أمر الملك بالقبض على أمير سار هذا العامل مع الحراس لإلقاء القبض عليه، وسهر على تنفيذ أوامر الملك . وهناك أيضا عامل آخر، شبه رئيس للتشريفات، يحضر أمام الملك عندما يخرج للناس، وعندما يكون اجتماع سواء لأكابر المجلس أو للقواد . ويحرص على تنظيم الصفوف . لكن إحدى المهام الأكثر اعتبارا عند المغاربة، هي مهمة حامل السلاح الكبير، والذي يتولى هذه المهمة يكون له نائب يقوم بالشؤون الضرورية للإصطبلات . وهذه الإصطبلات مكشوفة، يعلف فيها الخيول في معالف، والباقي على الارض . وعلاوة على هؤلاء القواد هناك واحد يدعى مولى الجمال، لأنه مكلف بالعناية بالجمال والاتيان بها للخدمة، سواء في حالتي السلم أو الحرب . وكان للشريف ستون ألف جمل عندما كنت في بلاد البربر . وهناك أيضا الممون العام، ومهمته هي جمع العلف وتوزيعه، ومن أجل ذلك فإن له سلطته القضائية، وعددا من المامورين . كما أن هناك رئيس الغلمان الراجلين، وحاملي اللحم الى المشور، والذين ينادون السكان، فإذا أراد الملك أن يعدم أحدا بين يديه أعدموه . كان للشريف في عهدي ثلاثمائة من هؤلاء السيافين، معظمهم مغاربة سود، أو أبناء آباء سود وأمهات بيض، وهم جد مرحين، يرتدون ثيابا من الجوخ الرقيق الملون، ويتمنطقون بحزامات من جلد على الشكل المغربي . سيوفهم المعقوفة مزخرفة كثيرا . يحملون بأيديهم عند خروجهم إلى البادية سهمين أو ثلاثة، ويضعون على رؤوسهم طاقيات حمراء طليطلية، وهناك قائد آخر معه خمسون من الفرسان المدربين المحنكين يأمرون من قبل الملك العمال والأعيان بما يجب أن يفعلوه، سواء في المدينة أو في المحلة . ويسيرون حول المعسكر والكتائب، وبأيديهم قضبان، ليجمعوا الفرسان. وإذا فر أحد أو تخلى عن واجبه فإن لهم الصلاحية في قتله . وهناك قائد آخر مكلف بنصب أخبية الملك وطيها وحملها، وعدد رجاله خمسة آلاف .

للملك عدد كثير من الرايات، لكن عندما يسير الجيش لا تكون إلا راية واحدة منشورة في الطليعة، وهذه الرايات من حرير مختلف الألوان مع أشرطة مكتوبة مذهبة تقرأ من هذا الجانب وذاك، يحملها رواد يعرفون

الطريق والبلاد وممرات الأنهار والأدغال . وله أيضا عدد كثير من الطبول النحاسية، يعطي الملك عادة لمن يدقون الطبول ويحملون الرايات أقوى الجياد وأسرعها ليتمكنوا من النجاة إذا ما وقعت الهزيمة، لأنهم يعتبرون عارا شنيعا أن يفقدوا راية أو طبلا . كما أن هناك عدة أبواق، وآلات أخرى، تستعمل في حالتي السلم والحرب .

ويخدم الملك في قصره بدلا من الفراشين، جوار مغربيات، وإماء مسيحيات،، وفيما عدا ذلك يخدمه عدد من الغلمان النجباء، وأبناء الاسرى المسيحيين أو خصيان سود، ويرافق هؤلاء نساءه عند خروجهن . وكان الشريف في عهدي لا يسير مطلقا دون أن يرافقه سبعة أو ثمانية آلاف فارس، وألفان من الإسلاميين ورماة البنادق الأتراك الراكبين . بالإضافة الى أنه كان يقاد له باليد اثنا عشر فرسا من أحسن الجياد، مسرجة بزخرف فاخر، وبأغطية من الحرير والقماش القرمزي، ذات أهذاب وستائر من ذهب وحرير في نفس اللون . وكان يسير بجانبه رجال المجلس والقضاء والحرب . ويتقدم أمامه ثمانية عمال لثمانية أقاليم شاهرين الرماح بأيديهم، وهم ينشدون أشعارا في مدحه ويشيدون بالمعارك التي انتصر فيها، وما أنجزه من أعمال ليسود في ممالكه . كان يسير بهذا النظام وهذه الأبهة ثلاثة أو أربعة فراسخ كل يوم .

وتجدر الإشارة الى أن المغاربة يتطيرون كثيرا، فإذا ذهبوا الى الحرب وصادفوا أسدا أو خنزيرا بريا أو أيلين معا، اعتبروا ذلك فالا حسنا، ولكن إذا كان أيل واحد أو أرنب، تشاءموا من ذلك، وإن صادفوا مثل هذه الحيوانات وجيشهم زاحف توقفوا عن الزحف وضربوا الخيام .

الفصل 89

مكر عظيم قام به يهودي ضد مغربي أبيض

بينما كنا بمراكش، أتى مغربي يوم سوق ليبيع ماشية له. وبعد أن باعها وأخذ ثمنها أساور وحليا من فضة، أراد أن يعرف إذا كان لم يخدع فقصد المكان الذي يتخذ فيه اليهود دكاكينهم ويبيعون بضائعهم.

وهناك طلب من يهودي ان يزن ماله ويخبره هل هو صاف. واتفق ان كان في الدكان يهودي آخر، وهو ماكر كبير (201)، كان مسيحيا واضطر الى الالتجاء الى مراكش من جراء مكره. وعندما لاحظ ذلك اليهودي ان للمغربي مالا وأنه يبدو قليل الفطنة، التجأ الى الحيلة التالية ليخادعه. تظاهر أولا بأنه يعرفه ولقيه مرارا، وهنأه على هذه الصحبة القديمة. وتملقه يسأله عن حال والديه، وشكا اليه في الاخير أنه لم يتخذ سكنا. صدق المغربي كلام اليهودي، وشكره على أدبه، ثم طلب منه ان يرى هل ماله صحيح، وهل يزن مقدار ما قيل له. عند ذلك فحص اليهودي المال، وقد تبين له أن فضيته سائرة في الطريق المرجوة، وأكد للمغربي أنه لم يخدع بتاتا. فشكره المغربي وطلب منه أن يشتري له كيسا صغيرا يحمل فيه ماله. لكن اليهودي ألح عليه ليضعه في غطاء رأس برنسه، فقبل المغربي مجاملته. وبينما كانوا يبحثون عن خيط لربط ذلك المال، قطع اليهودي غطاء رأس برنسه وأعطاه إياه ليسهل عليه أكثر حمل ماله. تعجب المغربي من سخاء اليهودي، وشكره، وعرض عليه أصنافا من الخدمات ثم ودعه، لكن اليهودي بدعوى زيادة خدمته المغربي خرج معه، ورافقه الى الساحة الكبرى للمدينة، حيث يجتمع الناس كلهم للاتجار وتحضر عادة العدالة. وهناك ودع اليهودي المغربي وبقي يلاحظه. وبعد ان اختلط قليلا بالجمهور، أخذ يصيح بأنهم قطعوا غطاء رأس برنسه المحتوية على ماله. فأسرع رجال العدل عند هذا الصياح، وأشار اليهودي إلى المغربي الذي سلم له غطاء رأس البرنس، مؤكدا بأنه هو السارق. وفي الحين ألقي القبض على المغربي المسكين، الذي وجدوه ممسكا

---

201) إسحاق (هامش)

بغطاء الرأس و المال، فحُكم عليه، دون أن يُصدق أو يُستمع إليه، برد المال لليهودي، وبمائتي جلدة، فنفذ الحكم عليه.

وسأضيف شيئا آخر يتعلق باليهود وبموضوعي شيئا ما. إذا حمل هؤلاء بضائعهم ليبيعوها عبر الازقة، لجؤوا الى الحيلة الآتية ليعرفوا هل يوجد الرجال المغاربة في دورهم. فعندما يقتربون من باب أحد المنازل، ينادون متظاهرين بأنهم يخشون الكلاب التي يتخذها المغاربة في بيوتهم، قائلين : "أهاذ الدار، الكلب الكبير في الدار؟" فإن كان المغربي حاضرا، أجابت الأمة الاسيرة وهي متواطئة معهم : "نعم يوجد." وان كان غائبا قالت :"ادخل أيها اليهودي." إن الخبر شائع بأنهم يفعلون أشياء فظيعة في تلك البلاد لان المغربيات لسن عفيفات، ولايخرجن من بيوتهن إطلاقا، فيغوي اليهود الكثير منهن بهذه الانواع من الحيل، وليس المسيحيون الذين يبيعون القماش وسلعا أخرى عبر الازقة بأقل تورعا في ذلك من اليهود، ويجب منعهم من هذا الاتجار الذي هو مجرد خدعة.

الفصل 90

ترشيح الشريف نفسه ناظرا عاما للاستحواذ على المساجد ثم توجهه إلى فاس

خصص الشريف كل الوقت الذي أمضاه بمراكش لتدبير شؤون العدالة، والتجهيزات اللازمة لاخضاع البربر. كان ساخطا عليهم، لانهم استهزؤا به يوم كنا ذاهبين من تارودانت إلى مراكش، وقد مررنا بقرب جبلهم، فعابوه بأنه جبان. ولكي يحصل الشريف على مال للحرب، قام بشيء جدير بجبار حقيقي، ألا وهو الاتي :

كان يعلم أن لمساجد مراكش ريعا كبيرا ومالا عظيما. لذلك تظاهر بمراقبة المباني عندما كان ذات يوم في الجامع مع بعض الفقهاء، واتهم القائمين عليها بالاهمال، وقال إنه منذ ذلك الحين عازم على السهر بنفسه على المساجد، وأن يكون الناظر الاكبر. وبهذه الصفة أمر بطلاء بعض

الشرفات بالجير، الامر الذي لم يتطلب منه إلا القليل جدا، ورغم ذلك فقد قيل إنه أخذ من أجل ذلك ما يزيد عن مائة ألف ليرة من فضة. وكان فيما مضى فعل مثل ذلك في فاس (202)، عندما كان ملكا بها، إذ أوهم القضاة بأنه عازم على محاربة المحتلين لسبتة وطنجة، وأخذ من المساجد أموالا باهضة. كان ابنه مولاي عبد الله قد كتب له آنذاك من فاس، بأنه علم أن أبا حسون (الوطاسي) عقب وصوله الى الجزائر قام بمساعٍ كثيرة لدى صالح رايس حاكم هذه المدينة، حتى إن هذا الاخير وعده بأنه سيمده بخمسة آلاف إسلامي وخمسة آلاف تركي، وأنه سيذهب معه شخصيا ليستعيد ملكه. وأضاف بأن ملك بادس وعد صالح رايس، في مقابل أجر جنوده، بأربعمائة ألف مثقال وبنهب قصر الشريف وفاس الجديد، وأنهما غادرا الجزائر في منسلخ شتنبر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وألف، بعدما أكّد له أعيان المملكة بأنهم سيساعدونه. ويقال إن الشريف غضب لدى توصله برسالة ابنه، لاالخبر مجيء الاتراك فحسب، لعدم تيقنه منه، ولكن أيضا لما سيساور البربر من فرح عندما يرونه يعدل عن مشروعه. ورغم أنه لم يصدق ما كتب له، لم يفته أن يبلغه لاعضاء مجلسه. فتقرر الرجوع الى فاس، وترك مملكة مراكش على أحسن حال ممكنة. فخلف الشريف بها أحد احفاده (203) وأخذ معه جميع المحاربين الموجودين في مملكتي مراكش وتارودانت وأقاليم أخرى، وانطلق ذات مساء من مراكش ليبيت في المحلة المقامة بالقرب من المدينة. كان منظر المحلة رائقا جدا، لوجود عدد كثير من الرايات البارزة فيها. وعند ذاك فر إسلاميان ليلتحقا بأراضي المسيحيين، لكن شاء القدر أن يسقطا في يد بعض الاعراب الذين أرجعوهما إلى مراكش، حيث قضي عليهما بالموت سحبا بالخيل، فمات أحدهما مسلما والآخر مسيحيا. وبعد أن قتلا علّقا في مخاطيف : فصار الذي مات مسلما أسود فظيع المنظر، وأكلته الغربان والكلاب، بينما بقي الاخر أبيض لم يقترب منه طير أو كلب خلال الاربعة ايام التي بقي فيها معلقا (204) وقد لاحظ ذلك المسلمون (205) والمسيحيون. وقد حمد هؤلاء الله على ذلك بكل خشوع، وطلبوا من الملك جثة الذي مات مسيحيا

---

203) مولاي محمد. (هامش)

204) حتى الاموات يتلونون في عين المؤلف المفتون !

205) عبر عنهم -كعادته- بالكفار

ليدفنوها، فلبى رغبتهم. وفي يوم الغد سار (206) الشريف في طريق فاس في أكثر من خمسة وعشرين ألف فارس، ووصل إليها سالما، فاستقبل هناك بفرح عظيم من طرف ابنه عبد الله والسكان، واستخبر عن خطة أبي حسون والاتراك والطريق التي يسلكونها.

وعندما كنت سائرا مع الشريف، صادفت في الطريق المؤدية من مراكش الى فاس كومة كبيرة من حجر، ولما بدا لي ذلك شيئا جديدا لانني لم أشاهد مثله في البلاد كلها، استفسرت عما يمكن أن يكون ذلك، فأجابوني بما يلي :

كان شاب عاشق من الاعراب يبحث ذات يوم عن عشيقته، متلهفا لمعرفة أخبارها، فأخبره خادم أنها ذهبت لتسقي الماء من عين غير بعيدة عن الدوار : فأسرع إليها ووجد أسدا يفترس الفتاة التي يحبها. وعند هذا المنظر المحزن هجم بخنجر على ذلك الحيوان، فترك الاسد فريسته وهو في أشد الضراوة، وانقض على العاشق الشجاع الذي شق بطنه. فزاد الجرح في ضراوة الاسد، وشق كتفي ذلك الشاب الشهم حتى كاد يخنقه. أقبل حينئذ خدام أبيه فحكى لهم ماجرى له ولفظ نفسه في الحين، وهلك الاسد في نفس الوقت. فدفنوا على الفور العاشق وصاحبته بذلك المكان، في قبر واحد، وأما الاسد فراروه بعيدا بعض الشيء. وتذكارا لهذا الحادث، رموا على لحديهما حجرا كثيرا، حتى ارتفع على شكل جبل صغير. وهكذا فإن لاعراب تلك البلاد طبع الغرام، يفتخرون بأنهم نبلاء، ولايعيرون غيرهم من التقدير إلا القليل.

---

206) سنة 1553 . (هامش)

الفصل 91

اطّلاع الشريف بواسطة عيونه على وجود الاتراك بتلمسان

بعد أن وعد صالح رايس أبا حسون بنصرته، خرج من الجزائر أواخر شتنبر من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وألف. وكان معه خمسة آلاف رجل، واثنتا عشرة قطعة حربية، فسار بهذا الجند في طريق تلمسان، ولما وصلها استقبل استقبالا حسنا من طرف الاسلامي النقاري والاتراك الموجودين بها. ولما علم الشريف بهذا الخبر، أمر بجمع مجلسه، فظهرت عدة آراء حول ما يجب القيام به في هذا اللقاء. قال بعضهم ينبغي ترك الاتراك يرخلون إلى البلاد، وسيسهل إذ ذاك القضاء عليهم، لان طول المسافة سيضني الكثير منهم، وستعوزهم المؤن وغيرها من الضروريات. وأكد آخرون عكس ذلك قائلين إن شرف الملك يقتضي منعهم من الدخول إلى المملكة، ويلزم التصدي لهم، وإن ذلك سيمنع أهل فاس الذين هواهم مع ملك بادس من أن يثوروا إذا رأوه في المنطقة. ورجع الجميع في النهاية إلى هذا الرأي الاخير، وتقرر الذهاب لاعتراض طريق الاتراك.

إذ ذاك شرع الشريف في استعراض الجنود الذين جاء بهم من مراكش، والذين وفدوا عليه من الاماكن الاخرى. فكانوا أزيد من ثلاثين ألف فارس، وعشرة أو اثني عشر ألف راجل من بين رماة مختلف أنواع البنادق، إضافة إلى حرسه المؤلف من الاسلاميين. وبعد قليل خرج من فاس، مفترضا أن صالح رايس لايجسر على مهاجمة عدو بهذا القدر من القوة التي عليها الشريف. وكان يقال إن الشريف يخشى أهل فاس أكثر مما يخشى الاتراك. إلا أنه حدث شيء تطير منه المغاربة، ألا وهو أن الشريف كان له ابن عمره اثنتا عشرة سنة اسمه مولاي ملوك، وحفيد اسمه مولاي محمد، وهو ابن مولاي عبد الله، الذي خلف الشريف فيما بعد. فتنازع هذان الاميران حتى تداعيا الى الساحة الممتدة بين فاس البالي وفاس الجديد. كان كل واحد منهما راكبا على أكتاف غلام، ويرافقهما عدد من الغلمان. وعندما وصلا إلى المكان المحدد، جعلا يتضاربان بالعصي والحجر، وأسرع اليهما جمهور

غفير يتحيز لهذا الفريق أو ذاك، حتى كان يتخيل أنها معركة. ولما أخبر الشريف بذلك، وخرج لايقاف الفتنة، لاحظ أن مولاي ملوك كان يطارد مولاي محمد وأنصاره، وقد دفعهم حتى أبواب المدينة والقصر رميا بالحجارة. فصار إذ ذاك الحديث يروج بان الشريف سيخسر المعركة إذا حارب الاتراك، وذلك ماحدث فعلا كما سنذكره فيما يلي. وفي هذه الاثناء، أمر بمعاقبة بعض غلمان هذين الاميرين، وأما هما فوبخهما بشدة وأصلح ذات بينهما.

الفصل 92

خروج الشريف من فاس لاعتراض الاتراك

بعد أن تيقن الشريف من مجيء ملك بادس والاتراك، عزم على الخروج لملاقاتهم قبل دخولهم الى مملكته، فأوصى ابنه مولاي عبد الله بشؤون المملكة وانطلق من فاس مع ابن آخر له (207) وجنوده وعشرين قطعة حربية، وسائر ضروريات القتال. خرج مساء في وقت متأخر من فاس الجديد، مصحوبا بأحفاده، والعمال، وعدد من العازفين على مختلف الالات الموسيقية. وأخذت تدوي طلقات مدفعية تحية له، فسار على هذه الهيئة منحدرا إلى راياته على الطريق الذاهبة من فاس الى تازا التي تعد قلعة على حدود هذه المملكة. ثم دخل الى حدود مملكة تلمسان حيث كان عليه أن ينتظر الاتراك. شرع في السير يوم الغد، ووصل إلى تازا البعيدة من هناك بأربعين فرسخا. فزار المدينة في الحين، وأمر باستطلاع مكان لإقامة جيشه، وحصنه بالخنادق وإن كان لاداعي لذلك. وفي هذه الاثناء اكتشفت طلائعه الاتراك، وهم يزحفون متأهبين للقتال. ولما كانوا على مرأى من الاعداء، أقام صالح رايس معسكره قبالة الشريف، واستقر هناك يومين دون أن يفعل شيئا، لانه أراد أن يريح جنوده الذين كانوا متعبين. وفي اليوم الثالث بعد ان استطلع

(207) مولاي عبد المومن (هامش)

محلة العدو، والاماكن التي كان يقيم بها، عزم هو وملك بادس وأعضاء مجلسه على أن يبادروا بالهجوم. وأمر الاسلامي الناڤاري الذي كان يعرف بسالة جنود الشريف، أن يقوم بالهجوم في ألف وخمسمائة من الاتراك الاسلاميين، فسره ذلك كثيرا، آملا أن يكتسب شرفا في هذه المعركة، ويعطي أدلة جديدة عن شجاعته وحنكته. لذلك دعا الى خبائه أكابر الاسلاميين الذين سيرافقونه، وقال لهم إن شرفهم يدعو إلى أن يستجيبوا لما ينتظره صالح رايس والجيش أجمع من شهامتهم. ثم ذكرهم ببسالتهم المعهودة وما سيسدونه من خدمة للسلطان الاعظم. كما ذكرهم بعدم شجاعة الاعداء مبينا لهم أنهم سبق أن غلبوهم، وأن الجندي مسلح تسليحا جيدا ومدرب غاية التدريب ضدهم، وانهم سيعودون بالتأكيد من المعركة محملين مجدا وغنيمة. فأجابوه جميعا في الحين بأنهم مستعدون لاتباعه، والانتصار أو الموت معه. عند ذاك أمرهم بالرجوع الى أماكنهم وأن يكونوا على أهبة قبل ساعتين من طلوع الفجر. وفي الوقت المحدد، خرجوا من المعسكر بأكثر ما يمكن من السرية، وفاجؤا العدو. فحملوا بادئ ذي بدء على جنود الخفر، وبما انهم ذهبوا مصممين على اكتساب الشرف، تقدموا الى الامام، واقتحموا المعسكر من موضعين، وكانوا قد قتلوا عددا من الجنود قبل طلوع النهار. ولما أخبر الشريف بذلك امتطى فرسه، وأمر بإعطاء الانذار، وعند مطلع الفجر أخذ يصفف جنده الذين كانوا في اضطراب كبير بسبب صياح الجرحى، وصهيل الخيل. ولما علم صالح رايس بالخبر أرسل مددا. وقد بدأ إسلاميو الشريف يقاومون معززين بالعمال وأكابر القواد، لكن الاتراك استمروا في هجومهم العنيف، فلم يستطع الشريف ولا قواده اطلاقا إرغام الاعراب على القتال في صمود واستماتة طالما أدهشتهم شجاعة الاعداء، ووفرة العيارات النارية التي كانوا يطلقونها من بنادقهم. وهكذا يئس الشريف من الانتصار، ورأى أن صالح رايس وأبا حسون مقبلان للانقضاض عليهم مع باقي جنودهما، فأمر بالانسحاب/ ولم يتبعه الأتراك خشية أن يكون قد نصب لهم بعض الكمائن، فانسحبوا إلى معسكرهم بشيء من الغنيمة وبعض الأسرى. وكان يقال إذ ذاك إن صالح رايس لم يأت لمساعدة أبي حسون الا انتقاما للسلطان الاعظم من الشريف الذي أبى أن يلبي رغبته في إطلاق سراح ملك فاس.

الفصل 93

عودة الشريف الى فاس

بعد أن انسحب الشريف أقام محلته على تل صغير، حيث جمع أعضاء مجلسه. وذكروا النظام السيء الذي كان عليه الجنود عند القتال، والنظام المحكم الذي سار عليه الاعداء فنجحوا بتفوق. فقال له علي وقائد آخر من كبار قواده الذين كانوا أشاروا عليه بانتظار الاعداء في فاس. : إنه لاينبغي الاستغراب مما حدث، لان الاعراب غير محنكين، ولا مسلحين تسليحا يمكنهم من مقاتلة رماة البنادق الاتراك. واقترحوا على جلالته الرجوع الى فاس، حتى إذا أقبل اليها الاعداء فكروا في وسائل هزمهم. فصودق على هذا الرأي، وأمر الشريف قواده أن يكون الجنود والامتعة جاهزين في الليلة الثانية، وتظاهر بتحصين موقع المحلة لخداع العدو. وفي الوقت المحدد أخذوا يسيرون نحو فاس تاركين فقط بعض الفرسان وهم يحدثون جلبة عظيمة حتى لايفطن الاتراك بانسحابهم.

وعندما أُخبر صالح رايس وأبو حسون صباحا بفرار الشريف، تزودا بالمؤن والعدد، وأقاما بضعة أيام ينتظران ستمائة من حملة الرماح التابعين لامير بادس، فوصلوا في الوقت المنتظر بقيادة ولدي هذا الامير، وقد خصص لهما صالح رايس استقبالا حسنا. ثم أخذ يسير في طريق فاس، فلحق به أمير دبدو، وهو إقليم صغير بين مملكتي فاس وتلمسان.

وصل الشريف الى فاس، فدخل اليها، بعد أن جمع في الطريق المؤن وبعض الإتاوات، والرايات منشورة في أبهة كبيرة، حتى ليخيل للمرء أنه أحرز الانتصار على أعدائه. كان يشيع بأنه عاد ليترك الأتراك يدخلون للبلاد حتى لايفلت أحد منهم، وينتقم لموت عبد القادر، ويعاقبهم على جرأتهم. حدث ذلك كما توقعه، وعلمته من أسير مسيحي (208) عند الشريف، كان من قبل ملازما في البحرية بأزمور.

---

208) فرنسوا إسكالرنا. (هامش)

وسأحكي هنا خصاما وقع بين هذا الاسير ويهودي. ذلك أنه تناقش يوما مع يهودي حول العهد القديم والعهد الجديد، واحتد النزاع بينهما حتى اغتاظا، فلم يتحمل الاسير وقاحة اليهودي ووجه اليه بعض الضربات. فدافع اليهودي عن نفسه، لكن الآخر زاد في ضرباته، وكان أقوى منه، وصوب اليه لكمة شديدة في عينه فأسقطها من رأسه. أخذ اليهودي يصيح ويستنجد حذر الموت، فأسرع اليه جميع عشيرته، وذهبوا الى القاضي يتظلمون. أرسل هذا الاخير شرطيين للبحث عن الاسير، فوجداه معي، لكن بما أنه كان قد حكى لي ماجرى فقد نصحته، إذا ماقبض عليه، بحيلة من شأنها أن تعفيه من جلدات عديدة. فلما عثر عليه في بيتي وسئل عن فعلته قال : إنه تناقش حقا مع اليهودي حول الدين، لكنه شتم محمدا (عليه السلام) كثيرا حتى إنه لم يتمالك من ضربه. فأيدت الاسير في الحين، وشكرته على مروءته، وأعطيت الشرطيين قلنسوتين قرمزيتين طليطليتين. ورغم ذلك ساقاه الى المحكمة. فلما استنطق بمحضر أكثر من خمسمائة يهودي، أكد ماقاله في منزلي، عند ذلك صدق المغاربة الاسير، لانهم يصدقون بسرعة، ولهم نظرة سيئة عن اليهود . فأمر اليهود بالانسحاب فورا بعد ان سبوا وأشبعوا ضربات قوية بالعصي. وهكذا أدوا ثمن العقوبة التي أرادوا ان يحملوها الاسير البطل.

الفصل 94
موت الامير دم فيرناند بفاس، وذكر ماجرى بعد ذلك لمغربي ضرير

عندما كان المؤلف بفاس استخبر عما حدث من أشياء بارزة في هذه المملكة، فعلم أن الامير دم فيرناند، ابن صاحب السمو الملكي دم يوحنا الاول سلفكم، مات في عاصمة هذه المملكة. لكنني سأتحدث بإيجاز عن دم فيرناند ما دمت لم أقصد سوى ذكر ماحدث بهذه البلاد منذ سنة اثنتين وخمسمائة وألف.

كان المغاربة يقولون إن الملك إدوارت أرسل أخاه الصغير (209) الامير فيرناند ليستولي على طنجة، وبينما كان يحاصرها جاء ملك فاس لنجدتها. ويضيفون أنه، بعد مناوشات عديدة قتل فيها كثير من المسيحيين والمغاربة، التحق بملك فاس عدد كثير من الجنود، طوق بهم الامير الصغير في معسكره من جميع الجهات، وأن المسيحيين لم يكفوا عن شن غارات قتلوا فيها الكثير منهم. وأخيرا فإن ملك فاس ولو انه بلغ الحد في الانتصار على أعدائه، كان يخشى مع ذلك أن ياتيهم المدد، لذلك يقول المغاربة إنه تفاوض مع الامير الصغير على أن يرد (البرتغاليون) اليه سبتة، وأن يبقى عنده كرهينه الى ان تسلم له المدينة، وترك جنوده يخرجون بأسلحتهم وخيلهم وأمتعتهم.

جمع الامير الصغير على الفور مجلسه للتداول في الامر، وبعد ابداء عدة آراء قبل شرط الملك المغربي، وهكذا أمر قومه بالإبحار، ومكث تحت سيطرة الملك الذي أحسن معاملته وهو يأمل انهم سيردون إليه سبتة. ظانا انهم سيحترمون تعهد الامير ويطلقون سراحه. لكنه لم يقبل ذلك بتاتا، وقال إنه لن يطيق ان يرى حصنا تطلب من المسيحيين هذا القدر من إراقة الدم للاستلاء عليه، وهو في غاية الاهمية لصالح المسيحية، يسلم للمسلمين (210) من أجل خلاصه.

اغتاظ ملك فاس من نكث الامير الصغير، وجعل يعامله بقسوة، وزج به في سجن بناه خصيصا له، على الاسوار المواجهة لفاس الجديد بكيفية لاتقي الحر ولا البرد ولا تسرب المياه. وبقي مدة محبوسا في ذلك المكان إلى أن مات فيه. فزاد موته في غضب "الجبار" لأنه فقد الامل في استرجاع سبتة، وامر بربط جثة دم فيرناند في شرفات فاس الجديد، من الداخل فوق بات السبع، فأسرع عدد من المغاربة لمشاهدته.

وبعد ثلاثة أيام، جاء مغربي ضرير كان يتسول على طول الشارع المؤدي من الملاح إلى الباب الذي صلب فيه الامير، وطلب من الطفل الذي يقوده أن يوصله إلى حيث يوجد ولد السلطان النصراني، ففعل الطفل،

---

(209) سنه 1537. (هامش)

(210) دناهم -كعادته- كفارا.

وأجلسه تحت جثة الامير. رفع الضرير عينيه إلى السماء، فسقطت عليهما قطرات دم من جثة الامير فاسترجع بصره وأخذ في الحين يحمد الله ويقول بأعلى صوته إنه يعتقد بمثل عقيدة الامير المسيحي. سمعه عدد من المغاربة فألقوا عليه القبض وساقوه الى الملك، فأعاد أمامه بجرأة ما كان يقوله وتكلم كشخص يتمتع بنعمة الله. سلمه الملك فورا الى العدالة، فاستنطقوه لكنه أجاب بالحزم الذي أجاب به الملك قائلا : إنه يريد أن يموت على دين دم فيرناند. حكم عليه بالموت سحبا بالخيل. ولما كانوا يسحبونه أخذوا يدعونه استهزاء به : سيدي الكافر ! وأقاموا له بعد موته ضريحا مشرفا في أسفل فاس الجديد، بنوه كزاوية صغيرة. وحكى لي بعض المغاربة الذين سألتهم عن ذلك الضرير أنه كانت تلوح عقب مقتله في ليال عدة أضواء كثيرة فوق قبره. حقا إن الوسائل التي يستعملها الله لانقاذ الناس وتكريمهم عجيبة، إذ أن هذا الضرير لم يشهر بين المسيحيين فحسب ولكن كذلك بين أعدائه المغاربة، الذين بعد ان أشبعوه شتما ولعنا، وقتلوه رجما بالحجارة. دفنوه بعناية واحترموه كشخص مقدس. (211)

ثم أمر الملك بانزال جثة الامير ووضعها في صندوق حمل الى تجويف السور المجاور للملاح، إذ لم يقبل بتاتا افتداء رفاة ذلك الامير المجيد، بحيث إن المسيحيين لم يحصلوا على هذا الرفاة إلا سنة إحدى وسبعين وخمسمائة والف، عندما احتل الفونس الخامس أصيلا. فحول مسجد هذه المدينة الى كنيسة وعين بها ابنه (212) فارسا. وكان من جملة من أسر

---

211) الجانب الاسطوري ظاهر في هذه الحكاية الملفقة التي لامصدر لها سوى خيال المؤلف الموسوس. والمعركة التي جرت بين المسلمين والمسيحيين المشار اليها هنا وقعت على ابواب طنجة عام 1437/841 في عهد عبد الحق بن أبي سعيد المريني. وفيرناند هو كبير الاخوة الخمسة ابناء طاغية البرتغال الذين هاجموا كلهم في ستة آلاف جندي مدينة طنجة في التاريخ المذكور، لكنهم ردوا عنها خاسرين، بعد أن اسر المغاربة عددا من المهاجمين مع قائدهم فيرناند. وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يسلم الغاربة الاسرى للبرتغاليين بعد أن يرد هؤلاء اليهم سبتة التي احتلوها قبل ذلك بثلاث وعشرين سنة، لكن اتفق ان مات فيرناند ميتة طبيعية فبطل الاتفاق. والقصة مشهورة ذكرها منويل في تاريخه ونقلها عنه الناصري في الاستقصا، 4 : 95 - 96

212) دم يرحنا (هامش)

بأصيلا زوج أميرها الشرعي (213) واثنان من أولاده، فرد اليه الفونس الخامس زوجته وابنته كفدية لرفاة الامير التي حملت الى لشبونة، ودفنت في دير المعركة.

الفصل 95

تعذيب الراهب مارتان دي سبُّوليطي (214)

في سنة ثلاثين وخمسمائة وألف، جاء إلى مملكة فاس الراهب مارتان دي سبوليطي، فرانسيسكي ايطالي، بقصد تنصير المسلمين وإدخالهم الى دين المسيح. كان ملك فاس إذ ذاك مولاي محمد المريني، الذي فقد (فيما بعد) دولته. وكان خليفته هو صهره مولاي ابراهيم، وهو شخصية كبيرة، سواء في حالتي الحرب أو السلم، وصديق حميم للمسيحيين الذين كانوا يحبونه حبا جما لما كان يسدي اليهم من خدمات. وعندما وصل الراهب، ذهب لزيارة الملك وصهره، وكشف لهما عن مشروعه. فحاولا ان يصداه عنه واعدين إياه بمساعدته عن طيب خاطر إذا لجأ اليهما، لكن ذلك لم يزده الا حماسا. فأخذ يجادل الفقهاء الذين اقتنعوا سريعا، بحيث إن عددا من المغاربة بدؤوا يتبعون الراهب مارتان دي سبوليطي. وتناقش مرارا أمام الملك مع أكابر أحبار اليهود، ولما أقنعهم بقوة حجمه، أخذوا يسرون الى الناس عامة، وإلى الملك خاصة، أن بذلك الراهب مسا من الجن، وأنه يتعين طرده من البلاد، ومنعه من التبشير. وأضافوا بان جلالة الملك نفسه في خطر، وأن ذلك الراهب قد يتبعه جمهور غفير من الناس وعدد كبير من المسيحيين، الى درجة أنهم قد يتجاسرون على اغتصاب ملكه.

---

(213) (محمد الشيخ) الوطاسي (هامش)

214) هذا الفصل كله هذيان أملاه خيال المؤلف الحالم بانتشار المسيحية، الحاقد على الاسلام والمسلمين. وفضلا عن استحالة وقوع مايزعمه من تنطع راهب مبشر أعزل بين يدي أمير المومنين والفقهاء وفي حاضرة الاسلام الكبرى بالمغرب فإنه لاأثر لاي شيء مما هنا في اي مصدر تاريخي.

وذات يوم استدعى مولاي ابراهيم الراهب مارتان، وكان اكثر ترددا اليه، وقال له امام الملك وأعضاء مجلسه إن عليه ان يكف عن التبشير والجدال، ويلزم مسيحيتة، لكن الراهب أجابه بانه لم يات الا بقصد حملهم على اعتناق الديانة التي يدين بها واخراجهم من العماية التي هم فيها، وانه مصمم على مواصلة عمله المسيحيي. وزاد قائلا إن اليهود ليسوا سوى خداعين لا غرض لهم الا في اهلاكهم، واما هو فإنه متيقن من الحقيقية التي يبشر بها، ومستعد ان يدخل في أتون حام لاقناعهم جميعا، بشرط ان يقبلوا الايمان بعيسى المسيح إن خرج سالما من لهب النار. فوعده الملك وصهره أن يعتنقا الدين المسيحي (!) إذا ما خرج من النار سالما، لكنهما لم يفيا بوعدهما.

حُدد اليوم وأعلن بان ذلك سيقع في زقاق اصطبل الخيل. حُمل الى المكان كمية وافرة من الحطب اليابس، وأقيم أتون على شكل آلة تقطير ذات مدخل كبير، وشهد الملك كل ماجرى، مصحوبا بصهره، ونسائه، واطفاله، ومجلسه، وجمهور من اليهود والمسلمين والاسرى المسيحيين. حضر الراهب في اليوم المحدد، وشرع أولا في الصلاة جاثيا أمام صليب، بينما كان المغاربة عبثا يحاولون إضرام الحطب، وبعد أنهى صلاته، تقدم ولم يكن مرتديا سوى لباس داخلي، وأمر أولائك البرابرة أن يشعلوا الحطب، فاشتعل في الحين واضطرم بشدة. وفي نفس الوقت، اقترب الراهب من مدخل الأتون، وقد حركه الايمان والرجاء في المسيح، وارتمى في النار بعد أن رسم إشارة الصليب ساجداً متوجها نحو الشرق وهو يدعو وقتا استغرق ثلاث "عقائد" واربع "صلوات"، كان على بعض المسيحيين أن يتلوها من أجله ومن أجل تنصر أولائك المسلمين. ولما انتهى الراهب من صلاته، قام وخرج دون أن يلحقه اي أذى، لكن مغربيا طعنه بالرمح من جهة بطنه وهو خارج، بينما شدخ آخر رأسه بآجرة، فمات "شهيدا".

أخذ الاسرى (المسيحيون) شيئا من جسمه وثيابه وجعلوا منها لفائف صغيرة، كان المرضى يستشفون بها فيسترجعون صحتهم بإذن الله إذا الصقت عليهم. وقيل إن الملك رشاه اليهود ليأمر المغاربة بقتل ذلك الراهب. ومات منفذو أوامر "الجبار" أشنع ميتة : فالذي أصابه بطعنة قتل مسحوبا (بالخيل)

والاخر الذي رماه بآجرة شق رأسه حجر سقط من عل. حدث هذا بعد ثمانية ايام من تعذيب الراهب دي سبوليطي. وبالتالي فإن اليهود يعارضون المسيحيين دائما، ويحاولون أن يجعلوهم مكروهين عند المغاربة.

وسأقص عليكم في هذا الصدد ماحدث سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة والف في كنيسة طليطلة. ذلك أن ملك تلمسان أرسل أخاه ليلتمس من الامبراطور دم شارل ان يعينه ضد الاتراك الذين اغتصبوا ملكه. وكان لذلك المسلم يهودي يستخدمه كترجمان. وبينما كان ذلك الامير المسلم محفوفا بعدة نبلاء وكهان قانونيين يطلعونه على اروع الاشياء في ديننا، وهو يستحسن جميع تلك الطقوس، ذهبت الوقاحة باليهودي إلى أن قال له إن ذلك كله مجرد استهزاء، لكن المسلم رد عليه بانه لم ير قط ضروبا من الاستهزاء أكثر حكمة، وانه معجب بها، فخجل اليهودي. وقد حكى لي أموسكو، كاتب الكاردينال طافيرا، هذه القصة، وكان حاضرا لها.

وفي عهدي فرّ راهب من اسبانيا وأسلم بفاس، وكان أديبا فعينه الشريف إماما بالجامع الكبير. لكن هذا الاسلامي (215) ، ما ان ارتقى الى هذه الرتبة حتى حاول استرضاء المغاربة بجميع انواع الطرق. ولهذا الغرض نقل عدة اشياء من الكتاب المقدس وكيفها مع القرآن، الشيء الذي أكسبه شهرة عظيمة بين هؤلاء المسلمين، لكنه لم يتمتع طويلا بالتقدير، حيث تأثر بالتأنيبات التي وجهتها له أنا والمسيحيون الآخرون، فعدل يوما أمام الملك والفقهاء عن كل ماقاله في تمجيد محمد (عليه السلام). اغتاظ الشريف الى درجة أنه أمر بان يقتل سحبا، وكانوا سينفذون ذلك، لولا تدخل بعض الفقهاء من أصدقائه الذين قالوا للملك بانه فقد رشده. فاكتفوا بطرده من القصر، ومنعه الامير من الدخول الى الجامع منذ ذلك العهد، وألا يؤدى له الراتب المخصص له. فتحمل هذه النكبة بصبر كبير، مكتفيا بكسب معاشه من صدقات المسيحيين. ولم أدر بعد ذلك ماجرى له، لكنه قال لي مرارا إنه كان يرغب في العودة إلى بلاد المسيحيين.

---

215) وصفه بالمرتد الكريه

الفصل 96
رغبة الشريف في أن يحمل العبيد السلاح

عندما هزم الشريف في مواجهته الأتراك انسحب الى فاس، وهو لايفكر الا في وسائل الانتقام منهم. ومن اجل ذلك فكر في تجنيد العبيد، لكن نظرا لاهمية هذه القضية، اراد ان يناقشها مع مجلسه وبعض المسيحيين الاحرار الذين كنت في عدادهم. فتعددت الآراء وتشعبت حتى إنه لم تحصل أية نتيجة بتاتا. كان المغاربة يقولون إنه لايمكن الاعتماد على المسيحيين، وان العدد القليل من غيرهم من الاسرى لايستحق اللجوء اليه. ثم انني، بعد الاستماع الى آراء الخواص واصحاب الشريف، بينت له انه بالنسبة لنا نحن المسيحيين من صالحنا ان ينتصر في الحرب التي ينوي خوضها، وان سلامتنا منوطة بذلك، وان اعداءه طغاة قساة نكرههم، وانه اولانا كثيرا من النعم بحيث لايسعنا استعمال حياتنا في احسن من خدمته. وهكذا توسلنا اليه، لمجدنا ولفائدته، ان يسلح الاسرى المسيحيين ويسوقهم ضد العدو، على أمل أن يطلق سراح الذين سيقاتلون بشجاعة. واننا لمحرزون لامحالة على انتصار كان غير محقق لولا هذا، وبالتالي لو انتصر الاتراك لفقد (الشريف) البلاد والاسرى معا، وإن من الافضل استخدامهم، حيث أن القدر يتيح فرصة مواتية للغاية. ايد معظم الحاضرين رأيي، وكان سيحصل الاجماع عليه، لولا ان فقيها تلا آية من القرآن تمنع تحرير اي أسير بدون فدية (216) فانضم الجميع

---

216) من المعلوم ان هذا غير صحيح. بل بالعكس من ذلك يدعو القران الى التحرير والمن (فإما منا بعدُ وإما فداء) - الاية 4 من سورة محمد -. ولعل الاشارة هنا الى الاية 85 من سورة البقرة : (وإن ياتوكم أُسارى تُفادوهم وهو محرم عليك اخراجهم). وهي لاتفيد الحكم الذي ساقه المؤلف. ولعله لم يفهم جيدا ماقاله الفقيه، واختلط عليه القرآن بالحديث. إذ لاشك أن الفقيه استشهد بنحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لانستعين بمشرك. أخرجه اصحاب السنن وأحمد في المستند.

الى رأيه، وعند ذاك قلت إنني سأؤدي عشرين ريالا عن كل اسير سيفر، لكنهم لم ينصتوا إلي بعد الحجة التي ادلي لهم بها. فغادرنا المجلس، وبعد ثمانية ايام فقد الشريف الاسرى والتاج معا.

الفصل 97
وصول الأتراك إلى نهر سبو بينما كان الشريف يتهيأ

لما قرر الشريف عدم الاستعانة بالاسرى، بدؤوا يعلنون انه بمجرد مايقترب الاتراك من فاس، ستشن عليهم الغارة، ويقتلون جميعا بالسيف، لكن النتيجة كانت معاكسة لذلك. وفي هذه الاثناء وصل (217) الاتراك الى بعد فرسخ من فاس البالي، وأقاموا معسكرهم على ضفاف نهر سبو. فعلم الشريف بذلك بواسطة عيونه، وقرر ان يهاجمهم. خرج يوم الغد من فاس الجديد، مصحوبا بأبنائه واكابر قواده، ويحرسه المؤلف من الاسلاميين، وجوق مكون من عدة الات موسيقية. فأقبل على تلك الحال الى المكان الذي كان ابنه مولاي عبد المومن ينتظر فيه الاتراك لمقاتلتهم. كان مع ابنه هذا خمسة عشر الف فارس من نخبة رجال مراكش وترودانت، كون منهم أبوه ثلاث كتائب، اسند احداها الى مولاي عبد المومن وعلي بن ابي بكر، والاخرى الى ابنه مولاي عبد الله، وترأس هو الثالثة، ثم زحف ضد العدو في هذا النظام. ولما وصل الى النهر توقف، وأمر إحدى الكتائب بعبور النهر والشروع في القتال. فتصدى لها على الفور أبو حسون وأبناؤه في حوالي الفين من حملة الرماح أتوا من بلاده، وحثهم على ان يقاتلوا بشجاعة لاسترجاع المدن والمملكة التي اغتصبها "الجبار" ثم حرك رمحا كان بيده ورمى بقلنسوته نحو الاعدء، وهمز فرسه بشدة طالبا من أبنائه ورجاله أن يتبعوه ويحاربوا مثله قائلا إن النصر والانتقام لموت المرينيين بين يديه. وقيل أيضا إنه التمس من

217) سنة 1554 . (هامش)

صالح رايس ألا يحارب ذلك النهار بتاتا بل يكتفي بمشاهدتهم، لأنه يامل ان يعينه الله ومحمد (عليه السلام) لمشروعية الحرب التي يخوضها. فهاجم الاعداء الذين كانوا خارجين من المجاز، وجرت معركة عنيفة دامت اكثر من خمس ساعات، قتل فيها عدد من جنود هذا الفريق وذاك. وأبلى ابو حسون ذلك النهار بلاء حسنا حتى ارغم الاعداء على الانسحاب نحو الشريف الذي كان يشاهد القتال، فقط، ورجع بعد ذلك الى فاس، على أمل أن يهاجم الأتراك بكيفية أخرى إذا عبروا النهر.

وعاد ابو حسون الى المعسكر، فاستقبل بفرح كبير وعدة طلقات نارية. واسرع الاتراك لحينهم في اجتياز نهر سبو، وهم ياملون القيام بالنهب والحصول على اجرهم المقدر باربع مائة الف مثقال، ونصبوا محلتهم بأحد جوانب فاس البالي في مكان يدعى "لاس كاليراس"، على الطريق المؤدية من فاس الى تازا. وقد شاهدنا من فوق الاسوار محلتهم المحصنة بعناية، ولكن قيل إن اهل فاس البالي ساعدوهم على التحصن، لان اعيان هذه المدينة كانوا قد اتصلوا بأبي حسون مؤكدين له خدمتهم وواعدين بانهم سيقدمون له مفاتيح المدينة.

الفصل 98
خروج الشريف من المدينة لمحاربة الأتراك بعد أن اطلع على مكانهم

بعد أن انسحب الشريف ليلا إلى فاس الجديد، أخبره عيونه بان عليه ألاّ يثق بأهل فاس البالي إطلاقا، وان الاتراك أقاموا محلتهم "بلاس كاليراس". فجمع أبناءه ومجلسه، وتداولوا حول الطريقة الواجب اتخاذها للتغلب على الاعداء. فاقترح مولاي عبد المومن وعلي أن يهاجم الاتراك عند خروجهم من تحصيناتهم بكتيبتين مؤلفتين من خمسة أو ستة آلاف فارس، وان تقسما قسمين بمخاطرة فقدان بعض الرجال. فاستحسن هذا الراي، وخرج الشريف فورا من فاس الجديد في ابهة كبيرة، حتى كان يخيل بانه مقبل على القيام

بشيء أهم بكثير من هزم الاتراك. كان جنوده خفاقا نشيطين شجعانا مسلحين تسليحا جيدا. وكان هو مترديا لباسا قرمزيا ذلك النهار وممتطيا جوادا ممتازا، مزينا بفخامة كبيرة. وعندما وصل الى حيث كان قومه ينتظرونه، حيي بطلقات جميع البندقيات، واقتبل بهتافات كبيرة. كان عنده نحو عشرين الف فارس، كون منهم ثلاث كتائب، اسند احداها الى مولاي عبد المومن، والأخرى إلى علي، واحتفظ هو بالثالثة. ثم امر ابنه وعليا بمهاجمة الاعداء بالكيفية المتفق عليها، وامدهما من اجل ذلك بحرسه الاسلاميين قائلا لهما إنه سينجدهما عند الاقتضاء. وعلى الفور سار ذلك الامير على رأس الاسلاميين وبعض الجنود الآخرين، وكان مقداما متحمسا، وحملهم بالتوسلات والوعود على ان يقاتلوا بشجاعة، مصورا لهم فظاظة الاتراك ووقاحتهم، ثم داهمهم بشدة كبيرة بفرسانه، حتى أخلى الطريق من الوسط. ولعل الشريف كان سيكسر الاعداء لو حمل عليهم آنذاك. لكن كان لهم متسع من الوقت للانضمام مرة ثانية، فبادروا بإطلاق مدفعيتهم بقوة كبيرة أفزعت الخيل، ولم يعد بعد ممكنا لعبد المومن ولا للاخرين ايقافها. وكان الشريف اثناء ذلك على جبل صغير بجنده اجمع، وهو يستعمل سحره الذي لم ينفعه شيئا. ولما رأى بعد ذلك هزيمة رجاله، والذعر الذي اصابهم من الاتراك، انسحب الى فاس الجديد، حيث دخل والرايات منشورة كأنه انتصر على العدو. كان ممتطيا نفس الفرس الذي كان يركبه عند خروجه، إذ كان عزيزا عليه جدا، ويعينه كثيرا على التأمل، لانه اكتشف -حسب قوله- بفضل اسرار فنه انه سينجيه يوما من الموت في احدى المعارك. لكن كانت لهذا الفرس نزوة وهي انه لايقبل قطعا أن يبول على التراب خوفا من ان يتسخ من جراء ذلك. فكان يتخذ لهذا الغرض عبدا مسيحيا في النهار، ومغربيين في الليل، يتلقون بوله في جفنة، وان غفلوا احيانا وبال على التراب جلدوا.

وبالاجمال، كنت ذلك اليوم في مكان شاهدت منه المعركة. فالذي تأسف اكثر لعدم هزم الاتراك هو مولاي عبد المومن، الذي حمل اباه التبعة كلها، إذ كان يقول إنه لو حمل بكتيبته لاستحال على الاتراك ان يحتموا. وبعد ان وصل الشريف الى فاس الجديد، امر مولاي عبد الله بالذهاب الى فاس البالي لمنع الاتراك من اقتحام القصبة. فامتثل عبد الله، لكن عندما

اكتشف ان اهل فاس البالي يؤيدون تماما أبا حسون، وانه يخاطر بحياته، تراجع الى الشريف وقال له إنه يجب أن لايثاق بعد باهل فاس البالي وأنه يتعين التفكير عاجلا في تدبير الامور.

الفصل 99
دخول الأتراك الى فاس البالي، وفرار الشريف الى مراكش

بعد أن انسحب الشريف الى فاس الجديد، وتخلى ابنه عن قصبة فاس البالي، أقام الاتراك محلتهم أمام هذه المدينة التي دخل اليها أبو حسون وصالح رايس في أول الليل مصحوبين بعدد من العمال. فاستقبلوا بفرح عظيم من السكان الذين حملوا اليهم هدايا كثيرة. كان فاس الجديد في هذه الاثناء يسوده الذعر، بينما يعيش فاس البالي في حبور لدخول الاتراك اليه. ولما أخبر الشريف بذلك، قدر أنه من الحذر ألا ينتظر الحصار، لذلك انسحب الى مراكش، وغادر البلاد ريثما يعود الاتراك الى الجزائر. وصنع قنطرة من المال لعدوه، فكان هذا الانسحاب سبب نجاة الشريف بحياته وإماراته. امر ابا حامد ان يكون جاهزا في خمسمائة فارس بالقرب من باب خفي في القصر، وأن يعطي كل واحد صندوقا من ذهب التبر الخالص. وأما هو فسار في طريق مراكش مع أسرته. خرج سرا من فاس على الساعة العاشرة ليلا، تاركا ذخائره بين يدي عدوه. لكنه كان قبل ذلك قد أوصى علي بن أبي بكر ألاّ يسمح لاحد بالخروج من المدينة، وان يتبعه هو ورجاله بعد منتصف الليل. لم يتم ذلك، دون إن يطلع عليه السكان. فلم يكن يسمع بفاس الا الصراخ لاسيما عندما علم ان الشريف لاذ بالفرار. وحوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وكل علي الابواب الى أحد ثقات خدامه، وانطلق توّا مع أفراد اسرته، وما يزيد على ثلاثمائة فارس متجها نحو مكناس، وهي الطريق التي سار فيها الشريف، فوصل اليها يوم الغد. ثم تابع سيره الى مراكش،

بعد ان جمع الجنود الذين كانوا يتبعونه. ولما علم أبو حسون وصالح رايس بخبر انصراف الشريف، ارسلوا قبيل طلوع الفجر الى فاس الجديد اسلاميين وأتراكا لحراسة الباب وقصر الملك. لكن لما حضروا قصد الدخول، امتنع البواب الذي أقامه علي من فتحه في وجههم، غير انه استسلم عندما هددوا باحراقه، فدخلوا. وبعد ذلك دخل صالح رايس وابو حسون برفقة امير دبدو متزينين بحلى فاخرة، كل واحد على طراز بلاده، وممتطين جيادا جميلة عليها سروج مزخرفة، ومعهم اكابر جنودهم. كانوا يسيرون بالموسيقى في نظام جيد. وعندما مروا عبر الشارع الكبير بجانب ديوان التجار، خاطبهم المسيحيون الذين كانو على أحد السطوح مستنجدين بهم. فأجابهم صالح رايس ان لا خوف عليهم، ثم نزلوا الى القصر فاستقر به هذا القائد. وشرع الاتراك في الحين ينهبون المدينة، حسب الشروط التي قدموها، فحصلوا على غنيمة عظيمة، لكنهم ارتكبوا عدة سفاهات وتصرفات طائشة لانهم بخلاء يحبون السرقة. فذهب صالح رايس فورا للوقوف على بيت المال الذي تركه الشريف، يقال انه وجد فيه ما يزيد على ثلاثة ملايين. بالاضافة الى عدد عديد من قطع الذهب والفضة، وكثير من الاثاث الفاخر مع سبعمائة خادم يقدر ثمنهم بمليون. ويقال إن الشريف ترك ذلك كله حتى لا يفكر صالح رايس أصلا في اتباعه، وعلى امل ان ينسحب الى الجزائر بعد ان ينهب المدينة ويستلم الاربعمائة الف مثقال التي وعد بها. ومن جملة العبيد الذين وجدهم صالح رايس، اثنان كانا يخدمان خيل الشريف، فدخلا الى بيت المال، وأخرجا منه ثلاث سلال مملوءة عملات ذهبية أوربية (بستولات) دفناها ليفوزا بها أو بقسط منها على الاقل. لجأ العبدان الى الحيلة وطلبا من صالح رايس ان يطلق سراحهما على ان يكشفا له بعض المواطن التي دفن فيها الشريف المال. فأمر صالح رايس بالبحث عن ذلك واعدا إياهما أن يعطيهما الربع مما يجدانه. فجدا في العمل، وبعد كد كبير ويأس من العثور عليه، قصدا المكان الذي وضعا فيه المال، فأخذاه وحملاه الى ملك الجزائر. كان يحتوي على أكثر من اثني عشر الف مثقال من عملة (البستولات) القديمة. وفي نفس الوقت أمر صالح رايس بأن يطلق سراح الاسيرين، ويمنحا ما وعدهما به، شريطة أن يعالجا خيله حتى يصل الى الجزائر، ومن هما سيرسلهما الى اسبانيا، فقبلا ذلك.

وعندما كان الاتراك يقومون بالنهب، وجد احدهم كيسا من ذهب التبر، وقلادة من درر صغيرة، وبما انه لم يعرف حقيقة ذلك، باعهما ليهودي بستة عشر مثقالا بينما هما يساويان اكثر من الف. إذ انه خوفا من أن يكون معدن الصفر، فكر انه لن يكون اطلاقا من الفضة، وظن انه غبن اليهودي. لكن هذا الاخير الذي كان يعرف قيمة ذلك، ادى له الثمن واختفى. وبعد ذلك علم التركي بأنه خدع وبحث عن اليهودي فلم يستطع العثور عليه، لان اليهودي لم يظهر الاّ بعد ان انسحب الاتراك.

وباختصار، ساقص هنا ما جرى بين قائد وجندي، لابراز الكيفية التي يطيع بها هؤلاء البرابرة رؤساءهم. ان مغربيا من مواليد فاس ذهب ليشتكي من تركي يقيم بمنزله ويسيء اليه كثيرا. فأرسل القائد في طلبه، ولما لم يحضر عاجلا، امتطى القائد فرسه ليبحث عنه، فوجده بإحدى الساحات أمام قصر الملك. وهناك بعد ان اشبعه سبا ولعنا، أمر ان يمدد على الارض وأن يجلد مائة جلدة. فارتمى الجندي فورا على الارض التي كانت مليئة بالوحل، حتى كاد يغطيه كليا، فأوثقوه بمضغطة وجلدوه مائة جلدة. هكذا يجلدون في هذه الامة، وإذا ارادوا إعدام احد جلدوه على بطنه، او باطن قدمه. وبهذه الكيفية شاهدت معاقبة التركي، وأخذ المغربي حقه.

الفصل 100
إرسال صالح رايس لغزو البينيون، وذكر ما جرى من أشياء أخرى

بينما كانت الامور على الحالة التي وصفتها، والاتراك قد وجدوا ما يشفي غليلهم من الحكم والنهب، كان أبو حسون يلح على أهل فاس البالي ليسلموا له الاربعمائة الف مثقال التي وعد بها الاتراك. وفي هذه الاثناء قرر صالح رايس إرسال جنود إلى مملكة بادس في محاولة للاستلاء على البينيون باسم السلطان الاعظم. فأرسل اليه قائدا مع خمسمائة من الاتراك والاسلاميين

استولوا عليه بدون أية مقاومة، ذلك أن العامل الذي كان يحكمه باسم الشريف أُخبر بما وقع. ولما لم يكن يشعر بالامان في تلك المدينة لعدم تأكده من النجدة إن تحصن فيها، قرر تركها، وذهب الى مراكش مع اسرته ومتاعه.

وحيث إن الموضوع جر الآن الى الحديث عن هذه القلعة التي يشاع عنها بأنها منيعة، فمن المفيد انٍ أذكر كيف سقطت اربع مرات دون فقدان اي شخص عند احتلالها. فقد احتلت أول مرة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة والف عندما كان دييگو دي ڤيلا لوبوز حاكما فيها. وفقدها بسبب طموحه ومجونه، تلك الرذيلة التي يجب على جميع القواد ان يتخلوا عنها لانها لاتساوي اقل من فقدان حياة هذا القائد. يروي المغاربة الخبر بطرق مختلفة : فبعضهم يقول إن جماعة من المغاربة اوهموه بانهم كيماويون فقتلوه وثاروا مع البينيون. ويؤكد آخرون بأن مغربيا كان صديقا له، يشن الغارات على البلاد، فيأسر أفرادا عديدين، ويبيعهم له بثمن بخس: وأنه كان يثق بهذا المغربي أكثر من اللازم تحت تأثير مصالحه. ويضيفون ان ڤيلا لوبوز طلب منه يوما ان ياتيه بأمتين سوداوين شابتين رشيقتين، فوعده المغربي بهما. وفعلا، ركب ذات صباح زورقا صغيرا، وذهب الى اليابسة بحثا عن الامتين لذلك الحاكم. لكنه فكر في نفس الوقت أنه يجب كذلك القيام بشيء آخر. فذهب الى ملك فاس، وطلب منه أن يعفو عما كان قد ارتكب من قبل، عارضا عليه ان يملكه البينيون دون فقدان اي رجل، اذا ما عفا عنه وفعل ما سيقوله له. اطلعه المغربي على ما كان يجري، ولم يطلب سوى خادمين شابين قويين، وقال انه سيلبسهما زي الفتيات فإذا نفذا ما سيأمرهما به فإنه سيتمكن ولاشك من المدينة. ولما رأى الملك انه لايخاطر بشيء كبير، قرر تنفيذ طلبه، فسلم للمغربي خادمين في زي النساء، واعدا اياهما بالمكافأة شريطة ان ينجزا ما سيأمرهما به المغربي. وفي نفس الوقت استنفر الملك ازيد من عشرين الف رجل من الفرسان والمشاة، وسار بهم في طريق بادس، فتوقف في مكان يستطيع ان يبصر منه الاشارة التي كان سيقوم بها المغربي.

وصل المغربي قبل الشروق بساعة الى البينيون مع خادميه، فنادى الحرس الذين أخبروا العامل، فنهض هذا الاخير وأمر بفتح الباب وإدخاله.

وبعد ان سلم عليه المغربي قال انه يريد ان يبلغه شيئا سريا، لكن العامل وقد رأى الامتين وتشوق الى مغازلتهما شعر بسرور كبير، الى درجة انه صعد الى أعلى البرج مع المغربي والامتين. وعندما كان مستمرا في مداعبتهما عانقتاه وطعنتاه عدة طعنات بخنجر حتى قتلتاه. وإذ ذاك قام المغربي بالاشارة المتفق عليها، فعبر الملك الى الجزيرة بجنوده. ولما شاهد المسيحيون كثرة المغاربة الذين أقبلوا مسرعين، والحاكم قتيل، قرروا الاستسلام الى ملك فاس، الذي لم يقبل أخذهم الا شريطة أن يكونوا أسراه. وهكذا وضعت القلعة تحت سيطرة ذلك الامير، الذي كافأ المغربي وخادميه على ما أسدوا له من خدمة. وبعد ذلك قدم هذه المدينة هدية الى صهره أبي حسون، الذي احتفظ بها ثمانا وعشرين سنة، الى ان اخذها منه الشريف سنة خمسين وخمسمائة والف، وبقيت في ملك الشريف ثلاث سنوات، الى ان انتزعها منه صالح رايس في بداية سنة اربع وخمسين وخمسمائة وألف. وبقيت في ملكه أكثر من عشر سنوات، الى ان فتحها دم غرسية دي طليطلة باسم الملك دم فيليب، سنة اربع وستين وخمسمائة وألف.

ولنرجع الى حديثنا فنقول : ان التركي الذي باع التبر الى اليهودي، لما وجد نفسه قد خدع، صار يبحث بجميع الوسائل للانتقام من اليهود. ولهذا الغرض أقنع بعض أصدقائه بنهب الملاح، لكن اليهود الذين أنذروا بذلك، استعدوا للدفاع عن انفسهم، ورغم الحماية التي منحهم اياها صالح رايس، فإنهم لم يمنعوا الاتراك من الدخول فحسب، بل قتلوا بعضهم. ولما علم صالح رايس بذلك، ارسل حاكما مع بعض الاتراك الاسلاميين فهدؤوا الاضطراب، وعوقب ثلاثة او اربعة من أكثرهم ذنبا، ومن بينهم التركي الذي باع التبر لليهودي. فانتشى اليهود كثيرا بهذه العملية، معتبرين أنفسهم اشجع من المسلمين لكونهم دافعوا عن ملاحهم أحسن مما دافع المسلمون عن مدينتهم. وأخيرا افتدوا انفسهم بموجب امر من ابي حسون في مقابل خمسة وعشرين مثقالا. واقتدى بهم المسيحيون، فقدموا هدية الى صالح رايس، كلفتهم أربعة آلاف مثقال، وألفا لاستمالة بعض الحكام الاسلاميين الذين ساعدوهم على تحقيق مشروعهم. وهكذا فإن هؤلاء وأولئك أمنوا أنفسهم من الاتراك.

الفصل 101
دفع أبي حسون أربعمائة ألف مثقال
وعودة الأتراك الى الجزائر

بعد أن طرد أبو حسون ملكَ بادس عدوَّه لم يعد يفكر إلا في التخلص من الأتراك، لأنه لم يكن مطلق السيادة في إماراته عندما كانوا فيها. وحتى يفارقهم بمعروف، جبى من أهل فاس أربعمائة الف مثقال أعطاها صالح رايس الذي تأهب فورا للعودة الى ولايته. ولما كان الاتراك متعجرفين فقد ذهب منهم نحو عشرين الى فاس البالي، ففعلوا وقالوا ما لا يليق من الفعل والقول، واشتبكوا مع السكان في عراك، فقتل منهم عشرة وفر الباقون.

ولما علم صالح رايس بهذه الفتنة غضب لها غضبا شديدا، وأعلن نفير الهجوم، وصفف جنده للقتال، مصمما على الانتقام من اهل فاس الذين أعلنوا النفير بدورهم، وتسلحوا، فجمعوا في وقت وجيز أكثر من خمسين ألف مغربي، اعتبروا أنفسهم كأنهم المدافعون عن الجمهورية (كذا) وهذا اطلق عليهم لتب الشجعان (218) فخرج أبو حسون مسرعا مع بعض الفرسان، وذهب ليتحدث مع صالح رايس الذي كان بين المدينتين مستعدا للقتال، مبينا له خطأ الاتراك، والحالة التي كان عليها اهل فاس، طالبا منه الصفح عنهم، فانسحب وذهب غيظه سدى.

شرعت آنذاك أنا وهيبروسم دياز، وفرانسوا رودريگيز، في التفاوض حول وسيلة افتداء جميع الاسرى التابعين لسمو الملك جدكم دم يوحنا، فكان منهم ثلاثمائة ممن خلفهم الشريف، افتدوا بمائة ريال لكل واحد. وذهب فرانسوا رودريگيز مع أسيرين آخرين، يطلبون من صالح رايس أن يسلم

---

218) الغندورين (هامش)

اليهم جواز مرور الى إسبانيا لجلب المال، فلبى رغبتهم. وهكذا أطلق سراح الاسرى بعد بضعة أيام لان الفدية لم تصل في وقت مبكر. كما افتديت بنفس القيمة الاربعمائة أسير الباقين، شريطة أن أذهب الى قشتالة لجمع التبرعات، فسمح لي بذلك بجواز مرور ذهابا وإيابا.

رجعت الى مدينة الوليد (ڤايادوليد) حيث وجدت الملك دم فيليپ، فأطلعته على ما فعلته بالنسبة اللاسرى، فأخذ في الحين على عاتقه أن يزودني بالمال، لكنني لم أتوصل إلا بأربعة آلاف ريال، بدلا من الاربعين ألفا الواجب أداؤها. ولما رأيت أنني لا أستطيع الوفاء بما تعهدت به لصالح رايس، طلبت من جلالة الملك أن يعطي المال الى راهب كان سيذهب الى الجزائر، ويامره إضافة الى الاربعة آلاف ريال بافتداء اثنتي عشرة ومائة امرأة وطفلا من الذين تفاوضت في شأنهم. وقد ترك صالح رايس أبا حسون مطمئنا بملك فاس وعاد الى الجزائر حيث استقبل بأبهة عظيمة وفرحة لاتوصف، لانه استطاع بحفنة من الرجال أن يحقق نصرا مبينا كان أكثرهم يظنونه مستحيلا. وبعد ان استراح بضعة أيام، ارسلِ الى السلطان الاعظم المال، والخيل، والاسرى فسر بذلك سرورا عظيما.

الفصل 102
ضم أبي حسون إماراته الى فاس الجديد
بعد ذهاب الأتراك

لما رأي أبو حسون نفسه سيدا مطلقا في ممالكه، أدرك جيدا ان الشريف سينتقم منه متى استطاع. ولاتقاء ذلك وتدبير الشؤون المتعلقة بالصالح العام أمر باستدعاء حكام ولاياته لجمع حضره جميع عمال مملكتي فاس وبادس وأعيانهما، فبايعوه واعترفوا به كملك لهم. وأول شيء فعله، هو ارجاع العمال والقواد الذين كان الشريف قد عزلهم، وتزويد مناصب الحرب التي كانت شاغرة مسندا اياها الى الذين اعانوه على استرجاع البلاد. كما

أعلن أيضا أن يأتي اليه جميع الذين أصيبوا من طرف الشريف في أموالهم ليأخذ لهم حقهم. بالاضافة الى أنه عدَّ وميز الاسلاميين وأتراك الجزائر الذين استقروا (بفاس) فخصص لهم الرواتب المعهودة، ومنحهم ربعا جديدا، وجعلهم في سرايا حرسه. وامر كذلك بالبحث عن الاسرى الذين اختبؤوا حتى لايذهبوا مع الاتراك، فوجد منهم أكثر من مائة استخدمهم في صنع الأسلحة ومسحوق البارود مرتِّبا لهم أجورا حسنة.

وبعد ذلك أمر بجباية الخراج الواجب له، حتى يؤدي رواتب جيدة للمحاربين كالعادة في كل أربعة أشهر. ثم صرف العمال وغيرهم الذين كانوا في الولايات، فعادوا اليها وهم جد مسرورين به. وأمرهم ان يكونوا على أهبة إذا استدعاهم، لانه أُخبر من طرف عيونه أن الشريف يستنفر المحاربين. وبعد أن نظم كل شيء، وأقام سكنه وسكن أولاده بفاس الجديد، أخذ يعطي كل ذي حق حقَّه، ورأى في ذلك الوقت أن يتحالف مع اخي الشريف وأولاده الذين كانوا بتفيلالت، ظانا أن هذا التحالف سيزعج الشريف ويؤمن إماراته. ومن أجل ذلك أرسل سفراءه الى أخي "الجبار"، فأبرمت معاهدة سلم، تقرر بموجبها أن يعبأ جيش لمحاربة الشريف. كما تم الاتفاق على أنه إذا ما أخذت امبراطوريته فستبقى ممالك مراكش وترودانت ودرعة لمولاي أحمد وأبنائه، وتكون لأبي حسون مملكتا تافيلالت وتادلا، إضافة الى الاقاليم التي يملكها. وأقسم الطرفان على القرآن أن يحترما بدقة جميع شروط المعاهدة.

كان الشريف، في هذه الأثناء، يقوم باستعدادات كبرى لاسترجاع ما فقده. ولما أخبره عيونه بأن الأتراك غادروا فاسا، استحضر جنوده إلى مراكش، فحشد في ظرف أيام قلائل أكثر من ثلاثين ألف فارس، وعددا من المشاة. وبينما هو يستعد للزحف ضد أبي حسون، علم بتحالفه مع أخيه وأبنائه والشروط التي أبرموها في المعاهدة، فشق ذلك عليه وجمع مجلسه وأطلعهم عل ما حدث فقال بعضهم إنه لابد من تفريق الجنود والبحث عن الاعداء قبل ضمهم جميعا، ورأى آخرون خلاف ذلك. وتقرر في النهاية أن ينطلق الشريف بنصف الجند الى تفيلالت لمحاربة أخيه، ويتوجه ابنه عبد الله الى فاس لمحاربة أبي حسون، تاركا مولاي عبد المومن خليفة بمراكش. فسارا، والجيش مقسم هكذا، في أواخر شهر يونيو من سنة أربع وخمسين وخمسمائة والف،

وقصدهما إما الموت أو استرجاع فاس والولايات الأخرى التي اغتصبها منهم الأتراك. كان معهم جنود مسيحيون ممتازون ومدفعية جيدة، مع عدد من آليات القتال، وكمية وافرة من الذخيرة الحربية، وكانت جميع هذه الاشياء ضرورية للشريف حتى يقوم بعمليته التي يتوقف عليها مصيره ومصير أبنائه: ذلك لانه كان ينافسه أميران، ولو أنهما لم يكونا قويين مثله من حيث الرجال والمال، فإنهما استمالا مع ذلك عطف الشعب، ذلك العطف الذي يجب على الملوك أن يحسبوا له حسابا كبيرا.

الفصل 103

هزم أبي حسون لمولاي عبد الله واستيلاء الشريف على تافيلالت

كان ملك فاس يتسقط الأخبار ليعرف ما سيفعله الشريف، لذلك فإنه عندما علم أنه يتأهب للحرب، أعد هو جنوده، واكتشف بكياسة خطة أعدائه وبلغها لملك تافلالت. ثم جمع مجلسه وقرر الذهاب لملاقاة الشريف. أخذ يزحف نحو مراكش في أكثر من خمسة عشر ألف فارس، وجميع من وجده بفاس من الاسلاميين والأتراك. كما أنه سلح العبيد، وحتى يقاتلوا بشجاعة أكثر، وعد الذين سينجون من المعركة بتحريرهم، ولم يبال أصلا بآية القرآن التي تحرم فك رقاب الاسرى بدون فدية (219) وعندما وصل الى سهل حلحونك (كذ) أخبر بأن مولاي عبد الله قريب من هناك. ولما كان ذلك المكان سهلا فسيحا مناسبا جدا للقتال، فإنه أقام محلته في أوفق مكان ممكن فيه، وحصنه بخنادق جيدة، منتظرا أعداءه الذين أقاموا محلتهم في مقابل معسكره، ومكثوا يومين دون ان يفعلوا شيئا.

---

219) انظر الهامش السابق 216

وبعد ذلك زحف الشريف بجيشه في اتجاه تافيلالت، وضرب خيامه قرب المدينة، في مكان لايستطيع المحاصرون إزعاجه كثيرا. ولما علم الاخ وأباؤه بقدوم الشريف، وكانوا قد كتبوا الى أبى حسون أن يحرص على الانتصار على مولاي عبد الله ثم يلتحق بهم، لأنهم نظموا أمورهم على أحسن حال، حتى إنهم سيقاومون باستماتة الاخ والعم. وفعلا فإن مولاي زيدان وإخوته الآخرين الذين كانوا بتافيلالت مع أبيهم، أخذوا يخرجون من حين لآخر لمناوشة الاعداء، فيقاتلونهم بشدة. ومن جهة أخرى، كان الشريف لايفكر الا في تحصين محلته ومنع دخول أي شيء الى المدينة. ومن أجل هذا أعطى بوديبرة ثلاثة آلاف رجل ونفس العدد الى منصور، لشن غارات على الابواب وصد أصحاب المدينة، لان المحاصرين كثيرا ما كانوا يضرون بهم، وخاصة طوال يوم خروجوا فيه وهاجموا بعنف جنود الشريف حتى ساقوهم ضربا الى خيامهم. ولما رأى الشريف ذلك وما يسببه من خسارة كل يوم، قرر أن يحضر القتال بنفسه، واقترب اكثر من المدينة فقصف سورها. وسأتركه هنا لاذكر ما فعله ابنه ضد أبي حسون.

بعد أن عسكر القائدان المذكوران بمرأى كل واحد منهما، استعدا للقتال. كان لأبي حسون تجربة أكثر بكثير من الآخر، لأنه شارك عندما كان بألمانيا في جميع الحروب التي شنها شارلكان ضد اللوثريين. فلما استشار أبناءه ومجلسه قرر تهييء جنده ليهاجموا أعداءه ليلا. ولهذا الغرض صف جنوده للقتال قبل طلوع الفجر في ثلاث كتائب : أسند اثنتين الى ابنيه، واحتفظ لنفسه بالثالثة التي كانت مؤلفة من الاسرى المسيحيين والاسلاميين والاتراك. وبعد ان حثهم على القتال كجنود شجعان زحف ببطء، وحمل على معسكر أعدائه عند بزوغ النهار، ففاجأهم وانقض عليهم من جميع الجهات، بحيث إنه كان يحارب بامتياز كبير، ولم يستطع عبد الله ولا قواده أن يرتبوا صفوف جنودهم للقتال. وعندما لاحظ أبو حسون ذلك الاضطراب، تجاوزهم بكتيبته المؤلفة من المسيحيين الذين كانوا يحاربون بشجاعة كبيرة على أمل التحرر من الأسر، حتى إنهم تسببوا له جزئيا في إحراز النصر. وقد دام القتال ومطاردة الاعداء ما يزيد على ست ساعات. ففر عبد الله في خمسة وعشرين فارسا ملتجئا الى تادلا، واقتفى أثره أبو حسون لكنه رأى أنه لايستطيع إدراكه، فعاد إلى محلة الاعداء، حيث وجد جنده مشغولين

بالنهب، وقسم الغنيمة بعد ذلك على جنوده، وأعطى أفضل قسم منها للاسرى والاسلاميين والأتراك، غير تارك لنفسه سوى فرس مولاي عبد الله وخبائه. ثم كتب إلى الشريف (الاكبر) بأنه هزم عبد الله، وانه سيلتحق به في أقرب وقت ممكن.

لم يكن البريد الذي حمل هذا الخبر بأسرع من الذي بعث به عبد الله الى أبيه يخبره بهزيمته ليتخذ الترتيبات اللازمة. وقد استلم الشريف رسالة ابنه دون أن يبدي غضبا، بل أعلن العكس بأن عبد الله قد غلب أبا حسون، وكلف في ذات الوقت بعض خدامه ممن يثق بهم أكثر بأن يتربصوا في الطرق ويعملوا على أخذ البريد الذي يحمل الأخبار إلى المحاصرين. فأدى هؤلاء واجبهم على أحسن وجه، حتى إنهم أمسكوا بصاحب البريد حامل الرسائل التي كتبها أبو حسون، فساقوه الى الشريف الذي أمر بقتله بعد ان أخذ منه الطرود. ولجأ في الحين الى حيلة أنجته شيئا ما من الموت، ومكنته من استرجاع ولاياته : وهي أنه زور رسائل عن أبي حسون يخبر فيها المحاصرين بأن عبد الله هزمه، وان عليهم أن يفكروا في الخروج بتفاوض ملائم، وسلم الطرد إلى أحد خدامه الذي أدى واجبه بأمانة : تنكر هذا الخادم فورا، وحضر قبل طلوع الفجر الى أبواب تافيلالت. وهناك نادى الحارس طالبا منه أن يعلم الملك بأنه مبعوث من قبل أبي حسون، ففتحوا له الباب وسيق أمام الامير، فسلم اليه الرسائل التي كانت معه، بعد أن أظهر كثيرا من الحسرة و الأسى. قرأها الملك واستدعى أبناءه وأعيان البلد. وأطلعهم عليها. فصدقوا هذا النبأ لما شاهدوه من مسرات في محلة الشريف. وفي هذه الاثناء أقبل مغربي حاملا راية بيضاء ودنا من باب المدينة، وأرسل الى الملك يخبره بأنه مبعوث من لدن أخيه الشريف. أدخل على الفور وقدم الى الملك رسالة يقول فيها بأن ابنه عبد الله انتصر على أبي حسون بفضل الله ورسوله مناشداً أخاه ألاّ يحدث في المستقبل أي خلاف بينهما، وان يعيشا كأخوين حقيقين. ويعده بانه سيعطيه مراكش عقب التحاقه بفاس وبادس، وأن عليه أن يقرر في هذا الشأن بسرعة. وبعد أن اطّلع الاخ على كتاب أخيه الشريف، استشار في الامر وظن أن ذلك صحيح، فعقد الصلح مع الشريف وملّكه تافيلالت، فأمر في الحين بأن تدخل اليها حامية مؤلفة من أربعة

آلاف رجل، وبعد قليل حضر الشريف الاكبر مع ابنيه الى المحلة، فانكشفت الحيلة، وعظم عليهم الخطب. الا أنهم أخفوا ذلك لانعدام وجود حل له حينئذ.

وبالجمعة فإن اقليم تافيلالت لاينتج القمح بتاتا، لكنه كثير التمر والخيل التي تتغذى بهذه الانواع من التمور بدلا من الشعير. وهناك تجنى النيلة التي تصنع منها الصبغة الزرقاء الخالصة. والبلاد وعرة مليئة بالجبال.

الفصل 104
زحف الشريف ضد أبي حسون وهزمه وقتله

عندما توصل الشريف برسائل أبي حسون وابنه عبد الله، كتب الى هذا الاخير أن يجمع ما بقي من الجيش ويواجه العدو، الى أن ياتي هو أو أخوه لنجدته. فنفذ عبد الله حينا أوامر أبيه، وأرسل بعض القواد لالتقاط الذين فروا من المعركة والاتيان بهم الى حيث يوجد. لكن، بعد أن ضم بعضهم الى الجنود الذين كان أخوه قد بعث بهم اليه من مراكش، قرر الذهاب ليرى ما يفعله أبو حسون الذي كان منهمكا في جباية الخراج، وهو ينتظر جواب الشريف الاكبر ملك تافيلالت، لانه لم يكن يظن أن حامل بريده قد قبض، ويعتقد أن خبر هزيمة عبد الله قد حمل اليه. كان الشريف الأصغر أثناء ذلك، بعد أن استحوذ بحذق على تافيلالت، يراود أخاه كثيرا، فأرسله الى مراكش، وأقام حرسا قويا في المدينة التي فاجأها. ثم توجه نحو فاس بجيشه، وابني أخيه (220) لينضم الى ابنه عبد الله. عازما على الذهاب لمواجهة عدوه الذي كان قد علم بما جرى. لقد تألم الشريف جدا من ذلك،

(220) زيدان وناصر (هامش)

لكنه كظم غيظه وعزز جنده وزحف بقصد القتال، إذ لم يستطع تفاديه، لكنه تخلص من ابني أخيه قبل الشروع في المعركة. فأمر ذات ليلة حين اقترب من تادلا، أن يحضروا هذين الاميرين الشابين الى رواقه، بدعوى استشارتها حول ما يجب اتخاذه من تدبير لشن الهجوم على العدو، فأمر بقطع رأسيهما بمحضره. وبعد ذلك، قام باستعراض جنوده، فوجد ان له نحو أربعة وعشرين ألف رجل، سار بهم الى ان عسكر بمرأى من عدوه الذي كان قد تقدم، وكله أمل في أن يحرز على انتصار ثان. وبينما هم يتحصنون في كلا الجانبين، كانت تدور بعض المناوشات الخفيفة. ثم قام الشريف وأبو حسون بصف جنودهما للمعركة (221). كون أبو حسون أربع كتائب من جنوده، ترأس ابنه مولاي ناصر الاولى، وابنه الاخر مولاي مكود الثانية، وأمير دبدو الثالثة، وترأس هو الرابعة. فأوصاهم بالقيام بواجبهم، وذكرهم بما اكتسبوه من شرف، وبطغيان الشريف وما ارتكبه من تعسفات في حق ملوك فاس، وانه سيقوم باخرى في حقهم إن هو أحرز على النصر. وكون الشريف من جهته ثلاث كتائب من جنوده، الاولى بقيادة عبد الله، والثانية بقيادة علي بن أبي بكر واحتفظ هو بالثالثة. وجمع أكابر رؤساء الجيش، طالبا منهم أن يعيدوا الى ذاكرتهم كم مرة غلبوا العدو، وأن الذين سيحاربونهم جبناء قليلو التجربة، وسوف لايخشون اي شيء في هذا اللقاء بشرط أن يحاربوا بشجاعة. وأضاف بأنهم مضطرون الى أن يبلوا البلاء الحسن، لأن الامر يتعلق بحياتهم وحريتهم وأموالهم. وأعطى الاشارة على الفور فبدأت المعركة شديدة قوية حامية. ذلك ان الذين استخبرتهم ممن شاركوا في الاشتباك، اكدوا لي أنها كانت من أعنف المعارك الدامية التي خاضها الشرفاء، إذ كانت حياتهم وولاياتهم التي امتلكوها بهذا القدر من العناء رهينة بها.

ويظن أن الشريف كان سيخسر ايضا هذه المعركة لولا أنه قضى على حياة ابي حسون بالحيلة، لأنه كان يواجه هذا العدو وابنيه الذين أبدوا حقا غاية الشجاعة والاقدام. وقد جرت الحادثة كما يلي :

---

221) سنة 1554 . (هامش)

أمر الشريف أحد خدامه ممن يثق بهم اكثر، وهو لا يفتأ يخشى أبا حسون، أن يتظاهر بأنه غير راض بالشريف، ويتسلل نحو عدوه، ويقتله عندما يحمى وطيس المعركة، ووعده بمكافآت كبيرة تحمله على القيام بالمهمة المنوطة به. التحق الخادم فورا بأبي حسون، وشتم الشريف كثيرا أمامه. وعندما اشتدت المعركة يوم القتال، وقد بدت ملامح الفوز تلوح لصالح ابي حسون، الذي كان يركض خلال الصفوف مشجعا الجنود، أصابه الخائن بطعنة رمح مات منها، ثم تسلل لحينه نحو الشريف، الذي حمل علي اعدائه عند إعلان هذا الخبر بسرعة وقوة. فكسر أولا أهل فاس، وقد فت في عضدهم موت ملكهم، دون ان يستطيع ابن أبي حسون ولا أمير دبدو جمع شتاتهم. وفي هذه الأثناء، ولكي يفشل الشريف أعداءه أمر بأن يرفع رأس أبي حسون على رأس حربة ويطاف به عبر المعسكر كله، داعيا اياه كافرا لانه استعان بالمسيحيين. وهكذا حصل الشريف على النصر بموت القائد العام، وأعلن بعد ذلك لأهل فاس أنه يصفح عما فعلوه من قبل، ويسمح لهم بالاتيان اليه. قدم عليه في الحين الأعيان الذين كانوا في المحلة، وقبلوا يديه وبايعوه ملكا عليهم. وإذ ذاك سار ولدا أبي حسون في طريق مكناس، والتحقا من هناك بالعرائش وأبحرا منها الى إسبانيا على متن سفينة لتجار مسيحيين أديا لهم مالا مقابل ذلك. لكنهما سقطا بين أيدي اللوثريين، وهما في البحر، فقتلوهما. وهكذا انقرض عقب المرينيين بكيفية مؤلمة.

الفصل 105

توجه الشريف الى فاس، واستقباله فيها كملك

بعد أن انتصر الشريف، امر باحضار متاع أبي حسون، ومنع مس اموال الاخرين. ثم طوى الخيام وأخذ طريق فاس حتى لاتفوته الفرصة في استرجاع ولاياته، وكان خبر ما جرى قد بلغ الى المدينة فوصل الى فاس بعد بضعة ايام، واستقبل فيها بحفاوة بالغة، واعترف به كملك من لدن أعيان المدينتين الذين قدموا له هدايا نفيسة لتهدئة غضبه. ثم جمع في المشور

وكلاء المدينتين وعددا من العمال وقال لهم: إن له الحق في معاقبتهم لخيانتهم إياه ومساعدتهم ملك بادس والأتراك، لكن عليهم، حيث إنه عفا عنهم، ان يجبروا المال في المملكة بقدر ما يساوي الذخيرة التي سلبه الأتراك إياها، لأنهم كانوا السبب في الضرر الذي ألحقه به أعداؤه. وزاد قائلا : إنهم إذا أرضوه في ذلك، فسيرعى أمورهم مثل أموره الشخصية. كلف الحاضرون أحد أئمة المسجد بالرد عليه باسمهم جميعا فقال للشريف : إنهم مدينون له جدا بما أبدى لهم من حسن الارادة، وبحرصه على ان يسود السلم والعدالة في امبراطوريته، لكنهم يناشدونه بكل خضوع أن يعتبر بأن الآخرين أفقروهم الى أقصى حد، وأنه يكاد يستحيل عليهم أن يلبوا رغبته فيما طلبه منهم، لذلك يلتمسون منه الرحمة والشفقة وألا يفرض عليهم عند الاقتضاء ما هم مطالبون به نحوه. رد عليهم الشريف بأنه يجب عليهم أن لاياملوا تنازله، وأنهم ان لم يمتثلوا طوعا فسيحملهم على ذلك كرها. ففرضوا جبايات على المملكة كلها، وأعطوا الشريف ثلاثة ملايين ذهبا وفضة ومجوهرات. ثم عاد أهل فاس بعد ذلك الى بيوتهم، وتخلصوا من الخوف المستمر من "الجبار" الذي لا شغل له سوى اضطهادهم. ذلك أنه أمر ذات يوم الشرطة بإحضار الأشخاص الذين سلم اليهم بيان حساب. وما كادوا يصلون حتى أمر بقطع رؤرسهم ومصادرة أموالهم. وقتل بهذه المكيدة القاسية أكثر من مائتي رجل من أكابر الاغنياء ليستحوذ على كل ما يملكون. ونظرا لكون هذا التعسف قد تسبب له في كراهية السكان، قرر أن يتخذ بلاطه في مراكش وأن يكل حكم ولاياته (الاخرى) الى خلفاء. وعقب هذا القرار ترك ابنه عبد الله خليفة له بفاس، وسار في طريق مكناس. فخصص له هناك استقبال حسن، وأقام عاملا بالمدينة حفيده مولاي محمدا، ثم سار في طريق مراكش، حاملا كل الاموال التي أخذها من فاس، وفاقت كثيرا ما فقده سابقا. خرج لاستقباله ابنه عبد المومن مع جميع سكان المدينة والاقليم، فأبدى كل واحد للآخر فرحا كبيرا، ودخل الشريف عقب ذلك الى المدينة فأخذ قسطا من الراحة، مفكرا في الوسائل التي سيخضع بها بربر جبل الأطلس وكان سخطه عليهم قد ازداد كثيرا.

ومن جهة أخرى، فإن الاخ الاكبر حين علم وهو بمراكش بقطع رأس

ولديه. استستلم للحزن، ووجه الى الشريف توبيخا عنيفا على فظاظته. لكنه اعتذر له بكونهما أرادا قتله، وطلب منه ألاّ يغضب أكثر لشيء لا يمكن تداركه أصلا. كما أقسم له بالصداقة واعداً إياه أنه سيمنحه كل إقطاعية أرادها بعد أن يتم إخضاع البربر. فتأسى الاخ الاكبر -ان صح التعبير- بهذا التعويض الطفيف، وتمسك بالصبر إذ لم يكن باستطاعته إبداء غيظه لأخيه المسيطر.

الفصل 106

خروج الشريف من مراكش لمحاربة بربر جبل الأطلس وموته

بعد ان قضى الشريف أياما في الراحة بمراكش، وهو مسرور كثيرا بكونه أصبح المالك الهادئ في ممالكه بعد أن قتل عدوه الرئيسي أبا حسون، قرر (222) أن يحشد ثمانية آلاف فارس وألفين من رماة البنادق كانوا عنده من إسلاميين وأتراك، وانطلق من مراكش مصمما على الا يعود إليها ما لم يخضع البربر الثائرين. ترك ابنه مولاي عبد المومن عاملا على المدينة، وعلي بن أبي بكر خليفة له، وأوصاهما بشؤون المملكة وحراسة أخيه، ثم سار في في طريق جبل الأطلس. ولما وصل الى مكان يدعى ݣير (223) عند قدم هذا الجبل، على بعد سبعة فراسخ من مراكش، أقام محلته، وهناك لقي حتفه. وإليكم فيما يلي كيف جرى ذلك.

كان حاكم الجزائر آنذاك أحد أبناء بربروس، خلفا لصالح رايس. ويقال ان سليمان لما بعث به حاكما الى الجزائر كلفه بالفتك بالشريف إذا سنحت له الفرصة. ذلك لأن السلطان الاعظم كان حانقا عليه لامتناعه من تنفيذ أوامره

---

222) سنة 1556 (هامش)

223) تسمي المصادر العربية المكان أݣلاݣل وهو معروف.

عندما طلب منه إطلاق سراح ملك فاس. وكان إذ ذاك بالجزائر تركي يدعى حسن (224)، وهو رجل شاطر جريء، علم بأن الباشا يرغب في تنفيذ أوامر سليمان، فقصد العامل وقال له إذا رغب في أن يقتل الشريف فما عليه الا أن يأمره بذلك، لان له الشجاعة الكافية للقيام بهذه المهمة. فوعده الباشا بجوائز عظيمة إذا نجح في عمله. وأجابه حسن بأنه يأمل أن يتوفق في مشروعه بعون الله ورسوله، شريطة ان يزوده بالمال اللازم لرحلته، وعشرين تركيا. أعطاه الباشا كل ما طلب، فانطلق وهو يشيع بأنه غير راض عن حاكم الجزائر، وذاهب لخدمة الشريف. وهكذا وصل الى فاس حيث يقيم مولاي عبد الله، فقبل يديه هو وقومه وأعربوا له عن رغبتهم في خدمة والده. قابلهم عبد الله بالجميل وأمر بإعطائهم كل ما يلزم لنفقتهم، وكتب إلى أبيه موصيا بحسن خيرا. ثم توجهوا الى مراكش. فرح بهم الشريف، وعين حسن باشارة من عبد الله قائدا لبعض الاتراك من حرسه. ولما حدث ذلك في الوقت الذي كان فيه الشريف يستعد للزحف على البربر، فإنه أخذ معه حسن. ولما تقلد هذا الاخير مهام قائد، استمال اليه الاتراك، وأدرك أنهم غاضبون جدا على الشريف، إذ لم يتوصلوا بعد بمرتباتهم منذ أمد طويل. عند ذاك أراد ان يغتنم تلك الفرصة لتنفيذ مشروعه، وأطلع بعضهم عليه مبينا لهم الخدمة التي سيقدمونها للسلطان الاعظم، والمكافأة والشرف الذين سيحصلون عليهما من جراء ذلك. وأضاف أن لاخوف عليهم في أي شيء، لأنه اتخذ ما يلزم من الاحتياطات لأَمنهم، سواء في البر أو في البحر، وتمكن في الأخير من إقناعهم.

وفي يوم من الأيام، بينما كان الشريف بباب خيمته، وهو يفكر في وسائل الدخول الى الجبل، أمر ذلك التركي جميع أصحابه بامتطاء الخيول بدعوى القيام بالاستعراض. وبينما كان الشريف ينظر اليهم بارتياح، نزل حسن صحبة أربعة آخرين ودنا منه. وبعد أن انحنى أمامه طويلا وضع يده على سيف معقوف ليقتله (225) . لم يكن آنذاك حاضرا بجانب الشريف سوى

---

224) المعروف في المصادر العربية أنه يدعى صالح الكاهية. انظر م. الافراني، نزهة، ص 40.

225) المعروف في المصادر العربية أنه دخل عليه خباءه وهو نائم

بوخيمة وإسلامي صاح بالشريف أن يحترز، وقد أدرك مقصود التركي، وأن هناك خيانة. نهض الشريف لحينه ودار ليختبئ في خيمته، لكنه صادف حبلا فتعثر به. عند ذلك انقض عليه حسن فقطع عرقوبه، وأجهز عليه الآخرون. أسرع المتآمرون الباقون في نفس الوقت، وفر بوخيمة، ولم يثبت الا الاسلامي الذي قتل وهو يدافع عن أميره (226) تسلح إذ ذاك جميع الأتراك، ونهب حسن أخبية الشريف التي وجد فيها كمية وافرة من المال والمجوهرات، وأعلن أنه قتل "الجبار" بأمر من السلطان الأعظم. وهكذا ودون أن يجرؤ أحد على مقاومة المتآمرين نهبوا جميع الأخبية، ودفع حسن الى الأتراك والاسلاميين وسائر الذين أرادوا أن يتبعوه الرواتب التي كان على الشريف أن يؤديها لهم. لكن هذا الاغتيال لم يلبث ان أفقده الحياة هو وأصحابه.

ومهما يكن من أمر فإن "الجبار" أدى بهذه الكيفية ما استحق من الجزاء عما ارتكبه من تعسفات. وأغرب من هذا كله أن ذلك حدث في وقت كان فيه الشريف أكثر ارتياحا واطمئنانا على ماله. وكان عمره يوم قتل ستا وثمانين سنة (227) . وأتمنى أن يلقى من يخلفه نفس المصير، إذ قليلا ما يموت الجبابرة حتف أنفهم، وإنما يقضي عليهم جميعا الحديد أو السم. وهكذا سيصبح كل هذا المتسع من الارض تحت سلطة سموكم، فيجب انتظار كل شيء من همتكم، ومن نعمة الله الذي سيغمركم ببركاته (228) .

---

226) تذكر المصادر العربية أنه مات معه القاضي

227) بل كان عمره نيفا وسبعين.

228) لايستحي المؤلف أن يكشف خبيئة نفسه وحقيقة مهمته في المغرب. ولا أدري كيف يبرر، وهو المتظاهر بالتدين والتودد والاحسان، التشفي في اغتيال شخص طالما أحسن إليه، وتمني مثل هذا المصير المؤلم لجميع من يخلفه، بل واستيلاب شعب كامل لتصبح ارضه تحت سلطة "سمو مخدومه" !

الفصل 107

دولة الشريف، وزوجاته، وموارده

دامت دولة الشريف سبعا وثلاثين سنة. كان له وجه مستدير أبيض، وعيناه كبيرتان حادتان، ولحية طويلة شهباء، وشعر مجعد، وثنيتا فكه الاعلى كبيرتان جدا. ومن جهة أخرى كان قصير القامة قويا مقداما شجاعا. له أربع زوجات : ولدت له الاولى ثلاثة ذكور وأنثى، هم مولاي محمد الحران، ومولاي عبد القادر، ومولاي عبد الله الذي خلفه. كانت ابنته تسمى للا مريم، وتزوجت من ابن أخيه زيدان. وولدت له الثانية ابنين وابنتين، هم مولاي عبد المومن، ومولاي ملوك، وللا حيا (كذا) وللا فاطمة. وكانت زوجته الثالثة هي مانسيا (البرتغالية) لم تخلف ولدا، والرابعة هي للالو ابنة المريني، لم تخلف أولادا كذلك، لكن كان له ثلاثة أولاد من أمة، هم مولاي عبد الرحمان (229) ، ومولاي عثمان، ومولاي أحمد (230) بحيث كان له أحد عشر ولدا ذكورا وإناثا، وابن اخ يدعى باحميد، كان فارسا صنديدا وصديقا حميما للمسيحيين، ولي بكيفية خاصة. كان يأكل ويشرب ويلهو معهم، وتكرم علي مرة بأسيرين، الشيء الذي تسبب له في خلاف مع عمه. وقد فقد احدى عينيه بطعنة رمح تلقاها في معركة ضد ملك فاس.

---

229) في المصادر العربية : عمر لا عبد الرحمن

230) حرف هذا الاسم الاخير في النص الفرنسي فكتب "محمد" ومازعمه المؤلف من كون أم أحمد أمة غير صحيح. بل أمه حرة، وهي مسعودة بنت الشيخ أحمد بن عبد الله الوزكيتي، مؤسسة جامع باب دكالة بمراكش، وصاحبة الاوقاف الكثيرة عليه. والرسوم الوقفية لهذه المرأة الحرة الصالحة في غير ما كتاب من مدونات التاريخ. انظر م. نزهة الحادي، ص 72 .

كانت موارد الشريف هامة عظيمة، وسأقتصر على ذكر ما كان يدفعه له رعاياه والاجانب. كان يؤدى له على كل رأس ذكر أو أنثى بلغ اثنتي عشرة سنة من العمر فصاعدا مثقال وربع، ومثل ذلك عن كل كانون، وصاع من القمح عن كل فدان من الارض. كما كانت تؤدى له أعشار (زكوات) الماشية والارض التي تفلح، ونصف ريال عن كل مكيال قمح يطحن في طاحونة، بالاضافة الى أنه كان يفرض إتاوات هامة على الشعب في شكل ضرائب عادية واستثنائية : لكن عند الاداء يأمر بإسقاط جزء منها.

وكانت له ايضا إتاوات يؤديها المسيحيون الذين يتجرون في أراضيه، كانت تساوي كل سنة ما يزيد عن أربعمائة الف مثقال. وكان له في كل مكان جمارك، تدفع فيها واجبات البضائع التي تصدر من البلاد. أضف الى هذا سكر مملكة تارودانت، ومناجم الفضة وغيرها من المعادن، مما كان يوفر له ثروات طائلة. وباختصار كان هذا الشريف سيدا مطلقا في كل ما يملكه رعاياه، إذ لم يكن باستطاعة أحد ان يعتبر نفسه مالكاً لاي شيء، سواء كان مالا أو ريعا. وكان ينهب منازل عماله عند وفاتهم. وبهذا الصدد، سأقص ما فعله بعض عماله بأحد ملوك مراكش. ذلك ان عاملا عندما رأى ان الملك يستصفي أموالهم لدى وفاتهم، عزم على خداعه بشكل مضحك. ولهذا الغرض أخذ يتناول أطايب الطعام، ويبدد في تكتم ما كان يملكه، وحتى لا يشكوا في أي شيء قد يسيء اليه، وضع في قاعة عدة صناديق كبيرة، كان يحمل اليها دون ان يفطن به أحد عظام الطيور والاشياء التي كان يأكلها. فكان الناس جميعا يظنون بأنها مليئة بما يدخره من أموال، وأوعز أعداؤه الى الشريف بانتزاعها منه، لكن بدون جدوى، لانه كان يعتقد انه شيء لا يمكن ان يفوته في يوم من الايام. وفي هذا الاثناء، مات ذلك العامل، فأسرعت العدالة الي منزله لاستصفاء ماله، لكن عندما فتحوا الصناديق وجودها مليئة بالعظام وسقط في يد الملك الذي خدع بمهارة.

إن سكان البلاد التي ينتمي اليها ذلك العامل كسلاء، يخشون مغادرة منطقتهم الى حد أنهم لا يتجرون مع اي حد من جيرانهم. ولا شك أنهم سيفلسون إن حرموا الاتجار مع المسيحين، لان تجارتهم مع أهل تنبكتو ليست ذات بال. فتنبكتو إقليم يوجد في أقصى مفازات ليبيا، ولايصلون

اليه الا بمخاطر كبيرة، حتى إنه غالبا ما يبقى الجنود الذاهبون إليه مقبورين تحت الرمال، بسبب الرياح التي تهب في هذه المنطقة. ويتجر الذين ينجون من هذا الخطر مع السكان، لكن دون أن يبصروهم. واليكم ما رواه لي بعض المغاربة الذين ذهبوا الى تلك البلاد :

حدث يوما نزاع بين أهل المنطقة (تنبكتو) وأجانب ممن كانوا يتجرون هناك، فطردوهم. ثم سنوا قانونا يمنعهم بموجبه من العودة. لكنهم حتى لا تتعطل التجارة عندهم بنوا في ذلك العهد جمارك خارج مدينتهم يأوي إليها الاجانب. فيعرضون بضائعهم أمام الأبواب، ثم يدخلون الى المنازل بعد أن يعطوا الاشارة انهم عرضوها . يأتي حينئذ أهل المدينة ليشاهدوا البضائع، وهي عبارة عن ثياب وقماش وقلنسوات ومرجان ولآلئ صغيرة، وملح وهو باهظ الثمن حتى انه يساوي أحيانا وزنه ذهبا. فإذا ما شاهد البضائع من يريدون شراءها وضعوا عليها أو بجانبها كومات صغيرة من تبر الذهب، إذ لا يملك هذا الشعب غيره، ثم عادوا الى حال سبيلهم. عندئذ يخرج التجار، فإذا رضوا بالذهب الممنوح لهم أخذوه، وإلا تركوه وأغلقوا الابواب مرة ثانية على أنفسهم، وأعطوا الاشارة. فيعود الاخرون على الفور، وان أرادوا البضائع أضافوا شيئا من الذهب حتى إذا رضي الاجانب أخذوا الذهب، وأقبل الاخرون وحملوا البضاعة هكذا. ورغم ان طريقة الاتجار هذه تبدو بدائية الا أنها مع ذلك حكيمة جدا إذا اعتبرت بدقة، لانهم مصيبون في عدم الاتصال بالأجانب. وربما لن نكون قد أخطأنا كثيرا إن نحن فعلنا مثل ذلك، فالإتجار مع الأجانب لا ياتينا بأي خير.

الفصل 108
مسيرة الأتراك في طريق رأس اكير والانتقام منهم لمقتل الشريف

بعد أن أنجز التركي حسن ما وَعَد به حاكم الجزائر من قتل

الشريف، جمع أكابر الأتراك الذين ساعدوه في مهمته، وتداول معهم حول ما يلزم القيام به للنجاة، إذ كان مصيرهم الكامل رهين ذلك. فقرروا السير في طريق رأس أكَير (231) وأن ياخذوا كل ما نهبوه. فنفذوا خطتهم على أمل أن يجدوا سفنا في أحد المراسي فيؤدوا للربان كل ما شاء ليعبر بهم إلى اسبانيا أو يحملهم الى الجزائر، إذ لم يكونوا يشكون في أنهم إن توقفوا في البلاد فسيبذل أبناء الشريف كل ما في استطاعتهم ليثأروا لموت أبيهم.

وفي هذه الاثناء أسرع العامل بوخيمة بعد ان فر من المكان الذي قُتل فيه الشريف وأخبر بذلك مولاي عبد المومن حاثا إياه على الانتقام. أفجع هذا النبأ الى حد بعيد أبناء الشريف ونساءه وخدامه، والشعب (عامة)، لأنه رغم كونه جبارا فإنه كان محبوبا تقريبا من الجميع. وعلى إثر ذلك أخبر بوخيمة ان الأتراك لاذوا بالفرار، فذهب في جماعة من المغاربة الى المكان الذي كانت فيه جثة الملك، وأمر بحمله الى مراكش لتقام له الجنازة. ومع ذلك، فإن ما اعترى مولاي عبد المومن من حزن بالغ على موت أبيه لم يمنعه من التفكير فيما يلزم لادراك الاتراك. فجهز ثمانية آلاف فارس، وعهد بأمر المملكة الى على بن أبي بكر، وخاصة حراسة الشريف الكبير وأولاده وأولاد أخيه، وأبلغ عبد الله نبأ موت أبيهما، ثم خرج من مراكش مقتفيا أثر الأعداء. لكن بعد انصرافه توهم علي بن أبي بكر أن الشريف الأكبر قد يستطيع أن يحدث ثورة ما، ويغتنم الفرصة لاسترجاع المدينة والمملكة التي كان عاهلا عليهما، فأمر ذات ليلة بقطع رأسه ورؤوس أبنائه وأبناء أخيه، وعددهم سبعة. كان عمر الشريف يومئذ نيفا وتسعين سنة (232) وقد تسببت هذه الجرأة القاسية في موت علي بن أبي بكر فيما بعد، ولو انه لم يفعل ذلك الا حفاظا على تاج أميره.

---

231) لم تذكر المصادر العربية توجه القتلة الاتراك إلى اگادير، وإنما ذكرت أنهم فروا نحو سجلماسة للالتحاق بتلمسان. وهو الموافق للعقل والمنطق.

232) خطأ كذلك، بل كان عمره يوم قتل 74 سنة، إذ لم يكن يكبر أخاه محمد الشيخ المهدي الا بعامين. وولادته عام 891 حسبما أثبته أحمد ابن القاضي. انظر م. الافراني، نزهة، ص 19 .

وفي أثناء ذلك، وصل الأتراك الذين قتلوا الشريف الى رأس اكير، في وقت أقلعت فيه السفن التي كانت في المرسى وخاضت عباب البحر، لذلك أخذوا طريق تارودانت وهم ينهبون كل ما يجدون في طريقهم. وبمجرد ما وصلوا الى هذه المدينة استولوا عليها، لان ابن الشريف الذي كان فيها لم يجرؤ على انتظارهم، فخرج الى البادية وجمع الأعراب ومحاربي المنطقة وجعل ينتظر أخاه الذي كان سيحضر. وأما حسن، فبمجرد ما دخل الى تارودانت، احتل القصبة ونهبها. وكان إذ ذاك في سجن هذه المدينة مغربي (233) كان من قبل على دين اليهودية، وكان سديد الرأي أطلق حسن سراحه، بعد ان عرف مروؤته وسمعته، وأسند اليه تدبير شؤون العدل والحكم. كان ذلك اليهودي ينصح التركي بأن يتحصن في تارودانت محاولا إقناعه بأنه سيهون عليه الدفاع عنها بجنوده وبالذين سيجمعهم، وأن عليه ان يرسل في طلب النجدة التي ستأتي اليه بالتأكيد من جانب الجزائر، وأن يشغل الاعداء أمام المدينة في انتظار ذلك. لاشك ان حسن كان سيتوفق في أموره لو اتبع هذا الرأي، لكنه ظن ان اليهودي يخدعه، فخرج من تارودانت وسار في طريق نوميديا لكي يلتحق من هناك بتلمسان. أراد اليهودي ان يكسب حظوة عند ابني الشريف، فأخبرهما بانصراف الأتراك وبالطريق التي سلكوها، ونصحهما بأن يجدا في السير إن أرادا ان يثأرا لأبيهما، ويستوليا على ذخائر الاعداء. وقد حشد هو الآخر بعض الجنود واقتفى أثر حسن، وشغله الى أن قدم الاخوان الذان كانا ينتظرانه بدرعة. فانضم اليهما هناك، وهزموا الأتراك الذين قاموا بشجاعة، ولو ان المغاربة تكاثروا عليهم بحيث كان مائة مغربي في مقابل تركي واحد. وهكذا قفل الاخوان راجعين بجنودهما الى تارودانت، بعد ان استرجعا ذخائرهما، وخصص لهما فيها استقبال رائع.

إذا أراد بعض الناس معرفة السبب الذي من أجله لم يجرؤ ابن الشريف الذي كان في تارودانت على انتظار عدد قليل من الاتراك فيها،

---

233) الكاسي موسى (هامش)

فذلك لأنهم صنف من الناس لايطيقون الحصار ويضعفون الى حد بعيد أمام الاحداث غير المنتظرة. وإن ما سأقصه ليؤكد ما قلته أكثر.

ففي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة والف، عندما كنت بتارودانت، احتلت سفينتان من نوع كراقيل ميناء رأس اكَير، وقد جاءتا من ساحل غانا، واقتربتا جدا من المدينة، حتى إنهما أسقطتا أربع شرفات من السور ببضع طلقات مدفع. فعمد العامل، وقد استولى عليه الرعب متوهما ان الناس كلهم ينقضون عليه، وأرسل بريدا الى ابن الحران الذي كان يحكم آنذاك المملكة، يخبره فيها بأنه وصل الى الميناء أسطول للمسيحيين يتألف من أزيد من ثلاثمائة سفينة شراعية. ثم أخبره ببريد آخر بأن أكثر من ثلاثين الف رجل قد نزلوا الى البر، ففزع المغاربة كثيرا حتى إنهم أغلقوا أبواب المدينة في نفس الوقت، وضاعفوا الحرس، وحبسوا الاسرى المسيحيين في الزنزانات، وأمروا التجار المسيحيين الا يخرجوا بتاتا من ديوان جماركهم. كان المغاربة يجوبون الأزقة فزعين، ورأيت كثيرا منهم حملوا أولادهم وأثاثهم خارجين من المدينة بنسائهم متوجهين نحو جبل الأطلس دون ان يعترضهم أحد. ودام هذا الاضطراب الى أن علموا يقينا ان الامر لا يتعلق إلا بسفينتي كراقيل، فاطمأن المغاربة قليلا، وعاد الى المدينة من كان منهم قد طلع الى الجبال.

الفصل 109

توجه الشريف مولاي عبد الله الى مراكش، ومبايعته ملكا عليها

بعد وفاة الشريف، خلفه ابنه مولاي عبد الله، لا مولاي الحران، كما زعم ذلك كاتب حديث في تاريخ عنوانه بحر وبر، لان الحران مات بفاس سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وألف إثر رجوعه من حرب تلمسان (234) . وأما

(234) انظر الفصل 82 .

عبد الله الذي سأتحدث عنه من الآن فصاعدا، فإنه تأثر تأثرا بالغا لنعي أبيه : لكنه نظرا لما عسى أن يحدثه غيابه عن ممالكه، قرر مغادرة فاس والتوجه الى مراكش. عهد بحكم فاس الى مولاي مومن، وجاء بحرسه المؤلف من الاسلاميين وبعض المرافقين الى مراكش، حيث حصص له استقبال بهي بقدر ما سمح به الحداد على موت الشريف. فجمع في الحين مجلس ولايات مملكته حضره جميع عمال المملكة وأعيانها. وأثناء ذلك وصل أخواه اللذان انتقما لموت أبيهما فاستقبلهما بفرح كبير. وفي نفس الوقت بايعه (235) الاعيان ملكا لممالك فاس ومراكش وتارودانت وسائر المناطق التي كانت خاضعة للشريف. وقد تظاهر في بداية دولته بحسن معاملة إخوانه وأبنائهم، وجميع رعاياه بصفة عامة، لكن ذلك لم يطل، لانه لم يكن أقل جبروتا من أبيه. فبعد أن دبر شؤون مملكته، قرر ايضا أن يصدر الاوامر للباقي. فعين كخلفاء له إخوانه وأبناءهم، فجعل على فاس مولاي عبد المومن، وعلى تارودانت مولاي عثمان، وعلى درعة ابن أخيه مولاي سليمان، وعلى مكناس ابن أخيه الآخر الذي كان يسمى مولاي محمد. ثم زودهم بالمؤن وأمرهم بأن يحكموا بالعدل ويعتنوا بشؤون الدولة. فانصرفوا جميعهم على الفور وهم في غاية السرور بالعاهل، والتحق كل واحد منهم بمقر إمارته.

وبعد نحو ثمانية عشر شهرا اغتم عبد الله من إخوانه وأبنائهم، لمّا لاحظ أنهم محبوبون الى أقصى حد في أقاليمهم. لذلك قرر التخلص من هؤلاء الامراء الشبان، فأرسل في طلبهم الاربعة جميعا. فاعتذر الذي (236) كان يحكم فاس ببعض الامور الطارئة، وامتثل الثلاثة الآخرون أوامر "الجبار" الذي أمر بقطع رؤوسهم. ولكي يبرر تعسفه شيئا ما، قال إنهم لم يؤدوا مهامهم بتاتا، لكنه إنما كان يخشى أن يسيء أولئك الامراء الشبان إلى أبنائه في يوم من الايام. وعلى اثر هذا العمل الوحشي،. أصبح عبد الله مكروها من جميع رعاياه، وأصابه مرض طويل ظن انه سيموت منه. ولم تكن أخته (237)

---

235) سنة 1557 (هامش)

236) مولاي عبد المومن (هامش)

237) للا مريم (هامش)

تفكر آنذاك إلا في الانتقام من علي بن أبي بكر الذي كان قد قطع رأس أبنائها والشريف الاكبر. وبينما هي تفكر في وسائل تنفيذ ذلك المشروع، اكتشفت الحيلة الآتية الكفيلة بنجاحه. قالت لاخيها المريض إنه إذا توفاه الله فإن ملكه، لسوء حظه، لن يؤول لأبنائه، وسيسنده علي بن أبي بكر إلى مولاي عبد المومن. وأضافت قائلة إنه من الأحسن أن يتحقق من ذلك ويختبر علي بن ابي بكر. فاستحسن الملك رأيها، وطلب منها ان تسهر على ذلك. وذات يوم أراد علي بن أبي بكر أن يلج غرفة انتظار الامير كالعادة لتلقي أخبار حالته الصحية، فمنع من الدخول اليها. وعومل نفس المعاملة بعد ذلك بقليل. عند ذلك أخذ يشك في أن الملك قد مات، فقال لأخته إنه مصمم على رؤيته أو تصرح له بأنه ما زال حيا. تركته الاميرة في مكانه بخفة، لكن دون ان تزيح قلقه، وطلبت من الملك أن يسمح بأن يغطى بكفن كأنه ميت. فقبل الملك، وأدخلت في الحين علي بن أبي بكر، وقالت له بكآبة إنها لم تطق أكثر ان تكتم عنه موت الملك، وأنها تناشده ان ينصب ابنه مولاي محمد على العرش. فأجابها علي بن ابي بكر أنه لا يرى من الانسب أن تسند شؤون المملكة إلى صبي، وأن مومنا أخا الملك قادر تماما على تسيير شؤون الدولة. ثم غادر غرفة الانتظار ونهض الملك على الفور، وأمر ان يحمل إلى باب غرفة انتظاره، فصادف علي بن ابي بكر وشكره لكونه يريد نزع الملك من يد ابنه ليعطيه أخاه. خرج علي من القصر، وقد استولى عليه الرعب، مسرعا الى منزله، وأسرج فرسا ولاذ بالفرار. لكن الملك أرسل في طلبه، فلحقوا به، وساقوه أمامه. ودون ان يريد الانصات اليه ولا أن يراعي وفاءه وخدماته السابقة، استحوذ على أمواله. وأمر بقطع رأسه. وهكذا انتقمت أخت الملك لموت أبنائها.

الفصل 110

إرسال الشريف عبد الله في طلب أخيه الذي بفاس، وذكر أشياء أخرى

بعد أن شفي مولاي عبد الله من مرضه، لم يفته أن ينجز ما قاله القائد، وأن يسند المملكة إلى أخيه. ولما كان يعلم أنه محبوب جدا من أهل ولايته، فإنه استدعاه بدعوى ضرورة التداول معه، لانه كان يفكر في عملية استرجاع مازيغن. لكن أخاه الذي اطلع على مشروعه وموت علي بن ابي بكر وأبناء أخيه، أجاب بأنه سيلحق به قريبا. إلا أنه بعد أن أشاع بأنه يتأهب للذهاب الى مراكش، خرج (238) ذات مساء من فاس، بعد أن عهد بحراستها لأحد قواده، وقضى الليلة في الخيام التي نصبت له بمقربة من المدينة. وفي نفس الليلة، بدلا من التوجه الى مراكش، أخذ طريق تلمسان والجزائر، حيث قرر الالتجاء إليهما ليكون في مأمن من أخيه. وأخيرا وصل إلى الجزائر، التي استقبل فيها استقبالا حسنا من طرف حسن بن بربروس، الذي كان إذ ذاك عاملا بهذه المدينة والمنطقة كلها، باسم السلطان التركي، الذي اقترح عليه أن يساعده ضد أخيه.

مكث عبد المومن بالجزائر، وأعجب حسن بسلوكه النبيل، وخصاله الحميدة، حتى إنه زوجه إحدى بناته وأسند اليه حكم تلمسان، فذهب اليها وأقام بها سكناه، وظل مدة من الزمن محبوبا من أهل ولايته، لأنه كان أميرا شجاعا. ولاشك أن هذا التقدير كان سيدوم لولا مكائد أخيه وابن أخيه التي تسببت أخيرا في هلاكه. وأما مولاي عبد الله الذي كان قد أقام العيون في الطريق ليعرف متى يقترب عبد المومن من مراكش، حتى يرسل لاعتراضه من سينفذ مقصوده الخبيث فيه متظاهرا بإكرامه، فإنه أخبر بتوجهه

---

238) سنة 1559 (هامش)

الى الجزائر. غضب لذلك كثيرا، لما بدا له من أنه سيكون سببا في تجديد الحرب مع الاتراك الذين كان يرهبهم الى حد كبير، لكنه كتم تخوفه. ولما رأى أنه تخلص من إخوته وأبنائهم، أسند حكم ممالكه الى أبنائه الثلاثة. فنصب الاكبر (الذي خلفه) بفاس، والثاني بتارودانت، والثالث بدرعة وتافيلالت. ولم يشن حربا طوال دولته سوى مرة واحدة، عندما أقام الحصار أمام مازيغن (239) التي جرت فيها أشياء عديدة تستحق الذكر، سواء من جانب المحاصرين، أو من جانب المحاصرين، ولو ان الحصار لم يطل وأرغم على رفعه بعد أن فقد كثيرا من الرجال، وقد أفادني ذلك إسلامي (240) من مواليد جبال قشتالة كان السبب في هذه المعركة. ذلك انه أطلع الملك (عبد الله) على أن من السهل احتلال تلك المدينة بواسطة رفع هضبة عالية من التراب، لكن ذلك لم يصادف اي نجاح.

واشتعل في ذلك الوقت حوض كبير قرب أسوار قصبة مراكش، قيل إنه كان يحتوي على ألفي قنطار من البارود، (241) وانتشر الخبر بأن أسيرا مسيحيا أضرم فيه النار حتى لايستعين به المسلمون ضدنا . ودمرت دور الحي بكاملها تقريبا، واحترقت التفاحات الذهبية (بصومعة) جامع القصبة مع ثلاثين مسيحيا . وظن المغاربة المكلفون بالأسرى أن ذلك كان من عمل هؤلاء، فذهبوا الى الخندق الموجودين فيه وأخذوا يقتلونهم، وهم يدافعون ما أمكن عن أنفسهم لأنهم كانوا عزلا من السلاح . فأسرع الملك عندما بلغه صدى هذا الاضطراب، ولما علم بأن الاسرى برءاء من التهم الملصقة بهم، أمر بمعاقبة المغاربة الثمانية الذين اتهموا أكثر بمهاجمة الاسرى، وبمصادرة أموالهم إلى حدود مبلغ فدية عشرين من العبيد الذين قتلهم له هؤلاء المتوحشون.

---

239) سنة 1562 (هامش)

240) فريطو (هامش)

241) مكيدة البارود التي دبرها الاسرى المسيحيون شهيرة، وكانت عام 1573/981 انظر أ. الناصري، الاستقصاء، 5 : 52 .

الفصل 111

إرسال ابن مولاي عبد الله أحد خدامه لقتل عمه بتلمسان

كان مولاي عبد المومن الذي أقام بضع سنوات في أمان بتلمسان يرهب دائما جانب ابن اخيه حاكم فاس، فأراد هذا الاخير أن يريح فكره من ذلك، وعزم بإشارة من بعض أصدقائه، على قتل عمه. كلف بهذه المهمة أحد خدامه كان أكثر ثقة لديه، واعدا إياه، إن هو نجح، أن يجعله من قواده الرئيسيين. ولما اقتنع الخادم برأي سيده توجه نحو تلمسان، متظلما من أميره في كل مكان. وعندما وصل الى المدينة، ذهب لتقبيل يدي مولاي عبد المومن، وعرض عليه خدمته المتواضعة، وأطلعه على عدم رضاه بابن اخيه. صدق مومن ما قاله له الخادم، وقبله في خدمته، حيث بقي أكثر من سنة، كان خلالها حريصا على إرضائه حتى يزيح عنه كل نوع من التشكك. إلا انه اتفق ذات يوم جمعة، بينما كان مولاي عبد المومن يؤدي الصلاة بالجامع، محفوفا بعدد من الفقهاء والفرسان، دخل ذلك المغربي ومر أمامه ورماه بسهم قذافة شق صدره. ثم هرب على الفور راكبا على فرس كان معدا لذلك ورجع الى فاس ليخبر سيده بما جرى. ارتاح الحاكم لذلك كثيرا، ومنح خادمه ما وعده به.

وإذا سأل سائل كيف تمكن ذلك المغربي من الفرار، لان محمدا (عليه السلام) في إحدى سور القرآن منع من حمل الاسلحة الى المساجد، حتى إنه أمر إذا أقيمت الصلاة أن يتابعها المصلي ولو قتل، لذلك لم يقبضوا على المغربي حتى لايخالفوا القرآن (242) وبالتالي، فإن هؤلاء البرابرة يرغبون في أن يموتوا يوم جمعة وهم يصلون.

---

(242) العبارة في أصلها محرفة لان القرآن كلام الله تعالى. ومعلوم أنه لا أثر في القرآن الكريم لما زعمه المؤلف، وأن من المتعذر ان يدخل الخادم أثناء أداء صلاة الجمعة ويصل الى مكان الامير المحفوف بالحراس، ثم يقتله في هذا الملأ من الناس ويتمكن من الفرار !!

ولما وصل نعي مولاي عبد المومن الى مراكش، تأسفوا عليه كثيرا، لأنه كان محبوبا من لدى الجميع بصفة عامة. وقال بعض القواد للملك إن ما يشاع هو أنه أمر ابنه بقتل مومن. فاعتذر الملك عن ذلك، وحتى يبرئ نفسه أمام الناس، أمر ابنه أن يرسل إليه المغربي صاحب الجريمة. وبمجرد ما وصل، دون ان ينصت اليه، أمر بقتله سحبا بالخيل، فأدى هكذا ثمن الجريمة التي ارتكبها، ولم يتمتع إلا قليلا بمكافأته. لكن، حسب الرأي العام، لم يكن الاب ولا الابن بريئين من قتل مومن. إلا انه تأكد لي بأن الاب الذي أراد أن يكفر عن هذا الذنب أرسل في طلب القواد الاربعة الذين أشاروا على الابن بأن يذهب الى هذا الحد الاقصى فأُحضر ثلاثة منهم وأعدموا بمراكش. وأما الرابع، واسمه سيدي موسى، فإنه أعد مركبا شراعيا كان له في الميناء، وأبحر الى هذه المملكة حيث ما يزال موجودا بها تحت حماية سموكم.

الفصل 112
مدة دولة مولاي عبد الله، ووفاته

إن مولاي عبد الله الذي نتحدث عنه هنا كان ثالث أولاد الشريف، وأبشعهم خلقة وأقلهم شجاعة. كان أسمر اللون، قصير القامة، متبلد الذهن، إضافة إلى إقباله المفرط على الملذات. ذلك أنه، وإن كان قصره يضم ما يزيد على مائتي امرأة، شرعيات أو سرايا وإماء، فإنه أغوى أخته (243) لانه يكون ثملا في أغلب الاحيان.

آلت إلى هذا "الجبار" إمارات أبيه منذ سنة سبع وخمسين وخمسمائة وألف وعمره إذ ذاك أربعون سنة، ولم يقم بأي حرب مع جيرانه طوال حياته. كان يحب السلم والعمران، فخصص لذلك جزءا كبيرا من دخله. وشيد

243) للامريم (هامش)

دورا جميلة بمراكش، ووسع القصر الملكي، وبنى مدرسة قرب جامع المدينة الذي توجد التفاحات الذهبية في أعلى مناره. تحتوي هذه المدرسة على أزيد من أربعمائة حجرة، يتلى فيها القرآن. كما شيد في المدينة ملاحا مسورا (لليهود) في ساحة كبيرة قرب الباب الذي يخرجون منه الى فاس. يمكن أن يسع الملاح أكثر من ألفي شخص، ولم يبنه الا ليعيش اليهود كلهم مجتمعين، لأنهم كانوا في عهدين يقيمون في عدة أحياء يهودية متفرقة. وعلاوة على ذلك، حرص على بناء أهرام مقببة واسعة لخزن أعشار الحبوب، كما حرص على اختيار عمال صالحين، علما منه بالاضطرابات التي كانت الخمر توقعه فيها (244) وبالتالي فإنه، لما بلغه (245) أن الملك دم سبستيان الذائع الصيت يجيش الجيوش بلشبونة (246) ، وظن أن ذلك بقصد الاستيلاء على ميناء أكير، فإنه أمر بتشييد حصن على الجبل القريب من المدينة لحراسة الميناء. وبينما كانت الأشغال سائرة، أرسل ألفي إسلامي وأربعة آلاف فارس تركي لمساعدة العمال. وبالجملة فقد سهر كثيرا على تقدم هذا البناء، واستخدم عددا وافرا من الناس في إنجازه حتى أتمه في ظرف سبعة أشهر. ثم أقام به حرسا سبع عشرة سنة، وخلفه ابنه مولاي محمد، وبمجرد ما بويع أمر بالقبض على أخويه، وقطع رأس الاكبر، وسجن الاصغر في حبس. وبهذه الوسيلة اعتلى العرش منذ عام تسعة عشر وخمسمائة والف عندما قتلوا ملك مراكش، ومكث فيه إلى أيامنا هذه بجبروت كبير.

إن مولاي محمد، الملك الحالي، ليس محبوبا من لدن رعاياه، وإن نازعه الملك أمير مقدام سلبه إياه. وقد اتخذ الشرفاء عادة في إمبراطوريتهم ستين ألف فارس مسلحين على الطراز المغربي : عشرون ألفا بمملكتي فاس

---

244) تناقض المؤلف مع نفسه باد في هذا الفصل، فهو ينبز مولاي عبد الله بأقبح الالقاب والصفات، ويذكر من أعماله الجليلة ما يخالف ذلك تماما. حتى الخمر التي زعم انه يعاقرها دعته الى أن يختار عمالا صالحين !

245) سنة 1574 . (هامش)

246) اشارة مفيدة للتعرف أكثر على خلفيات معركة وادي المخازن، وأنها لم تكن بنت الساعة التي تطارح فيها المتوكل على سبستيان.

247) مات عبد الله الغالب يوم الجمعة 28 رمضان عام 21/981 يناير 1574.

وبادس، ونفس العدد بمراكش، وعشرة الاف بتارودانت، وعشرة الاف بأقاليم درعة وتافيلالت وتيكَوارين. كانوا يسكنون في ولايات القصر، ويحدد الملك رواتبهم مما يجبى من إتاوات تلك الولايات. يتقاضي كل فارس خمسين مثقالا في السنة، أي خمسمائة ريال من عملتنا، وتؤدى لهم الرواتب عادة كل أربعة أشهر. لكن الامير كان في بعض الاحيان يحتفظ لنفسه بشيء منها. وأخيرا، فإن هؤلاء الملوك البرابرة يستخدمون منذ مدة من الزمن (248) جنودا مشاة، ورماة مسلحين بقذافات سهام وبندقيات. وهكذا يحاربون أحسن. إلاّ أنه من السهل هزمهم، واحتلال ممالكهم، وقد اكتشفت وسائل ذلك في مذكرات خصوصية سلمتها الى جلالتكم (249).

انتهى

248) كتب في الهامش سنة 1578 . والملاحظ أن هذه هي سنة معركة وادي المخازن

249) هكذا يكشف المؤلف النقاب عن جانب التجسس في مهمته "الانسانية" بالمغرب، ويبين أن له -علاوة على هذا الكتاب- مذكرات تدل ملك إسبانيا على سبل القضاء على الشرفاء واحتلال ممالكهم !



مراجع الترجمة

- **الاستقصا**، لأحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء، 1954.
- **الإعلام** بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام، لعباس بن ابراهيم، طبعة الرباط، 1974.
- **افريقيا**، لمارمول كربخال، ترجمتنا العربية، الرباط 1984-1988.
- **دكالة**، لأحمد بوشرب، الدار البيضاء 1984.
- **دولة الإسلام في الأندلس**، لعبد الله عنان ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة 1955.
- **العبر**، لعبد الرحمان ابن خلدون، طبعة بيروت، 1956.
- **معاجم**، متعددة.
- **نزهة الحادي** لاخبار ملوك القرن الحادي، لمحمد الافراني، طبعة حجرية بفاس.
- **وصف افريقيا**، للحسن الوزان، ترجمتنا العربية ـ الطبعة الثانية، بيروت 1983.



فهرس الموضوعات

رقم الإيداع القانوني
1988.869

مطابع سلا
الحي الصناعي لتابريكت
الهاتف: (07) 887.02 سلا